حامض حلو

ماري ويسلي

'ممتعة بشدّة'
Times

رواية

ترجمة
ريم طويل

دار الساقي

حامض حلو

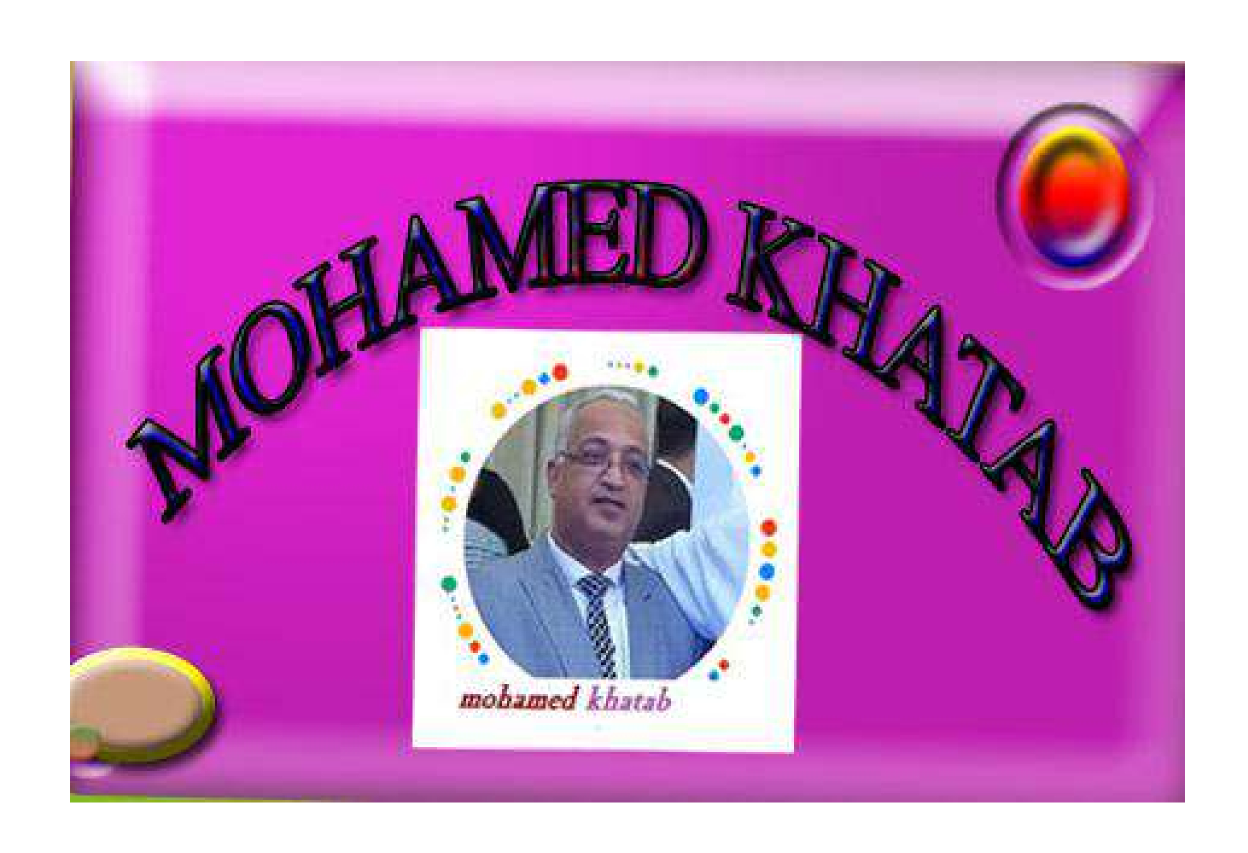
ماري ويسلي

'ممتعة بشدّة'
Times

رواية

دار الساقي

ترجمة
ريم طويل



حامض حلو

ماري ويسلي

حامض حلو

ترجمة

ريم طويل



Mary Wesley, Harnessing Peacocks, Vintage, 2007

الطبعة العربية

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠١٧

الطبعة الإلكترونية، ٢٠١٧

ISBN-978-614-03-0134-4

دار الساقي
[illegible]ت. ص.ب.: ١١٣/٥٣٤٢.
[illegible] ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٩٦١ ١ ٨٦٦٤٤٢، فاكس: ٩٦١ ١ ٨٦٦٤٤٣

e-mail: info@daralsaqi.com
يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com
تابعونا على


@DarAlSaqi


دار الساقي


Dar Al Saqi

مقدمة

يمثّل الزواج بالنسبة إلى بعضهم أمراً تقليدياً، وأما ممارسة الجنس، فهي حدث عرضي. بالنسبة إلى الآخرين تكون ممارسة الجنس الأمر التقليدي، والزواج هو الحدث العرضي. يقدم هذا المثل النيجيري وصفاً مثالياً لرواية **حامض حلو**.

ماري ويسلي هي امرأة حاولت عائلتها تقييدها بالتقليد الذي كان متبعاً عندهم بمنع تعليم بناتهم، وإنما تحضيرهن للزواج، لكنها أفلتت من القيد مستعينة بسلسلة من العشاق الأجانب الذين جعلوها تدرك قيمة الوقت الذي أضاعته نائمة مع الإيتونانيين[1] العجائز. كانت امرأة اختارت طريقها الخاص، واختارت أن تخط حياتها ولم تستسلم. مثّل النظام الاجتماعي، والتسليم بما هو متفق عليه، وحشها المرعب. كانت عائلتها برجوازية متغطرسة آمنت بالإرث بدلاً من العمل والإحراج الاجتماعي، وكانت هي الأساس في وصف عائلة هيبي في **حامض حلو**. كان افتقادهم إلى الحنان والتفهم ورياؤهم وعنصريتهم ومعاداتهم السامية الأساسات التي استندوا إليها في الحكم المتخيل الذي أطلقوه على هيبي، والحل الذي فكروا فيه. ما أزال أذكر لهجتهم المتكلفة وفهمهم التفوق الاجتماعي، وأفهم قرار هيبي بالسير في طريقها – أياً كانت المخاطر – وأن تثق بالأصدقاء بدلاً من العائلة، ورغبتها في ألا تكون "ضحية زواج مناسب".

1 نسبة إلى كلية إيتون في بريطانيا، وهي مدرسة داخلية مستقلة للذكور فقط. [الهوامش كافة من المترجم]

لو لم تلتقِ ماري ويسلي إريك سيبمان في الحرب، وهو الشخص الذي عاشت معه علاقة حب طويلة مليئة بالشغف حتى بعد أن تزوجا، كان يمكن أن تكون، بل كانت ستكون هيبي. كان سيبمان رجل العيوب لكن له ميزته العظمى وهي أنه لم يجعلها أبداً تشعر بالملل. لو كانت امرأة تساوم، ما كتبت الروايات الإحدى عشرة التي كتبتها. وبقراءتها مرة ثانية، أتعرف إليها أفضل، وأقدر حكمتها التي، مثل بطلاتها، اكتسبتها بالمخاطرة. هل يريد أحد أن يتزوج زواجاً مملاً غير معقد؟ هل يريد أحداً أن يتوقف عن التفكير في الجنس؟ هي لم تكن تريد ذلك، حتى عندما كانت على فراش الموت، سألتني أي من عشاقها الذين كانوا في رأسها وسريرها سيكون بانتظارها، متمنية ألا يشعروا بالغيرة من بعضهم بعضاً.

لأنني ابن ماري ويسلي، قرأت رواياتها في البدء بمزيج من الارتباك والخجل، ومن حسن حظي أنني فهمت عمق يأسها في **قفز الضفيرة** ومتعتها في **مرج الأقحوان**. رواية **حامض حلو**، التي

أهدتها لي، أربكتني بإعجاب؛ إنها تكتب على نحو جيد جداً عن قيمة الاستقلالية، وفهمها الحب، وثقتها الجنسية وحكمتها... كلها أمور تشجعني. كانت ترى أن الإخلاص غير مهم مثل تبادل الملابس بين الجنسين في الزواج التقليدي. فهمت الحرية التي منحتها لهيبي التي قررت البقاء أمّاً عازبة، وكان شعارها شعاراً براغماتياً كما تقول هيبي نفسها: ”أنا طاهية مكلفة جداً... الأمر نفسه ينطبق على السرير“.

تطهو هيبي للسيدات العجائز، وبصفتها امرأة عازبة جذابة، تثير شهوة أبنائهن وأصهارهن، تمنحهم كرماً جنسياً وثقة ربما يكونون قد نسوا أنها عندهم، وإذا (فقط إذا) استمتعت معهم، تدعهم ينتسبون إلى رابطة عشاقها. قواعد رابطتها أنها هي من يتصل بهم، وتخبرهم عندما يكون بإمكانها أن تقضي وقتاً معهم، وأين... فينيسيا، اليونان، روما، باريس (فندق إنكلترا)، ويكون ذلك من حظهم. ومن المال الذي تكسبه من الطهو والسرير تدفع لتعليم ابنها. هي متعة للرجال المتزوجين من نساء متسلطات. في بعض الأحيان، تكون متعة تقدمها إليهم أمهاتهم اللاتي تفهمن أن هيبي مثل المحارة التي تفتح بأمان، فتدخل هيبي حياة الرجال وتخرج بنية طيبة، وتعطي رفقة جيدة، وممارسة جنسية جيدة، وضحكاً. تفعل أفضل ما لديها لتمنعهم من انتهاء الرغبة، ومن الوقوع في حبها، ثم مثل كل الأوضاع الجيدة، يبدأ هذا الوضع بالتحلل.

قالت ماري لي ذات مرة إنها كانت سعيدة كمحظية، وإن الحرب العالمية الثانية أعطت لكل امرأة في بريطانيا الفرصة لتكون واحدة. لا بد أن السنوات التي تلت الحرب كانت كئيبة جداً بالنسبة إلى كثيرين! هربت هيبي من عائلتها إلى تاجر تحف قديمة. ومجتمع المحظيات المتقاعدات سمح لماري أن تظهر حكمتها العاطفية والجنسية التي اكتسبتها بألم خلال سنوات، كما يظهر من هذه الاقتباسات التي أجدها بنفسي تبقى صحيحة:

١- ”موهبتها في العطاء، موهبتها في جعلهم يشعرون أنفسهم خارقين“.
٢- ”عندما كنت أفقد إحساسي بالحب تجاه فتاة ما، كنت أرتب الأمور حتى يتحول الحب إلى صداقة“.
٣- ”لماذا تتوقع النساء دوماً أن هذا عمل يفعله الشخص مع فتاة واحدة خلال العلاقة“.
٤- ”ما الفرق بين الزواج من أجل المال وأن تكوني عاهرة؟“.
٥- ”يظل لدى كبار السن مشاعرهم“.
٦- ”بعض الرجال عشاق جيدون، بعضهم أزواج جيدون... من المهم فهم ذلك“.
٧- ”الوسامة ليست كل شيء. كل شخص يجب أن يتعلم أن يكون مبهجاً في السرير“.
٨- ”أنت لا تحتاجين دوماً إلى هرقل يقحم نفسه بين فخذيك“.

عندما اجتمعنا لنعيش معاً بدلاً من أن يزور أحدنا الآخر، كنت ذا شخصية مستقلة في الحادية عشرة من العمر. فهمت هذا واحترمته. لذلك، طوال السنوات التي كبرنا فيها لنعرف بعضنا بعضاً لم تكن أبداً أمومية. حتى رأت الموت يقترب منها، فوجئت بالظهور المفاجئ لمشاعر الأمومة.

وعلى نحو ناكر للجميل، افترضت أن ذلك كان متأخراً نوعاً ما. طلبت مني قبل بضعة شهور من وفاتها أن آتي لرؤيتها، وأحضر غداء النزهات المفضل لديها: الفواجرا، والنبيذ الأبيض، والكافيار (أتوقع أنها كانت تحب الجنس في الهواء الطلق). طلبت مني بعد الغداء أن أمسك يدها وهي نائمة. وعندما استيقظت، تحدثنا عن بوش وبلير، وعن قدرة تاتشر على تفادي الحقائق، وكيف جعلت جاين أوستن زواجها محترماً. كما قلت ذات مرة لعاشق محتد أراد أن يتزوجها: ''نحن لسنا من النوع الذي يتزوج''. ورغم أنه بقي يحب ماري حتى موته، فإنه تزوج بأخرى. أوه! لا بد أن أعضاء ''رابطة هيبي'' قد تأسفوا كثيراً لتقاعدها!

مثل كل روايات ماري ويسلي الرائعة، فإنها في **حامض حلو**، تسلي وتمتع وتجعل الناس سعداء.

توبي إيدي، كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٧

إلى توبي

''هيبي''، نادى الجدّ.

– ''نعم''.

''خذي هذه الرسائل إلى البريد''. كان الرجل العجوز قد جلس في غرفته يكتب رسائله وكأن شيئاً سيئاً لم يحدث، محاولاً ملءَ وقته بشيءٍ مفيدٍ وهو ينتظر وصول حفيداته الكبيرات وأزواجهن. نقر بطرف إصبعه على كومةٍ من الرسائل الموضوعةِ أمامه، فأخذتها هيبي دون أن يرفع نظره إليها.

– ''أغلقي الباب خلفك''.

كانت قد سمعته طوال حياتها وهو يقول: ''أغلقي الباب''، فقد كان يصاب بالجنون من الأشخاص الذين يتركون الأبواب مفتوحة.

لمحت هيبي وجه جدّها وهي تأخذ الرسائل. كانت ملامحه مزيجاً من ملامح أسلافه الذين تنتشر صورهم في الرواق وغرفة الطعام وفوق الدرج. تساءلت هل سيفاجئه أن تقول له: ''أحبك، أشعر بالأسف من أجلك، أفهم كيف تشعر، أيمكنك أن تحاول فهمي لو مرة واحدة؟''. لكنها فكرت وهي تمسك الرسائل بأصابعها المرتجفة، يمكنني أن أضربه فقط، أضربه بأقوى ما أستطيع. غادرت الغرفة مغلقةً الباب خلفها. كان يمكن لجدتها المستلقية على الأريكة في الصالة ذات الباب المفتوح أن ترى ما حدث، وقد سمعت الباب يُغلق، لكنها لم تلقِ بالاً.

نزلت هيبي السلالم وخرجت إلى الحديقة. استدارت يساراً فوق العشب المصفر بفعل شمس الصيف الحارقة، ومشت بعيداً عن المنزل المبني من الآجر الوردي بنوافذه اللطيفة، واتجهت إلى البستان حيث ستكون بعيدةً عن الأنظار. هناك خلعت حذاءها لتسير حافيةً، وجمعت شعرها خلف رأسها وتبعت الطريق التي تقود إلى فناء الكنيسة، ومن بعدِ الكنيسة إلى صندوق البريد المعلق في الجدار.

توقفت في فناء الكنيسة لتشاهد مجموعة من فراشات الأغليس تطير فوق أزهار الربيع المنتشرة بين الأعشاب البرية مستمتعةً بأشعة الشمس بين شواهد القبور. كانت الشواهد تتمايل على الجانبين. ''سيتقلّب أبواكِ في قبريهما''، ردّد جدّها عدة مرات، فقد كانت لديه عادة التكرار. هل يتقلب الناس الجاثمون في قبورهم تحت هذه الأحجار لأنهم أيضاً مرّوا بعلاقةٍ مع امرأة سيّئة؟ كان تعبير سيّئة تعبيراً لطيفاً مقارنة بـ: مومس، كاذبة، مخزية، فاسقة. تأمّلت هيبي شواهد القبور وهي تشعر بالخدر؛ كانت منهكةً بسبب الشجار الذي أخذ يتّقد بين حينٍ وآخر منذ عادت من زيارة الطبيب وحملت الأخبار التي قادت إلى الاستجواب الطويل، والتعليقات المؤلمة، والاتهامات. لوت أصابع قدميها، وغطت وجهها بشعرها الطويل. هنا في فناء الكنيسة، إذا جلس الشخص وقتاً كافياً، فمن

الممكن أن يرى قنفذاً في بعض الأحيان وضفادع الطين غالباً. قطفت هيبي رؤوس أزهار الربيع، ودستها بين أصابع قدميها لتختبر الإحساس الذي يسببه ذلك ولم يكن ذاك الإحساس مريحاً. نظرت من خلال نظارتها إلى النقش الموجود على الشاهد بجانبها وتتبعته بأصابعها: ״مات أداءً للواجب״. الأحمق المسكين، قالت في نفسها، مستخدمةً تعبيراً من التعابير التي يردّدها أحد أصهارها. تناولت أزهار الربيع من بين أصابع قدميها ووضعتها على القبر. إنّ هذا كثيرٌ على الواجب. نهضت وبدأت العودة إلى المنزل عبر طريقٍ غير مباشرةٍ توقفت خلالها في فناء الإسطبل. علا صهيل فرس جدها من داخل الزريبة الوحيدة المستخدمة لتربية الخيل. فاتجهت نحوها لتمسد الأنف الناعم وتشم أنفاس الحيوان الجميلة. نفخت في منخري الفرس. ״كيف حالك؟״. تململت الفرس، وركلت بساقها للخلف. شاهدت هيبي في زاوية الزريبة معزاةً تنظر إليها بعينيها المشقوقتين غريبتي الشكل.

״ستعتادها شريكةً لها״. قال عامل المزرعة وهو يقف إلى جانبها ويحمل دلواً فيه ماءٌ نظيف.

– ״ماذا حدث لمهرها؟״.

– ״لقد كان بغلاً صغيراً، لم يكن جدك سعيداً به״.

– ״كيف حدث هذا؟״.

״لا بد أنها حين هربت وعبرت السياج قد التقت أحدَ حميرِ الغابة، على ما أظن״. قال ذلك وهو يضحك ويضع الدلو في زاوية الزريبة. أرجعت الفرس أذنيها للخلف في حركة عدائيّة. ״إذاً״، قال العامل، وهو يخرج بسرعة ويغلق باب الزريبة بالرتاج، ״ستنسى سريعاً״. راقبته هيبي باشمئزاز وهو يبتعد. ״تعالي هنا״، نادت على المعزة، ״أرسلي هذه״. اختطفت المعزاة الرسائل من يدها وبدأت تمضغها. عادت هيبي لتخاطب الفرس: ״إذاً، فقد قتل مهرك، إنّه يحضّر إجهاضاً لي״.

تناهت إلى سمعها أصوات سياراتٍ من جهة الطريق كانت أصوات سيارات أصهارها: روبرت، وديليان، وماركوس المتزوجين بأخواتها: آن، وبيتيا، وكارا، وهم يقودون سياراتهم: الجاكوار والرانج روفر (من الواجب شراء السيارات البريطانية) والألفا روميو (لا بأس باقتناء سيارةٍ أجنبيّة إن كنت قد عملت في بروكسل). غادرت هيبي فناء الإسطبل بسرعة وانسلت عائدة إلى المنزل لتّتخذ موقعاً لها في الرواق، حيث يمكنها أن تستمع لنقاش من هم أكبر وأكثر وعياً وخبرةً منها في الاجتماع الشكلي الذي يعقدونه للتصديق على ما اتّفقوا عليه مسبقاً. لفّت تنورتها حول ركبتيها وجلست على الدرج. تحدّثوا عن كل علاقاتها بصراحةٍ ووضوح – لم يكن من الضروري أبداً أن يطلب منهم تجنّب التكتم – وبما أن جديها كانا يعانيان من مشكلةٍ في السمع، حاول الجميع أن يرفعوا أصواتهم قدر الإمكان أثناء الحديث.

كانوا يتناولون شراباً. فقد سمعت قرقعة الكؤوس إضافةً إلى جرجرة أقدام، وصرير الكرسي أثناء جلوس جدّها. ''حسناً، إذاً''.دخل كلب الجدّ العجوز من الشرفة حيث كان يستلقي طوال ما بعد الظهر عبَر الرواق وخربش على باب الصالة. ''دعوا الكلب يدخل''. قال الجدّ، ومن الفور فُتح الباب ودخل الكلب. انتظر الجدّ حتى أُغلق الباب وكرّر، ''حسناً، إذاً''، بدأ روبرت، زوج الحفيدة الكبرى، الاجتماع عندئذٍ.

أولاً وقبل كل شيء علينا أن نحمي اسم العائلة، قال روبرت منبّهاً، ثم تابع حديثه فاقترح اللجوء إلى عيادةٍ خاصّة. صحيحٌ أن هذا سيكون مكلفاً، لكن الكلفة تتناسب مع حجم الأمر الذي نتعامل معه سريعاً. لذلك، لن تضيع سدىً.

ثانياً، رغم أنّ هذا أقلّ أهميّةً بالطبع، فإنّهم كلمّا أسرعوا بالتصرف، أصدر روبرت سعالاً قبل أن يكمل حديثه، قلّ الخطر الذي يحدق بدائرته الانتخابية أو بمصرف ماركوس (فأعضاء مجالس الإدارة كانوا أناساً تقليديّين). سمعت هيبي صوت ديليان يتدخل في الحديث: ''أليس علينا أن نفكر في وسائل أخرى؟''، كان صوته مشوباً بالتردّد وهو يحاول التعبير عن وجهة نظرٍ مختلفةٍ ربّما، ''إنّ هذه الحالة تحدث في مختلف أنواع العائلات، فهي تحدث بين الفنانين، وحتّى في عائلات السياسيين''.

– ''نحن في ورطة، ديليان. لو أننا عرفنا من يكون هذا الرجل، إذا جاز التعبير، حسناً، كان يمكن أن نسوّي الأمر. أمّا الآن، بهذا الوضع، فإنه ليس لدينا حلّ. ليس هناك أمل في أن تحصل على دعم. وإذا تركنا الوضع يستمر على ما هو عليه، فلن يكون هذا حلاً في المبدأ''.

''من الواضح أنه كان هبّياً، والأرجح أنه أسود. ولهذا السبب، لا تريد أن تخبرنا من يكون''. كانت هيبي قد سمعت آراء مختلفة عن هذا الموضوع طوال الأيام الماضية.

''معظم العائلات لديها فضائح مخبأة''. كان ديليان يحاول من جديد، وكانت هناك نغمة مزعجة في صوته. ''ما أقصده هو أن نفكر في الكتاب المقدس، فكروا في قصة يوسف العجوز المسكين[2]''.

2 إشارة إلى موقف القديس يوسف من مريم العذراء ورعايته لها خلال حملها وبعد الولادة.

''يوسف كان يعرف ما حدث!''، قالت كارا مقاطعةً ديليان وهي تبكي.

''ديليان، أبقِ الكفر بعيداً عن هذا''. كان الجدُّ حادّاً هذه المرّة. ''لنبقَ في الموضوع من فضلكم. هذا ليس وقت النكات السخيفة''.

ارتفعت أصواتهم فجأة كقطيعٍ من كلاب الصيد تشتمّ رائحة طريدة. وعلا صوت آن فوق أصوات الجميع. ''علينا أن نفكّر في أولادنا، ديليان. أنا لا أريد أن يكون لأطفالي أولاد خالة مثيرين للسخرية، وأنا متأكدة من أنّ كارا لا تريد ذلك أيضاً، كذلك زوجتك بيتيا التي تنتظر مولودها الأول في أي لحظة. عليك أن تفكّر فيها''.

شعرت هيبي برغبة غريبةٍ في الضحك. نزعت نظارتها ومسحتها بطرف ثوبها وهي تستمع إلى آن تكمل حديثها. ''من، يا تُرى، سيرغب في الزواج بهيبي، إن كان لديها هذا الطفل الخلاسي؟ علينا فعلاً أن نفكّر ما هو الأفضل لها، فنحن لسنا أنانيين أو غير مبالين. دع روبرت يقرر ما هو الأفضل للعائلة، والأفضل لهيبي''.

استمرّ الأقرباء المجتمعون يعبرون عن وجهات نظرهم لبضع دقائق. كانت هيبي تسمع خلالها أصواتاً كالعواء تلفظ جملاً غير مكتملة فيها كلمات مثل: طائشة، متهورة، كاذبة، لم يتأخر الوقت جداً، سينتهي الأمر قريباً، سيُنسى بسرعة. استخدم روبرت بعد ذلك الموهبة التي تعلمها لإسكات من يقاطعونه في الاجتماعات السياسية ليقمع الجوقة ويخفف صياحهم: ''هل يمكن أن نتوقف عن الثرثرة، سأكلّم الطبيب أرميتاج الآن. فأنا يجب أن أعود الليلة إلى لندن، لأنّني سأسافر في الغد إلى نيويورك''. كان الوقت الذي خصّصه لهذا الاجتماع قد انتهى. هدأت الأصوات، وسمعت هيبي صوت استخدام الهاتف وتحضير الترتيبات: غرفةٌ في عيادة، ستكون العملية بعد الظهر، يمكنها أن تعود للمنزل في اليوم التالي... عظيم!

بينما كانت هيبي تصغي إلى صوت روبرت اللطيف يشتري خلاصه من الارتباك، ويضع حداً للأذى الاجتماعي الذي قد يصيبه، فكرت في نفسها: أنا أحبّ هؤلاء الناس، هم عائلتي، وهم لم يطردوني خارجاً، هم يتأكدون فقط من أنني أتلاءم مع مخطّطاتهم في الحياة. وصلت نفحة ريحٍ باردة من الباب المفتوح. كانت السماء في الخارج رهيبة، فالمطر الذي طال انتظاره كان على وشك أن يهطل، والجو يزداد ظلمةً وبرودة. جاء صوت روبرت من جديد من الجانب الآخر للباب: ''لقد حُسم الأمر. هل يمكنك أن تصحبها في الصباح، ديليان؟''.

– ''لا مشكلة''.

''جيد، جيد''. أصدرت يداه الجافتان حفيفاً وهو يفركهما، ''حسناً إذاً، يجب أن نغادر، هل أنت جاهزة آن؟''.

''أليس لديكم الوقت لتناول كأسٍ أخرى من الشراب؟''، قالت الجدة.

لا بدّ أنها خائفةٌ من أن يتركوها وحيدةً معي، لكنها لم تحرّك ساكناً لمساعدتي. فكرت هيبي.

– ''لا، لا، شكراً لك، يجب أن نغادر''.

صعدت هيبي الدرج بسرعة مجبرةً ساقيها المخدّرتين على الحركة لتصل إلى غرفتها الواقعة فوق الشرفة وتغلق الباب. كانت متأكدةً من أن أحداً لن يقترب منها الليلة، فهم لا بدّ حسبوا أنها أوت إلى الفراش. ارتدت سترةً صوفيّة وهي ترتجف من الألم، وبدّلت حذاءها، تناولت لآلئ أمها وخواتمها من درج الخزانة – كانت آن وبيتيا وكارا قد حصلن على أفضل القطع – ودست المجوهرات في حقيبتها، ثم أحصت نقودها، وكان بحوزتها سبعة عشر جنيهاً. أطفأت الضوء، ووقفت قرب النافذة المفتوحة تصغي إلى ما يدور في الأسفل. بدأ المطر ينقر على أوراق اللبلاب. فُتح الباب الأمامي، فتسرب الضوء خارجاً لينير الطريق. ارتفعت جوقة الأصوات من جديد تتبادل التحيّات: ''إلى اللقاء، إلى اللقاء''. ''سعيدٌ أن الأمر قد حُسم''. ''نحن شاكرون جداً لك''. ''لا داعي على الإطلاق''. ''نراكم قريباً''. ''قودوا بحذر''. ''ليلة سعيدة''. ''يبدو أنها ستمطر مطراً غزيراً إن كنتم تنتظرونه''. ''نحن نحتاج إليه من أجل الزرع''. ''ليلة سعيدة، ليلة سعيدة، ليباركك الله''.

شاهدت هيبي روبرت وآن وهما يقبّلان الجدّين ويستقلّان سيارتهما الجاكوار، ثم ينطلقان بعيداً.

بعد ذلك صعد ماركوس وكارا في سيّارة الرانج روفر، وركب ديليان وحيداً في الألفا روميو.

''بلّغ محبّتنا لبيتيا''، قال له الجدّان. لم تنضم بيتيا إلى الاجتماع لأنها حامل، فهي يجب ألا تتعرض لأي إزعاج أو لأي شيء قد يكون سبباً في خطر الإجهاض.

شقّت السيارات طريقها تحت المطر وهي تعبر الطريق الفرعي متجهةً إلى الطريق الرئيسي.

''إنه وقت النوم''. استدار الجدّ ودخل المنزل. ''لقد كان أسبوعاً شاقّاً''.

هل استمرّ الكابوس أسبوعاً واحداً فقط؟

– ''هل كان يجب أن يحدث لنا شيءٌ كهذا!''.

– ''إنه شابٌ طيب، روبرت. لكن الرئيس يعوق مسيرته. سيصل إلى مكانةٍ عالية، تذكري كلامي''.

استمرت هيبي في انتظارها، فيما ترك جدّها الكلب يكمل جولته في الخارج، ثم وقف في الشرفة يناديه بنبراتٍ حنونةٍ لا يستخدمها مع أيّ مخلوقٍ آخر. أُغلق الباب الأمامي بقوة. ثم أُغلق باب المطبخ بعد أن دخل الكلب واتجه إلى سلته. كان الدرج يصدر صريراً والرجل العجوز يصعد إلى غرفته وهو يطفئ الأنوار خلفه. دقت الساعة في الرواق معلنةً: الحادية عشرة.

''لقد تأخّر الوقت''. أُغلق باب حجرة نوم الجدّ، وغرق المنزل في السكون. بقيت هيبي تنتظر.

شعرت بأنّها متعبةٌ للغاية، وشعرت برغبةٍ جارفةٍ في النوم. فكرت في نفسها، هل ستسبّب ساعتان من النوم مشكلة؟ ولكن ما الذي سيحدث إن لم تنجح في الاستيقاظ؟ سيلقى الطفل الذي تحمله في أحشائها حينها في مياه المجاري. نزلت الدرج ببطء، تلمّست المعاطف المعلّقة في الرواق بحثاً عن معطفها، وعندما وجدته، اتجهت نحو المطبخ. هزّ الكلب ذيله في سلته. فانحنت لتمسّد رأسه، متلمسة أذنيه الحريريتين، غمغم الكلب وحرّك فكيه. ’’وداعاً، سموت‘‘، قالت بهدوء.

حين صارت خارجاً، وقفت متردّدة. كان الجدّ في الأعلى ينزل إطار النافذة المتحرك.

– ’’مطرٌ رائع. لقد جاء في الوقت المناسب ليسكت أولئك السخفاء التافهين في لجنة المياه الذين يطالبون بمنع استخدام خراطيم الحديقة‘‘.

ردّت جدّتها بشيءٍ ما غير مسموع.

– ’’إنه شخصٌ ذكيّ، روبرت. لقد أنهى الموضوع بسرعة. لا أعرف لماذا لا يمكن لهذه الحمقاء الصغيرة أن تكون كشقيقاتها...‘‘.

’’المسكينة...‘‘، قالت الجدّة.

– ’’ليست مسكينة. لقد ربينا تمساحاً‘‘.

– ’’سماعة أذني مغلقة. لا أستطيع سماع ما...‘‘.

’’قلت لقد ربينا تمساحاً، إذا جاز التعبير‘‘، قال الجدّ رافعاً صوته.

’’التماسيح أمهات رائعات‘‘. ردت الجدة وهي تحاول التلميح إلى اعتراضٍ طفيف.

’’نحن لن نعطي هذه التمساحة الفرصة لتظهر كم هي أمٌّ رائعة‘‘، قال ذلك وهو يغلق النافذة بقوة.

انتعلت هيبي حذاءها، ورفعت ياقة معطفها. خرجت تحت المطر وهي تتمنى ألا تسمع هذه الأصوات مرةً ثانية أبداً.

١

سارت الأمّان الشابتان جنباً إلى جنب وهما تدفعان عربتي الأطفال المزدوجتين أمامهما. كان في كل عربة طفلان. الطفلان الرضيعان كانا يحملان دمى يمصانها، فيما تمدّد الطفلان الأكبر منهما في استسلامٍ تحت الأغطية البلاستيكية التي تحميهما من رذاذ المطر. وقفت المرأتان تحدّقان في واجهات المتاجر، واستدارت كل منهما نحو الأخرى لتعلقا على ما تشاهدانه. كانتا تشغلان الرصيف بكامله، وكلتاهما كانت حاملاً. وقد اضطر الأشخاص الذين حاولوا تجاوزهما إلى الخطو داخل قنوات الصرف الموجودة بجانب الطريق أو انكمشوا على أنفسهم داخل مداخل الأبنية ليتجنبوا الاصطدام بهما.

شعرت هيبي بغضبٍ شديد، وقد دهمتها رغبةٌ ممتعة نوعاً ما في دفع المرأتين الشابّتين، والصراخ فيهما لتفسحا الطريق، مسببةً إخافتهما، وإجبارهما على إظهار الاهتمام. إن مجرد التفكير في أنهما كانتا مثقلتين بحملهما جعل هيبي أكثر غضباً، فهي عندما كانت حاملاً بسيلاس، لم تحتل أبداً مثل هذه المساحة، وكذلك ما كانت لتدع سيلاس أبداً يرضع دمية، كما أن سيلاس لم تكن لديه عربة أبداً. فهي كانت تحمله دوماً في حمّالةٍ بالقرب من قلبها.

طافت هيبي خلف المرأتين وهي تحتفظ بأفكارها السيئة مشمئزةً من رجرجة أردافهما، وتحرك رأسيهما بطريقة آلية، وانفجارهما المفاجئ بضحك سخيف. ومع ازدياد عصبيتها شعرت بوجهها يزداد حرارة وأن نظارتها فوقه توشك أن يغشيها البخار. تركت المرأتين تسيران وحاولت البقاء بعيدة عنهما، نزعت نظارتها ومسحتها مستمتعة بإحساس انزلاق الزجاج بين إبهامها وسبابتها.

عند زاوية الشارع، وبينما كانت المرأتان تتابعان حديثهما، دفعتا العربتين لتنزلا عن الرصيف، فارتفع في الشارع صوتٌ حادّ لمكابح سيارةٍ كانت تقترب وتمكنت من التوقف على بعد سنتيمتراتٍ قليلة من الأطفال الأمر الذي كاد يسبب للسائق أزمة قلبية.

– "ألا يمكنك أن تنظري أين تذهبين؟".

– "أحمقٌ غبيّ، كدت تقتل طفلي كيفن".

"انظري أين تذهبين، انظر...".

استدارت هيبي بسرعةٍ نحو الزاوية وهي تبتسم ابتسامةً فيها تعبيرٌ عن سعادة الانتقام. كانت تحمل نظارتها بيدها. لذا، لم يكن بإمكانها رؤية الكثير من تفاصيل الحادث الذي استهجنته، وتساءلت: هل

تمنت السوء للمرأتين بسبب قلة صبرها وافتقارها المحبة. شعرت بالقوة تتأجج في داخلها على نحو جنونيّ ومبهج معاً، فزادت سرعتها، واستعدّت لصعود التل.

لم يكن بإمكان هيبي وهي لا ترتدي نظارتها أن ترى أكثر من مشهدٍ ضبابيٍّ لأبنيةٍ من الآجر الكئيب. كان كلّ بناء أضخمَ من الذي يجاوره، وكانت كلّها مبنيةً من آجرٍ أرجواني يتخلله لونٌ بنيٌّ فاتح حول النوافذ. كانت أبنيةً متينةً وصلبةً وتنمّ عن بشاعةٍ بالغةٍ.

بدأت هيبي صعود التل الأمر الذي كان صعباً حتى على الشباب ومن يتمتعون بوافرٍ من الصحة، لكنه كان مثالياً للأطفال المتهورين حيث يتمكنون من قيادة دراجاتهم بحريّة. وبينما تتنفس الهواء الرطب الملوث، انتبهت إلى رائحةٍ لم تتمكن من تحديدها، هل هي رائحةُ قهوة، أم فلفل، أم دخان. ذكّرتها الرائحة بالكابوس المرعب الذي راودها متملكاً إيّاها كما فعل الآن، ومسبّباً لها حالة من الرعب الكليّ جعلتها تقفُ وهي تحمل نظارتها بيدها، فيما ضغطت يدها الأخرى على صدرها، ثم ارتفعت لتحمي عينيها في محاولة لحجب الأبنية الشاهقة الارتفاع التي تخفي السماء وتنحني إلى الأمام لتطل من نوافذها المعتمة المخفية العيون المهددة التي تتوعدها. سمعت أصواتاً ساخرةً، وضحكاً، وثرثرةً عبثيّةً لمجموعة غير مرئيّةٍ من الناس يحيطون بها مصدرين هتافاً مخيفاً يعزلها في شرنقة مرعبةٍ، الأمر الذي جعلها تتعرّق وترتجف غير قادرةٍ على الحركة، فيما تكرّر الأصوات عباراتها.

– ''من هو الرجل؟ يمكن أن يكون أي شخص. من هو الرجل؟ لا تتحدثي إلى جدّك بهذه الطريقة. هل هو متسكّعٌ بشعرٍ طويل، وقدمين قذرتين؟ أنت مومس. أخواتك أبداً... من هو الرجل... تردد الجوقة... لا تردّي بتلك النبرة. هل يرتدي أقراطاً؟ يتعاطى الحشيش؟ الهيروين؟ الأرجح أنه شيوعي، أظفاره قذرة. من هو الرجل؟ ألا يمكنك أن تتحدثي بلغة راقية؟ لا تراوغي. يجب أن تجري إجهاضاً. ماذا سيقول أصهارك؟ من هو؟ يجب أن تعلمي. لا تكوني وقحة. أين حدث هذا؟ ربما يكون أسود. لقد ضحينا كثيراً من أجلك، قدّمنا إليك كل شيء. لا تتجرئي على الكلام بهذا الأسلوب. لا تكذبي. إن لم يكن الأمر تكرّر كثيراً فربما فعلته خدمةً لهيئة الخدمات الصحية الوطنية[3]. ماذا تقصدين بأن الوقت قد تأخّر جداً؟ كم من الشهور مضى على الأمر؟ بالطبع أنت تعلمين. فكري في أصدقائنا. أنا لا أصرخ. أخواتك. لقد جعلت جدّتك تبكي. كوني مؤدبة على الأقل. بعد كل ما فعلناه من أجلك. كل الأشخاص المناسبين. من كان؟ ربما لديه سجل إجرامي. ربما يكون مريضاً، ربما يكون أسود. هذا لا يحتمل. من... من... من؟''.

3 ''هيئة الخدمات الصحية الوطنية'' هي نظام تقديم الخدمات الصحية للمواطنين في إنكلترا ويموّلها العامة.

أدركت هيبي أنها إن تماسكت فإن الرعب سيتلاشى، وأنها ستتعافى حال ما تنتهي من حالة الخدر التي أصابتها.

"أنا لست مجنونة"، قالتها بصوت عالٍ، فتحت عينيها. وتلفتت حولها بسرعة لتتأكد من أن أحداً لم يرها. أسرعت الخُطى عبر الشارع مجبرةً ساقيها على السير بسرعة ومسيطرةً على نفسها. حين وصلت إلى باب بيتها، كان قلبها يدقّ بسرعة، وأنفاسها متقطّعة. بحثت عن مفتاحها، وهي تحاول ضبط أنفاسها. ما كان هذا؟ خيالاً أم لا، شعرت بالعزاء بعد الرعب، حتى أنها أحست بشيءٍ من السعادة وفسرت ذلك بتخلصها من شلل الرعب. لقد كان خيالاً. كانت في أمانٍ في الشارع المألوف البغيض، كانت في أمانٍ من الأصوات التي تتمتم بالاتهامات المألوفة بلهجاتٍ غريبة في المدينة الغريبة، آمنةً من العيون الفضولية، والجدران الخانقة، والظلام، والرائحة الممتزجة مع الأصوات في خلفية الكابوس. أدركت أنها إن تمكنت من التحكم بالرعب فقط، فقد تتمكن من استعادة بصيص المتعة التي كانت دوماً بعيدة المنال بالنسبة إليها. عندما وجدت مفتاحها، شعرت بالخجل من الحقد الذي أحسته تجاه المرأتين مع أطفالهما وعربتيهما وحياتهما العادية. فكرت وهي ترتدي نظارتها أن الحقد قد يكون هو ما جلب إليها الرعب. حين فتحت باب منزلها، كان الهاتف يرن. هدأت دقّات قلبها، وفي مكان ما خلف العيون المهددة، والأسئلة المخيفة، كان هناك انفعالٌ موحٍ بفرحٍ مشوبٍ بذاك الخوف الآخر. فكرت في نفسها أن ما تشعر به هو نفسه ما يحس به المصابون بداء الصرع. وبينما تتنشق رائحة بيتها: رائحة الثوم، والأزهار التي جلبتها من السوق، وكذلك الأعشاب، توقف الهاتف عن الرنين.

أسرعت قطتها السيامية، تريب، لتحيّتها، فراحت تضغط رأسها على كاحل قدمها بلطفٍ مع وخزاتٍ من شاربيها. حملت هيبي القطة بين ذراعيها. "هل أنت جائعة؟"، سألتها، ماءت الهرة، وهي تداعب خد هيبي بقائمتها وتضغط عليه بهدوء وقد ثنت مخالبها كي لا تسبب خدشاً.

كان جيم هوكستابل، يتحدث إلى حنّة سوميرتون في نهاية الشارع حين ارتدى فجأةً القبعة التي كان يحملها بيده، وقطع حديثه ونظر محدقاً.

"من هي تلك الفتاة؟"، سأل جيم بفضولٍ واضح.

"تدعى هيبي. إنها جارة"، أجابت حنّة.

– "هيبي، إنها عذراء شابّةٌ متوّجةٌ بالأزهار، ترتدي ثوباً ملوّناً".[4]

4 – كانت هيبي ابنة جونو وجوبيتر ربة الصبا وساقية الآلهة. سُرحت من وظيفتها عندما صارت زوجة لهرقل، وهناك قصة أخرى تقول إنها سرحت من وظيفتها نتيجة عثرة اقترفتها في أحد الأيام أمام الآلهة.

''بل هو معطفٌ مطريٌّ من متجر أوكسفام[5]''، قالت حنّة محاولةً استعادة انتباهه.

5 – متجر أوكسفام متجر خيري يحمل اسم المنظمة الخيرية التي بدأت العمل سنة ١٩٤٢ مؤسسة خيرية صغيرة ثم أصبحت اليوم إحدى أكبر المنظمات الخيرية الدولية المستقلة في مجالي الإغاثة والتنمية.

''هيبي، ابنة جوبيتر وجونو''. كانت هيبي في هذه الأثناء قد فتحت باب بيتها واختفت داخله.

''من؟''، عمّن كان يتحدث الرجل؟

''هيبي هو الاسم اللاتيني لفيرونيكا''، نظر جيم إلى حنّة، ''هي من كانت تسرج الطواويس. نزلت في الموقع...''.

''ظننت أن فيرونيكا كانت جنبة. شجيرة''، صحّحت حنّة لنفسها خوفاً من أن تبدو خليعة.

''آه، نعم''، نظر جيم إلى حنّة. كانت صغيرة، بشعرٍ أشقر، وعينين خضراوين لطيفتين. تشبه مودي ليتل هامبتون نوعاً ما. وكان يغريه أن يتعرّف إليها ويكتشف كيف تبدو في السرير.

''إنّها تكاد لا تكون عذراء، لديها ابن في الثانية عشرة''، ضحكت حنّة لتظهر أسنانها الرائعة، ''إنها طاهية''.

''حقاً؟ حسناً، عليّ أن أذهب. إذا خطر في بالك أحدٌ لديه أيّ شيء مهمٍّ للبيع، فهذه بطاقتي، وعليها رقم هاتفي''، كان جيم قد فقد اهتمامه بحنّة تماماً.

''شكراً، سأتصل إذا خطر لي شيء''، قالت حنّة.

''شكراً لك''، انطلق جيم مبتعداً.

''هل رأيت ثقّالات الورق الموجودة لدى عمّتي؟''، كانت حنّة تحاول مواصلة الحديث، لأنها كانت تعتقد أنه من النادر أن تلتقي برجال جذّابين بصورة حقيقية.

''نعم رأيتها، لكنّها لا تريد التفريط بها''، ردّ جيم.

''إنّها جميلة، أليس كذلك؟''، كانت حنّة ترغب في تأخيره بالحديث.

''إنّها جميلةٌ جداً''، قال جيم ذلك وهو يمضي مبتعداً. أعجبتها الطريقة التي مشى بها متبختراً على الطريقة الأوروبية، فالبخترة الأميركية كانت مختلفة تماماً. كان شعره تحت القبعة رمادي اللون، وعيناه رماديتين داكنتين. أتمنى لو أنني كنت أعرف أكثر عن التحف... فكّرت حنّة وهي تعبر الشارع، كنت سأتمكّن حينئذ من جعله يواصل الحديث. نظرت إلى البطاقة التي أعطاها إيّاها: كانت تحمل اسمه ''جيمس هوكستابل''، ورقم هاتفٍ في لندن، في مدينة فولهام. فتحت باب منزل هيبي ودخلت.

''عبرتِ الشارع بسرعة؟''، جاءت عبارتها بصيغة سؤال.

"يقولون إنّ هذا مفيدٌ للقلب"، قرّرت هيبي أن تبدّل مزاجها بسرعةٍ، وتؤجّل مخاوفها إلى وقتٍ آخر.

"لم العجلة؟"، ألحّت حنّة في السؤال بفضول بالغ.

"عليّ أن أغيّر ملابسي، فأنا مبلّلة بالكامل"... لماذا تتعامل معي بهذه الطريقة؟ فكّرت في ذلك قبل أن تتابع حديثها، "كانت هناك فتاتان حمقاوان تدفعان أطفالهما عبر الشارع وكادتا تعرضانهم للموت". خلعت معطفها المطري ونفضته. فانسحبت تريب بحركة عدائية لتختبئ تحت الكرسي لتجنب قطرات الماء.

"يبدو أنهما ليستا أمّين وحيدتين مثلنا. هل أضع الإبريق على النار؟"، تحركت حنّة وتناولت الإبريق، ثم اتجهت إلى الحوض وفتحت الصنبور. كانت هيبي تتمنى داخلها لو أن حنّة لا تتعامل مع مطبخها وإبريقها بمثل هذه الألفة.

"يجب أن أبدّل ملابسي"، قالت هيبي.

– "أين كنتِ؟".

"لقد خرجت للمشي". لم يكن لديها رغبةٌ في أن تتقاسمَ متعةِ جولتها مع أحد، متعة التسكّع بين الحقول والبراري، والإصغاء إلى صوت الماء المتساقط من الأشجار وحفيفها، وإلى مأمأة الخراف، وصفير الصقور... متعة العزلة اللذيذة.

"لو قلتِ، لأتيت معك"، قالت حنّة.

أخشى أنك كنت ستأتين، قالت هيبي في نفسها، وهي تصعد الدرج دون أن تعلق على كلام حنّة.

"هذا مفيد لمن يتحمل وحيداً عبء تربية طفل"، تابعت حنّة حديثها.

"نعم"، ردت هيبي وهي تخلع قميصها الصوفي.

"لقد تأخر إدوارد في إرسال المصروف إليّ"، صاحت حنّة عبر الدرج.

"هو دائماً يتأخر"، ردّت هيبي بصوتٍ عالٍ.

– "لقد كتبت للمحامي أخبره".

– "أنت دوماً تفعلين هذا".

– "ماذا؟".

فكرت هيبي وهي تسرّح شعرها المبلل في أن حنّة تراسل المحامي كل شهر. ومن المدهش أن هذه الأموال لا تنتهي. على الأقل أنا مرتاحةٌ من هذا الإزعاج. تمعّنت في وجهها في المرآة، وهي تفكّر متفحّصةً ملامحها: أنا لا أبدو مثلهم، ولا في أي شيء مثلهم. لا بدّ من أنهم وراء تلك النوافذ

المغلقة يطلقون اتهاماتهم التي لا تطاق. تمعنت في جبهتها العالية، وشفتيها المكتنزتين، وعينيها الداكنتين.

قال برنارد كويجلي: ''وجهك كنز. أنت تبدين بريئة''، قالها وضحك ضحكة الرجل العجوز.

''لقد أعددت الشاي''، نادت حنّة عبر الدرج.

''شكراً، سأتناول القهوة''، ردّت هيبي، ثم لامت نفسها على عجرفتها. ألا يجب على حنّة أن تقول: ''الشاي جاهز''، لو أنها كانت تتصرف بطريقة طبيعية؟ فكرت في نفسها.

''هل تريدين قهوة حقاً؟ نسكافيه أم عادية؟ كيف كان العمل؟ ممل جداً؟''، تابعت حنّة طرح الأسئلة.

''سأحضّرها عادية. كان العمل مُربحاً''، أجابت هيبي.

– ''متى موعد العمل التالي؟''.

كل هذه الأسئلة. ارتدت هيبي سترة صوفية وعادت لتنضم إلى حنّة في المطبخ. ''لم أقرر بعد''، قالتها وهي تتناول فنجانها المفضل، وتراقب حنّة وهي تصبّ الشاي لنفسها. كانت تشعر بالاستياء من الطريقة التي تتصرف بها حنّة كأنها في منزلها وقد وضعت الإبريق أمامها. لكنها عادت لتشعر بالأسف على فظاظة تعاملها، فأخذت تحاول إجبار نفسها على أن تكون ودودة.

''بعد انتهاء العطلة، بعد أن يكون سيلاس قد عاد إلى المدرسة''، قالت بهدوء.

''ومتى سيشرفنا السيد سيلاس بحضوره؟''، قالت حنّة وقد أخفقت لهجتها المرحة في إخفاء الحسد الذي تشعر به لأن سيلاس يرتاد مدرسة خاصّة، فيما كان ابنها جيلز يدرس في مدرسةٍ حكومية.

– ''بعد غد. متى يعود جيلز من رحلة باريس؟''.

– ''غداً''.

– ''أتمنى أن يكون استمتع هناك، سيلاس مشتاق لرؤيته''.

''ألم نكبر كثيراً؟''، سألت حنّة.

''لا تكوني سخيفة''، ردّت هيبي بحدة.

– ''يمكن لإدوارد كرول أن يكون أفضل في تحمل...''.

''بالطبع يمكنه ذلك، لكنه لا يريد. أنت أخبرتني بذلك''، قاطعتها هيبي ولم تسمح لها بمتابعة الحديث. وعندما اشتمت حنّة رائحة الاعتراض في صوت هيبي، انتقلت للحديث عن شيءٍ آخر: ''هل رأيت ذاك الشخص الذي كنت أتحدّث إليه قبل قليل؟''.

''لم أكن أرتدي نظارتي، لذا لم أر أحداً''، أجابت هيبي.

– ''إنه تاجر، ينتقل من بيتٍ إلى بيت. إنه مثيرٌ نوعاً ما. لقد زار عمتي إيمي''.

''يُعرف هذا النوع من الناس بقارعي الأبواب. هل أرته عمّتك ما لديها؟''، سألت هيبي.

– ''لقد شاهد ثقّالات الورق التي لديها. لا بد أنها أُعجبت به وإلا ما كانت لتخرجها من الخزانة. لقد تحدّثتُ إليه، بدا ودوداً، أنت تعرفين كيف يسير الأمر''.

– ''لا''.

– ''أنت منعزلة جداً. لا تتوقفين وتفتحين حديثاً أبداً، أنت تفوتين الكثير على نفسك. لقد طلبت منه أن يأتي ويرى هل لديّ ما يثير اهتمامه. أظنّ أنه قد يكون شخصاً أحبّ التعرف إليه''.

''قد يكون لصاً''، علقت هيبي.

''لقد بدا لطيفاً. ثم رآك فقال: من هي تلك؟ ما اسم تلك الفتاة؟ بدا أنه عرفك''.

– ''لم أره، قلت لك. لم أكن أرتدي نظارتي''.

''كان يعبر الشارع لكنه توقف وحدق عندما اتجهت إليك. من المؤسف أنك لم تلتقي به، فقد كان من الممكن أن تجعليه أحد أصدقائك''، قالت حنّة.

– ''ليس علي أن أفكر هكذا''.

– ''إنه يتحدث بتلك النغمة من الصوت، تعرفين ماذا أقصد''.

– ''لا أعرف''.

''بلىن أنت تعرفين. إنه يتحدّث كالناس الذين تذهبين للعمل لديهم''، قالت حنّة.

''كيف لك أن تعرفي كيف يتكلمون؟''، شعرت هيبي بالغضب.

– ''أخمن، وأراهن أنني على حق. أنت نفسك تتكلمين مثلهم''.

''هل كان يحتاج إلى طاهية؟''، قالت هيبي ساخرةً.

''لقد أخبرتك أنه كان يبحث عن تحفٍ قديمة لكنه...''، ضيقت حنّة عينيها، ''بدا أنه...''.

''ثري؟''، قالت هيبي ضاحكة، ''قادم من البيوت الفاخرة؟''، تابعت ضحكها.

''بدا واثقاً من نفسه''، ابتسمت حنّة غير مستاءةٍ من السخرية، ''بدا واثقاً من نفسه حتى وقعت عيناه عليك، عندئذ بدا مشوشاً، وأصابه نوعٌ من الارتباك''.

تساءلت هيبي هل الرجل الغريب صديقٌ لأحد زبائنها. ''كيف كان يبدو؟''، سألت بشيءٍ من الريبة.

''طويل، يخط شعره الشيب، عيناه رماديتان. قبل أن تظهري، كنت أعتقد أنه كان مهتماً بي. أوه! لقد قلت ذلك...''.

– ''أعتقد أنه كان كذلك. أنت جميلة''.

– ''أتظنين ذلك حقاً؟''، نظرت حنّة بسعادة، وقالت: ''بصدق؟''.

''بالطبع أنت كذلك''، قالت هيبي بحنان.

''هناك شيءٌ آخر عن الرجل، إنه يعرف اللاتينية ويرتدي قبّعة''، قالت حنّة.

''اللاتينية؟''، سألت هيبي باستغراب.

– ''قال إن هيبي كان اسماً لاتينياً لفيرونيكا الشجيرة. أنت لا تصادفين كثيراً رجالاً ممن يرتدون القبعات. وقال أيضاً شيئاً ما عن إسراج الطواويس''.

تجرعت هيبي قهوتها بسرعة.

''أنت لست مهتمة، أليس كذلك؟ أتساءل أحياناً هل أنت سحاقية''، قالت حنّة محاولةً سبر أعماق هيبي.

أخذت هيبي فنجانها إلى المغسلة، ووقفت مديرةً ظهرها إلى حنّة لتخفي الابتسامة العريضة التي علت وجهها.

''أعتقد أن والد سيلاس كان حب حياتك العظيم''، تابعت حنّة.

''أما زلتِ تقرئين ميلز وبون[6]؟''، سألت هيبي ببرود.

6 **ميلز وبون** مجموعة من القصص الرومانسية مشهورة جداً في بريطانيا.

ولأنها لم تكن ترغب في جرح مشاعر حنّة، قالت: ''أنا مشغولة بتأمين المعيشة. انظري، الحب، عليّ أن أرتب المكان من أجل سيلاس لذا...''.

– ''هل يمكنني مساعدتك؟ هل تريدين مني أن أغادر؟''.

''الأمر فقط... أن لديّ الكثير من الأعمال لأفعلها''. من الصعب التخلص من حنّة التي لا ترى مانعاً في بقائها لساعات. كم كانت الحياة أسهل قبل أن تأتي ابنة شقيق إيمي تريماين لتسكن في هذا الشارع فارضةً صداقتها بغض النظر عن أي شيء.

''حسناً، سأتركك لأعمالك. أخبريني إن كان بإمكاني المساعدة في أي شيء''. نهضت حنّة. تناولت هيبي الإبريق. ''لا، لا، سأفعل هذا''. اختطفت حنّة الإبريق. أفرغته وغسلته بعناية فائقة. ''ناديني فقط، لدي جيلز والعمة إيمي فقط''. ألن تغادر أبداً؟ فكرت هيبي.

– ''ربما كان عليّ أن أسأله أين يقيم. أو أن أدعوه لاحتساء الشراب أو شيءٍ ما. لقد بدا وحيداً''.

''بعض الناس يفضلون أن يكونوا وحيدين''، قالت هيبي.

"كان يمكنني أن أطلب منه أن يلتقي جورج سكوب"، قالت حنّة متجاهلةً تلميح هيبي.

لم تسألها هيبي عن جورج، فهي لم تكن ترغب في فتح حديثٍ جديد.

– "لقد خرجت مع جورج عندما كنت غائبة. مشكلته الوحيدة أنه يقضي أيامه وهو يحدق في أفواه الناس. هل كونه طبيب أسنان، هو مختص في جراحة الأسنان، في الواقع، هل يجعلك هذا تترددين؟".

التزمت هيبي الصمت، لم تعلق على أن حنّة كانت تتحدث عن طبيب أسنانها مستخدمة اسمه الأول فقط.

"إنه وسيم"، كانت حنّة قد اتخذت قرارها بالحديث عن جورج، "إنّه يعمل في مهنة جيدة. لقد تعرفت إليه عندما كان يصلح لي أسناني. وهو تقريباً في الأربعين من عمره، مهتم بالمال قليلاً".

– "لقد أخبرتني".

"يدعوني للعشاء، ثم أطلب منه أن يعود معي. نشاهد التلفاز لكنه... حسناً، أظن أن هذا يحدث لأنه مولع جداً بعمله، فهو يستمر بإطلاق التعليقات".

"مثل ماذا؟"، سألت هيبي.

"يعلّق على أسنان الناس، يلاحظ حشواتهم عندما يضحكون. ينتبه إن كانت أطقم أسنانهم ملائمة، أو إن كانت أسنانهم متسخة. هو لا يستخدم كلمة متسخة، يقول...".

"متكلسة"، صحّحت هيبي.

"صحيح. إنه يحترم السيدة تاتشر والمسيو ميتران لأن أسنانهما جيدة. هو لا ينفصل عن عمله أبداً".

"متزوج به"، قالت هيبي.

قطعت حنّة الحديث مستاءةً من نبرة هيبي الساخرة: "حسناً، دعيني أعلم إن كان بإمكاني المساعدة". كانت لا تزال تتباطأ في المغادرة.

"شكراً". رافقت هيبي حنّة نحو الباب وأغلقته وراءها. إنّها متعة البقاء وحيدة! رنّ الهاتف ليكسر رنينه حالة الهدوء المرتقبة في المنزل مسبباً الرعب. قفزت الهرة منتصبة على عتبة النافذة. والتقطت هيبي السماعة.

– "مرحباً".

"ألو، ألو، ما هو لون سروالك الداخلي؟"، قال أحدهم بلهجةٍ فرنسية غليظة.

"الرقم خطأ". أعادت هيبي السماعة إلى مكانها.

جلس جيم هوكستابل في أعلى الطريق على المقعد الذي قدمه عضو مجلس البلدية في ذكرى وفاة والديه العجوزين اللذين كانا من أوائل الناس الذين سكنوا الحي. ولأنهما كانا يشتكيان من آلام السيقان وانقطاع أنفاسهما وهما يعانيان في صعود التل، قدم ابنهما المقعد بعد موتهما وهو يحمل نقشاً باسمي أبويه. لكن الأولاد الوقحين حفروا كلماتٍ داعرة فوق المقعد، والكلاب الشاردة فعلت ما هو أسوأ من ذلك. انتظر جيم هوكستابل على أمل أن الفتاة الغامضة لا بدّ ستخرج من منزلها لعلّه يتمكن من إلقاء نظرةٍ أخرى عليها. اسمٌ جميل، هيبي، ساقيةُ الآلهة. ليس هناك عدد من الطواويس لإسراجها في هذا الشارع البغيض. ولكن ما هو الوضع غير اللائق الذي تورطت فيه وأودى بها إلى مشكلة؟ حاول جيم أن يتذكر. لم تختلف عادات القدماء كثيراً عن عادات الناس في هذه الأيام، ثم تساءل كيف عرف برنارد بمجموعة ثقّالات الورق لدى المرأة العجوز.

أُغلق الباب في الطرف الآخر من الشارع وخرجت الفتاة ذات العينين الخضراوين إلى الطريق. لم يكن يرغب في الحديث إليها مرة ثانية. لذلك، أسرع الخطى إلى أعلى التل وهو يشعر بالتعب والجوع واتجه نحو سيارته لكنه بدأ بإطلاق الشتائم عندما توقف المحرك عن العمل.

بينما كانت هيبي تغلق باب منزلها، عبرت حنّة الشارع وهي تثب بخطواتٍ راقصة، وقد قررت بين خطوةٍ وأخرى أنها ستتزوج من جديد.

انفجرت هيبي بالضحك وهي تفكر في كلام حنّة، ‘‘سحاقية!’’، ما الذي ستحلم به حنّة في المرة المقبلة؟ فكرت في سيلاس الذي سيصل إلى المنزل في الغد، وعينيه البنيتين اللتين لا تشكوان قصر النظر، والحمد لله، وتقوّس أنفه، وشعره الذي بلون حصان كستنائي... من أين جاء الأنف والشعر؟ ليس مني، ليس منهم. تذكرت حملها بسيلاس وحبها الجنين الذي كان في أحشائها. لقد كانت سعيدة بالعلاقة الثمينة التي أنهت انتماءها إليهم. هل كان حقدها على تينك المرأتين هو ما جلب إليها الرعب الذي شعرت به؟ أتشعران نحو الأجنة التي في أحشائهما كما كانت تشعر نحو سيلاس؟ ربما لا، بما أن لكل منهما في عربتها طفلان حقيقيان يرضعان. أنا لا أحب الأطفال الرضع، فكرت هيبي، رغم أنني أحببت سيلاس بهيام عندما كان رضيعاً.

فكرت في علاقة حنّة بجيلز؛ إنها علاقة مريحة. لقد حسدت حنّة لكن الأخيرة اخترعت لها ‘‘حبّاً عظيماً’’. إلى أي مدى يبدو هذا مبتذلاً!

تسلقت تريب المغسلة في حركةٍ توضح أنها ما زالت جائعة. بحثت هيبي في الخزانة عن علبة من طعام القطط، وضعتها أمامها وجلست تراقب تريب وهي تأكل، ثم تنظف نفسها قبل أن تخرج إلى جولتها الليلية. قبعت الهرة في مكانها تصغي إلى الأصوات القادمة من حدائق الجيران لتتأكّد من

أنها لا تنم عن خطر. كانت هيبي تراقب الحيوان الصغير وهي تفكر كم يحب سيلاس هذه الهرة. قفزت تريب إلى السياج الخلفي واختفت وراءه. أوت هيبي إلى الفراش، حيث تستلقي وتحسب ما جنته في عقلها. كان المجموع مبلغاً كبيراً. وإن هي استمرت في العمل على هذا النحو، فإن سنوات دراسة سيلاس ستكون مضمونة رغم أن طبيعة عملها نفسه لم تكون مضمونة. فالسيدات العجائز لن يعشن إلى الأبد، والعمل الآخر يبدو مؤقتاً. لكنها فكرت في أن كونها وحيدة في سريرها الكبير رفاهية ممتعة. حركت ساقيها تحت اللحاف مستمتعةً بقضاء ليلتها دون أن يكون هناك هرقل ما يقحم نفسه بين فخذيها.

٢

تركت هيبي الهاتف يرن في الطابق السفلي، وظل رنينه المزعج يتكرر ويتكرر حتى تلاشى أخيراً. تمددت في السرير وهي تفكر في الغد وبسيلاس، وتخطط في ذهنها أيام عطلته.

لوثت تريب حديقة الجيران، حيث صنعت حفرة صغيرة وغطت برازها بقدمها الناعمة، ثم تسلقت السور عائدةً تحت المطر، قفزت من السور إلى عتبة نافذة هيبي، ونزلت إلى الغرفة لتندس في السرير تحت اللحاف. أنارت هيبي الضوء قرب سريرها عندما شعرت بالفراء الرطب أمام وجهها.

''لن أتمكن من النوم أبداً''، أحضرت منشفة وجففت الحيوان الصغير الذي كان يصدر مواءً وهو يختبئ في الدفء، ''سيلاس علمك ذلك، يمكنك أن تحضنيه هكذا غداً''.

رن الهاتف للمرة الثالثة، فنزلت هيبي الدرج غاضبة والتقطت السماعة.

''نعم''، قالت باقتضاب.

''هل لديك حلمتان كبيرتان؟''، كرر الصوت بلهجة سوقية.

''أخبرتك أن الرقم خطأ''، قالت بغضب.

''ما هو لون سروالك الداخلي؟''، قالها الصوت الذي تحدث الفرنسية متوسلاً.

''أنت حتى لا تتقن اللهجة بصورة صحيحة''، وضعت السماعة وغطتها بالوسادة. عادت إلى السرير حيث أفسحت لها الهرة مكاناً.

كانت ساعة البلدة تعلن منتصف الليل، عندما أزعجها صوت خربشةٍ على نافذتها، وصوت أقدامٍ تضرب الأرض، وقماشٍ يتمزق: ''اللعنة! لقد مزقت تنورتي''.

– ''يا إلهي، تيري، أخبرتك أن الرقم خطأ، قلت لك ذلك مرتين، مرتين!''.

– ''فقط، انظري إلى تنورتي''.

أنارت هيبي الضوء بجانب سريرها، ''تيري، أنا أحاول أن أنام، سيصل سيلاس المنزل غداً''.

كان تيري يتفحص القماش الممزق، ''هل تظنين أنه يمكن إصلاحه؟''، سألها.

تيري نحيل له شعر قصير، وكتفان عريضتان، وساقان طويلتان، وتنورته كانت من القطن الأحمر ولها ثنيات، يرتديها مع قميص أرجواني.

''هل تظنين أنه يمكن إصلاحها؟''، سأل وهو يمسد كتف هيبي.

''لن أصلحها لك''، عادت إلى الاستلقاء وسحبت الغطاء ليصل إلى ذقنها.

''اسمعي، لماذا كنت أتصل بك، لقد فعلتها مع فتاة أخرى، ليس هناك مشكلة على الإطلاق''، تحدث تيري بانفعال، ''كان ذلك كله بسببك''.

– ''ألم يكن من الممكن تأجيل ذلك؟''.

''أصغِ..''، خلع التنورة وأقحم نفسه في السرير، ''ما الذي جاء بك إلى هنا، تريب، هذا المكان لي فقط، لا تخرمشي، حيوان متوحش صغير، توقفي عن هذا، إنها مبللة''.

''تيري''، احتجّت هيبي، ''أخبرتك...''.

''أصغِ، حبي''، لف ذراعه حولها مستقراً في السرير وماداً ساقيه، انزعجت تريب من وجوده فغادرت السرير وجثمت على الكرسي حيث كانت هيبي قد ألقت ثيابها. عانق تيري هيبي، ''لم آتِ لأنام معك''، قبّل رقبتها.

– ''النوم هو الشيء الوحيد الذي لا يفعله الشخص''.

– ''هذا أسوأ تعبير عن الأمر، أعطينا قبلة''.

– ''النوم هو ما أحتاجه في هذه اللحظة''.

''ألم تسمعي ما قلته؟ لقد فعلتها مع فتاة أخرى، ليس هناك مشكلة، كنت محقة، لا تنانير، لا سراويل قصيرة، أحببت تعليمك، وأتيت لأشكرك، ظننت أنك ستكونين سعيدة بأن تعرفي''، كان تيري حزيناً.

– ''أنا سعيدة، كل ما في الأمر أنني أريد أن أنام فقط، أخبرتك أن هذا كل ما أفكر فيه، الآن أنت سوف...''.

''حسناً، الآن أصغ إلى هذا:

يمكنها أن تقدم متعاً أقل منك;
هي ملائمة وأكثر تناسباً
لذا إذا حلمت، لدي أنت، أنا...

''ذلك الشِّعر لدون[7]، والمقطع ينتهي بعبارة: والنوم الذي يلغي كل المشاعر يطرد الجميع. ذلك كل ما أريده الآن''.

[7] جون دون واحد من أبرز الشعراء الإنكليز.

ضحك، ''أنت لست غاضبة حقاً؟''.

– ''هل تحب هذه الفتاة؟''.

– "كانت مجرد فتاة ممتعة لأمسية واحدة، لديّ أفكار أخرى".

– "شخص محدد؟".

"ربما،" انحنى تيري من السرير والتقط كتاباً عن الأرض، "هلا نقرأ قليلاً؟ هلا تقرئين لي، للمرة الأخيرة؟".

"اقرأ، أنت"، قالت مستسلمة.

"حسناً"، بدأ تيري القراءة، "أنشد ارتقاء الروح الخالدة...". يرتفع صوته الشاب وينخفض بإيقاع لطيف، جعل هيبي تتذكر أول مرة التقته فيها، كان يركب كمائن للسرقة في مصرف ميدلاند، فلاحظت أنه كان يقرأ كتاباً لميلتون[8]، فبدآ الحديث عن الشعر، الاهتمام المشترك الذي تطور، إلى أن صارا يقرآن لبعضهما بعضاً بصوت عالٍ بعد ممارسة الجنس. كان يخضع لدورة لتعليم اللغة الإنكليزية في مدرسة ليلية. لم تعرف أبداً ما هو الرابط بين الشعر وملابس النساء. كانت التنانير والسراويل الداخلية شذوذات بريئة، ظنت أن التنورة كانت حيلة لجذب اهتمامها. يبدو الآن أن هذه المرحلة كانت تنتهي. استمتعت بالإصغاء للشعر، يلقيه فتى يبدو كأنه في حفل موسيقي أكثر من كونه يتلو شعر دون على الهرة. بما أنني لا أصغي، فكرت هيبي، واستمر تيري يقرأ لنفسه حتى غرق في النوم. استمعت إلى صوت أنفاسه، تذكرت اكتشافه أن "الطائر العربي هو الوحيد الذي يعيش عفيفاً لأنه واحد فقط، لكن عملاً بأمر الطبيعة عندما يجتمع اثنان فإنهما يتصرفان مثل الحمامات والعصافير". بقي لمدة يدعوها طائره العربي. وربما أنا كذلك، فكرت. أعلنت ساعة البلدة نصف الساعة.

8 جون ميلتون شاعر وعالم إنكليزي، من أشهر قصائده "الفردوس المفقود".

"بالله عليك، تيري"، هزته، "استيقظ".

استيقظ تيري محدقاً إليها مشوشاً.

– "حان وقت الذهاب".

كان يشعر بالنعاس، وعقله مشوش، فنهض من السرير على مضض. "هل يتفق أن أجد لديك سروالاً داخلياً ذكورياً؟".

– "سراويل سيلاس ستكون صغيرة جداً".

– "إذاً، سأمضي دونه. أعيريني سروالك الجينز، سأراك وأعيده لك".

– "هل أنت متأكد أنك لا تحتاج...".

''نعم، سأترك تنورتي لديك ذكرى، وبالنسبة إلى السروال، لا بأس دونه''. كان قد نسي دون.

''أنا سعيدة''، راقبته هيبي يناضل ليرتدي سروال الجينز الذي كانت قد خلعته قبل أن تأوي إلى الفراش.

''ملائم، ضيق بعض الشيء، ولكن ماذا بحق الجحيم، أنا... كيف؟''، وقف ينظر إلى هيبي، سعيداً.

''عادي''، قالت مبتسمة.

''بخصوص...''، فتش جيب تنورته، ''هذا لك''. وضع رزمة من المال في يد هيبي. ''أنت كسبته، لا أستطيع التفكير كيف كسبته، من الآن وصاعداً يمكنني أن أكون كأي أحد آخر''، انحنى ليقبلها، ''وداعاً، حبي''.

''شكراً، تيري''، نظرت هيبي إلى المال، ''إنه كثير جداً''.

''لا، ليس كثيراً. وضعت هذه الفتاة في رأسي. ألا تريدين أن تعرفي من تكون؟''، كان يمكنها أن ترى أنه يرغب في إخبارها من تكون.

''لا''، لا بد أن يمضي في طريقه بمفرده.

''ستكون الأولى التي عليها أن تبدأ المعالجة المباشرة''، قال وهو يغلق سحاب السروال.

''من دون رتوش؟''، قالت باندهاش.

ضمها بود، ''تسخرين مني''.

''اذهب الآن، يجب أن أنام''، ضغطت عليه كي يذهب.

– ''لكن كان علي أن أخبرك. حاول المحللون النفسيون وأنت أوفيت بالغرض فقط خلال سنتين''.

كانت هيبي تعد النقود، ''هذا كثير جداً جداً، تيري''؛ كانت مصدومة بمقدار المال.

''لن أراك مرة ثانية، ليس بهذا الشكل. أريدك أن تحصلي عليه''. انحنى ليقبلها مرة ثانية، ''إلى اللقاء، الآن''، تحرك نحو النافذة ليخرج منها. ''هذا أسهل بكثير مع الجينز''، أطلق ضحكة.

سمعته يصل إلى الأرض، أطفأت الضوء وذهبت إلى النافذة لتشاهده ينتعل حذاءه، ويتسلق السور ليقفز خلف الحديقة، وينطلق راكضاً وصوت أقدامه واضح في الليل.

''هكذا يذهب زبون راضٍ''، قالت للهرة وهي ترمي التنورة والمغلف المرمي في سلة المهملات. ''يا إلهي! يجب أن أنام''. عادت إلى السرير. ستشتاق لتيري، ستشتاق لقراءة الشعر. ستشتري لنفسها شيئاً ممتعاً بجزء من هدية وداعه. ربما، ستوفر الباقي من أجل تعليم سيلاس. شعرت بموجة

من مشاعر التعلق بتيري. هل ستجعله فتاته الجديدة سعيداً، هل سيقرآن الشعر معاً كما كنا نفعل؟ لماذا علي أن أقلق، فكرت وهي تستلقي مصغية إلى صوت الهرة. أنا علمته:

كما التقينا بحرية سننفصل

كل واحد يتحكم بقلبه

إذا كان هو قد تعلم الدرس لماذا لا أستطيع أنا ألتزمه؟ نحن أصدقاء. القصائد الخالدة ليست أساسية للبقاء، ليست أساسية لسيلاس. بدأت تغفو وهي تفكر في الأوقات السعيدة التي قضتها مع تيري في السنوات الماضية. كان جيداً في دورة تعلم الإنكليزية، انطلق وأمّن عملاً مربحاً ونجح. تذكرت كيف كان تفكيره غريباً حتى اكتشفت روحه المعذبة. صارت مولعة به لنفسه وليس للون بشرته فقط، الذي كان يشبه في بعض الأضواء لوح شوكولا مارس. كثير عليك... جاءت إلى ذهنها باقتضاب صورة جدها، فأبعدتها بسرعة من رأسها.

لامت نفسها بعد ذلك لأنها لم تجعل تيري يعدها أن يخبر فتاته الجديدة عن أشيائه الخاصة، فهو لا يتحمل أبداً السراويل الذكورية، ولن يتغير أبداً. ستكون الفتاة جيدة إن هي علمت ذلك فقط. كان تيري ذكياً ومهتماً، أكثر ما يمكن أن يقال عن العشاق الذين يدفعون. ذكرتها كلمة ''دفع'' بسيلاس. هل بقاؤه بعيداً سيغيره؟

٣

جلست حنّة أمام مرآتها تقلّم أظفارها التي تهتم بها كثيراً فترتدي لحمايتها قفازات مطاطية عندما تؤدي الأعمال القاسية، وهي ترى أن هيبي مجنونة لأن الأظفار لا تزعجها. قالت هيبي: ”صنع المعجنات ينظفها، والأوساخ تعطي للفطائر نكهة“. استغربت حنّة أن يقول طاهٍ ممتاز مثل هذا الكلام وهي تعرف أن هيبي حصلت على أفضل النصائح من الشيف الفرنسي عندما عملت في الفندق على الجرف. ضحكت هيبي وهي تقول ذلك كأن النصائح كانت نكات. تساءلت حنّة وهي تطلي أظفارها هل يقيم تاجر التحف القديمة في الفندق. لقد تناولت العشاء هناك مع جورج، وربما يكون هذا الفندق مكلفاً جداً بالنسبة إلى تاجر. لقد صعد الشارع يطرق الأبواب، والمفاجئ أن إيمي سمحت له بالدخول. كانت حنّة تراقب من نافذتها على أمل أن ترى هيبي عندما تعود. وكان من السهل أن تتحدث إلى الرجل عندما غادر منزل الخالة إيمي. سرّحت شعرها، ترى، هل لاحظ الغريب أسنانها؟ رفعت شفتها مثل حصان ينخر معجبة بأسنانها المستقيمة مثل صف من الحرس، لقد أدّى جورج عملاً جيداً. هل سيكون جيم هوكستابل مهتماً بجلساتها التي استمرت عاماً مع جورج الذي فعل جهداً رائعاً ليصلح تشوهاتها؟ هل سيكون مهتماً بأن يعرف أنها باعت القطعة الوحيدة التي تملكها من المجوهرات، خاتم خطبة إدوارد، لتدفع تكاليف تقويم أسنانها؟ إدوارد، مصدر الإزعاج، أفسد عليها الاستمتاع بأسنانها، فهو لم يرسل لها نفقتها في الموعد على الإطلاق، وهذا الأمر أبقى الرابطة بينهما حية في الوقت الذي كانت تفضل فيه أن تنساه. أسنان جديدة، حياة جديدة، عليك اللعنة يا إدوارد! لكنها كانت سعيدة باختيارها اسم سوميرتون. هل سيتوقف جيلز عن المعاندة ويغير لقبه أيضاً؟ هو متمسك بلقب كرول ليكون قادراً على التهديد بأنه سيهرب إلى أبيه. كانت تتمنى أن يدرك قريباً أن سوميرتون بدا أفضل من كرول، ربما يحدث هذا بصداقته مع سيلاس وربما يتعلم لفظ الحروف الصوتية بالطريقة التي تلفظها بها هيبي وسيلاس. لفظت حنة الحروف الصوتية وهي تنظر إلى صورتها في الزجاج: أ– و– ي، كما تعلمتها في دروس الإلقاء التي كانت تفضل تسميتها معالجة الخطابة. تلفظ هيبي الحروف الصوتية على نحو طبيعي وسيلاس كان مميزاً في مدرسته. انحرفت أفكار حنّة إلى حياة هيبي الغريبة التي تعمل طاهية لدى السيدات العجائز الثريات وهي لم تناقش أبداً الناس الذين عملت لديهم. لم تتحدث أبداً عن والد سيلاس، ولم تجب عندما أخبرتها حنّة عن إدوارد. لم تفعل ما قد تفعله النساء الأخريات بأن تخبر كل واحدة حكايتها. كانت والدة حنّة

والخالة إيمي أختين. تزوجت أمها فصارت تنتمي إلى طبقة اجتماعية أعلى من الخالة إيمي التي تربطها رابطة ميتنة بهيبي، التي كانت بدورها غليظة وكتومة مثلها. أدركت حنّة أنها تعرف القليل عن خالتها كما عن هيبي. كان أهلها يشيرون إلى الخالة إيمي بـ"تلك الآنسة العجوز المسكينة التي تعيش وحيدة في ذاك المنزل. يجب أن تذهبي لرؤيتها، إنها قريبتك الوحيدة". وقد وجدت حنّة نفسها في الجوار مع جيلز قبل عام، فزارتها ولاقت الترحيب، وبدا من الطبيعي أن تستقر هنا وهي تعود دون جذور من أميركا، فترسل جيلز إلى المدرسة وترعى خالتها التي كبرت وهي مولعة جداً بها.

"يجب أن أتزوج مرة ثانية"، قالت لنفسها، "وأحصل على ضربة أخرى"، مع أن زواجها من إدوارد تركها مجروحة وكان هناك الكثير ليقال عن متعة أن يكون المرء مستقلاً، لكن الزواج كان هو ما تفضله حنّة. بدت هيبي تدير حياتها جيدا وعلى نحو استثنائي بالنسبة إلى شخص يستفيد من المعونات التي تقدم لرعاية الأطفال مع أب واحد إضافة إلى أعمال طهي مؤقتة فقط. ما الذي تدفعه تلك العجائز؟ نفخت حنّة على طلاء الأظفار الذي جف أخيراً. ماذا تفعل بخصوص الجنس؟ بينما كانت تستمتع بعلاقتها مع جورج، كانت لم تقرر بعد هل ستجعل هذه العلاقة دائمة. كلامه على الوسادة كان مملاً. جراحة الأسنان لا تثيرني، فكرت متأملة، لا بد أن هناك من يسلّي أكثر من جورج.

حان الوقت للذهاب والاطمئنان إلى أن الخالة إيمي بخير قبل حلول الليل. ألقت نظرة إلى بيت هيبي. لم يكن هناك ضوء.

عالياً بين التلال جلس جيم هوكستابل مع برنارد كويجلي أمام منزل الأخير ينهيان خمرة البوردو التي كانا يحتسيانها مع العشاء.

– "كنت أتساءل كيف عرفت أن السيدة العجوز لديها تلك المجموعة من ثقالات الورق، إنها ثمينة جداً".

"ماذا؟"، وضع الرجل العجوز يده على أذنه.

"أنت لست أصماً"، قال جيم بصبر، وانتظر الجواب.

"أردت أن أعرف هل لا تزال بحوزتها، وهل هي مستعدة للبيع"، قال الرجل العجوز متذمراً.

– "دعتني إلى العودة مرة ثانية، ربما تغير رأيها".

نظر جيم إلى مضيفه يجلس وقطته على ركبتيه يمسدها بأصابعه المتغضنة. كانت الأصوات التي تصدرها الهرة عالية، والهواء الرطب مشبع برائحة زهر العسل ممتزجةً برائحة كلب برنارد فيذرز الذي يستلقي عند قدميه. "رائحة كلبك قوية نوعاً ما"، علق جيم.

– ’’لقد تمرغ في العفن. قد تغسله أنت غداً‘‘.

’’شكراً‘‘، قال جيم منزعجاً من العرض.

’’لن تبيع‘‘، قال العجوز بلهجة تنم عن الرضا، راجعاً بالحديث إلى ثقالات الورق، ’’إنها مولعةٌ جداً بهم‘‘.

فكر جيم في خدعة برنارد الغبية الذي جعله يتنقل من منزل إلى آخر، ’’أنا لا أشتري من على الباب‘‘. ’’ليس هناك شيء لتبيعه هنا، ولا حتى القردة النحاسية[9]‘‘. كانت هذه الردود التي سمعها.

[9] إشارة إلى تماثيل القردة الصغيرة التي كانت هدية تذكارية قيّمة في القرن التاسع عشر وكان يُؤتى بها من الصين واليابان.

– ’’إذا كنت تعرف ذلك، لماذا اقترحت هذه التمثيلية؟‘‘.

لم يجب الرجل العجوز.

– ’’كان هناك فتاة على بعد عدة منازل من منزل صديقتك. فتاة ثرثارة نظرت إليّ نظرة غرام‘‘.

ضحك برنارد: ’’تلك ابنة أختها‘‘.

– ’’كان هناك فتاة أخرى في الشارع، ذكرتني بأحد ما، هل تعرف من تكون؟ تعيش في المنزل المقابل لمنزل السيدة ترايماين، بدت قصيرة النظر؟ كانت تحمل نظارتها بيدها. هل تعرفها بالمناسبة؟‘‘.

’’لا أعرفها‘‘، فكر برنارد في الإحساس القديم بأنه كان يعرف فتاة تمارس الحب، وفي أنه مارس الحب في الماضي، فكر في الرقة والضحك ممزوجين بالشغف. كم كان جميلاً أن يعيش تجربة كهذه مع هيبي، لكنها ولدت متأخرة جداً، وهو يشعر بالغيرة من اهتمام الرجل الشاب بها. تذكر تعامله مع هيبي التي استفادت من سذاجتها بأن دفع لها ضعفي ما تستحقه مجوهرات أمها. تناول صندوق العطاس من جيب صدريته، أخذ مقداراً، تنشقه، وعطس، ققفزت الهرة من على ركبتيه.

فكر جيم، وهو يراقب برنارد، أن ضوء الغسق اللطيف عادةً جعل الرجل العجوز يبدو مثل عصفور متحجر. ’’لماذا لم تتزوج أبداً؟‘‘، سأل جيم.

– ’’من المستحيل إقناعي. لم أكن مهيأً للاستسلام لأي شيء، صعوبة الاختيار. ماذا عنك؟ إذا لم تنتبه سينتهي بك الحال عازباً، الأمر الذي لا يمكنني أن أنصحك به. لديك الكثير من الفتيات، أليس كذلك؟‘‘.

– ’’يمكنك أن تقول ذلك‘‘.

– ’’ألا ترغب بأن تكون أي منهن دائمة؟‘‘.

لم يجب جيم.

– ''إذا حصلت على الفرصة لشراء ثقالات الورق هذه...''.

– ''نعم؟''.

''سأخلد إلى النوم، أراك في الصباح قبل أن تذهب''. نهض برنارد عن الكرسي، فوقف جيم، ربت بأصابعه على الكلب. ''تعال يا فتى، إنه وقت النوم. يمكنك أن تعطيها إلى الفتاة، هي على الأرجح كانت تحمل نظارتها لأنها لم تكن تريد أن ترى''. كان هناك حنان في صوت العجوز.

''إذاً، أنت تعرفها''، لم يتوقع جيم جواباً. قرر أن يزور الفتاة التي تدعى هيبي ويسألها هل لديها أي قطع قديمة للبيع، ويحاول أن يعرف لماذا كانت تستحق ثقالات الورق. بتلك الطريقة، سيحصل على فرصة لرؤيتها. لا يزال بإمكانه أن يصل لندن في المساء إذا لم يحدث ما يلهيه في الطريق.

دخلت حنّة منزل إيمي ترايماين، وهي لا تزال تفكر في هيبي.

– ''هذه أنا، خالتي، كيف حالك؟''.

– ''ما زلت حيّة''.

– ''هل يمكنني الدخول؟''.

– ''عادةً ما تفعلين''.

تجاهلت حنّة هذه البداية غير المشجعة، وقالت: ''ماذا فكرت بخصوص قارع الأبواب؟''.

– ''ظننت أنه مهم نوعاً ما، يأتي من لندن''.

''هل بعته شيئاً؟''، نظرت حنّة حولها في الفوضى التي تعم غرفة الخالة: جحيم مطلق من الغبار.

''لا''، كانت إيمي حادة الطبع، ''رأيتك تتحدثين إليه''.

– ''وما المانع؟ هل أريته ثقالات الورق خاصتك؟''.

– ''إنها في الخزانة''.

– ''أعلم، أنا وضعتهم هناك، كل شيء هنا بحاجة إلى التنظيف''.

''توقف عن التحدث إليك عندما رأى هيبي''، ضحكت إيمي ضحكة خافتة.

''هل تظنين أنه عرف هيبي؟''، سألت حنّة خالتها بفضول، ''بدا مهتماً بها أكثر مني''.

''هل قال شيئاً؟''، رفعت المرأة العجوز نظرها بفضول.

''فقط تمعن فيها. ربما كان يعرف زوج هيبي''، غمزت حنّة.

– ''هي لا ترتدي خاتماً''.

"هل تقصدين أنها لم تكن متزوجة؟"، استغلت حنّة الفرصة للحديث عن هيبي، مقنعة خالتها بالتحدث.

"هذا ليس غريباً في هذه الأيام"، قالت إيمي مبتسمة.

– "أوه، خالتي!".

"أوه، خالتي!"، قالت العجوز ساخرة.

– "ربما مات قبل أن يتمكن من الزواج بها، حبيبها".

"هل أخبرتك ذلك؟"، رفعت إيمي حاجبها.

– "لم تخبرني أبداً أي شيء. أتخيل أنها عاشت قصة رومانسية عظيمة انتهت عندما تزوجا، أو حتى قبل أن يتمكنا من ذلك".

– "ربما هي تخلصت منه كما فعلت مع كرول الفقير".

"كرول الثري"، صححت حنّة لخالتها، ضاحكة.

– "أنتن الفتيات تتخلصن من زوج جيد جداً، لا يمكنكن التمسك بأي شيء".

"إذا لم تكن متزوجة، هل يكون سيلاس متبنى؟"، ضغطت حنّة على إيمي.

"مع هاتين العينين؟ ربما يكون أخوها"، كانت إيمي تتحدث بسخرية كبيرة، "أنا ذاهبة إلى السرير إذا كان هذا كل ما يهمك معرفته". سحبت نفسها من كرسيها. كان الشعر الأبيض المحيط بوجهها كثيفاً لكن عينيها المحاطتين بالتجاعيد كانتا لا تزالان جميلتين.

"هل ترغبين في شراب ساخن؟ كاكاو؟ هورليك[10]؟"، اقترحت حنّة، التي ما زالت ترغب في متابعة النميمة.

10 هورليك: شراب مكون من القمح والشعير والحليب والسكر.

"سأشرب تودي[11]. اجعليه قوياً"، صعدت إيمي إلى السرير. إذا كانت هيبي قد تدبرت لنفسها عملاً خاصاً، فلن تكون هي من سيفشي سرها. شعرت إيمي أنها لا تحترم حنّة التي أخبرت القاصي والداني قصة حياتها، فالقصص تنمو بالرواية. كان من الحكمة فقط ألا تخبرهم. تنهدت وهي تخلع سروالها الداخلي القصير، الذي صار من الصعب الحصول عليه هذه الأيام، متسائلة هل من الحكمة تعريف هيبي إلى كل من لوسي داف ولويزا فوكس، وفي البداية إلى برنارد العجوز الحقير. تأخر الوقت جداً الآن والطفلة – كانت تعتبر هيبي طفلة – كان يجب أن تعيش. ولنقل الحق: برنارد لم

يغش، لقد ساعدها على العمل في الفندق على الجرف وعرفها إلى الشيف الفرنسي وهي لم تستطع أن تصدق ذلك رغم أنه أثبت أنه كان مفيداً.

11 تودي: مشروب كحولي ساخن.

حملت حنّة التودي الساخن، ”أعددته قوياً؟“.

شربت إيمي، رشفت عبر شفاه مطوية، جلست متكئة على الوسائد، ونظرت إلى حنّة بمودة.

– ”هي تعمل لتدفع تكاليف مدرسة سيلاس، لا بد أنها تكلف قنبلة“.

”لو أنك بقيت متزوجة بكرول لتمكن جيلز من الذهاب إلى هناك أيضاً. إذا تزوجت مرة ثانية سوف تخسرين نفقتك“، ابتسمت إيمي عبر نظارتها.

”من قال إنني أريد ذلك؟“، قالت حنّة مدافعة عن نفسها.

– ”إنه في عقلك؛ أنت تزنين الفوائد والأضرار، أصبت؟ أليس كذلك؟“.

”ظننت أننا كنا نتحدث عن هيبي“، قالت حنّة بغضب.

– ”لكنني كنت أفكر أنك ربما تتزوجين مرة ثانية، عندما رأيتك بعد الظهر. لا يمكنك أن تجلسي إلى الأبد وتأخذين المال من كرول، دون أن تقدمي شيئاً، هذا ليس صحيحاً“.

”لا يمكنك أن تتحدثي“، قاطعتها حنّة بغضب، ”أنت لم تتزوجي أبداً، كنت دوماً وحيدة، ولا تعرفين كيف يبدو الأمر“.

بقيت المرأة العجوز صامتة، ثم قالت برفق وهي تحدق إلى حنّة: ”لا أحد منا يجب أن يبقى وحيداً، هذا ليس طبيعياً“. بدت بالغة الصغر في سريرها الكبير.

”هذا أفضل من الالتصاق بشخص ما لا تريدينه“، تمتمت حنّة محاولة ألا تسمعها خالتها، ومنزعجة من أنها اضطرت إلى الدفاع عن نفسها.

– ”سمعتك، أنت سيئة مثل مومس سمعتها في باريس، هي...“.

”لم أكن أعرف أنك زرت باريس“، هتفت حنّة وقد فوجئت بالأمر.

”قالت هذه المومس“ – شددت إيمي على الكلمة – ”لمومس أخرى، عن رجل كان للتو قد دفع لها، قالت: أنا أرحتُ نفسي... ربما أنت لا“، سخرت العجوز من ابنة أختها، ”كم ضحكت تلك الفتاة“.

قهقهت حنّة: ”أتمنى ألا يتعلم جيلز هذا النوع من اللغة الفرنسية في رحلته المدرسية“.

رفعت إيمي حاجبيها: ”متى يعود؟“.

– ”غداً“.

– ”أرسليه لرؤيتي“.

– ”لا حاجة إلى ذلك، هو يحبك بقدر ما أفعل“.

”واو“، أطفأت إيمي الضوء واستلقت على وسائدها دون أن تنتظر حنّة حتى تصل إلى الطابق الأرضي.

”عاهرة عجوز“، تحسست حنّة الجدار بحثاً عن زر الضوء، ”قد أقتل نفسي بالسقوط على الدرج“، قالت بصوت عالٍ، لكن إيمي لم تجب. فكرت وهي تبحث عن الزر في أن جيلز الذي يكبر بسرعة سيرحل قريباً.

انتظرت إيمي النوم وهي تفكر في زائر الظهيرة، متسائلة هل كان قد جاء مصادفة. لقد أعجب بكنوزها، تحدث بخبرة مقدراً قيمتها. ورغم أنها رفضت البيع، فإنها وجهت إليه دعوة ضمنية للعودة. تحدث عن فرنسا. حمل ثقالات الورق بأنامله الطويلة حتى زاد الضوء من لمعانها.

”الأزهار الزجاجية تدوم أطول من الباقات“، قال. لكن هل هي جميلة هكذا؟ فكرت في ثقالات الورق خاصتها. فكرت في الأسرار المخبأة كالورود المحصورة في الزجاج. فلترأف حنّة لها كخالة عانس عجوز عاشت حياة كئيبة، ليست بحاجة إلى أن تعرف شيئاً عن المرحلة التي كانت فيها La[12] Fille Anglaise، وبعد ذلك لم تعد تتحمل تلك الحياة، فعادت لتعمل في إنكلترا سكرتيرة أمينة وتحيا حياة رتيبة. شاهدت إيمي حنّة وهي تتربص بجيم هوكستابل، راقبتهما يتحدثان إلى أن وقع نظره على شيء ما أسفل الشارع، رأى شيئاً لفت انتباهه. ربما، إن عاد مرة ثانية، قد أبيعه واحدة، فكرت إيمي. قادت كنوزها ذاكرتها إلى فندق إنكلترا قبل خمسين عاماً، أي حياةٍ ممتعة كانت؟ الاستيقاظ على الضوء المتسرب من ستائر القطيفة الحمراء، العناق، والقبلات، الاسترخاء قبل القهوة والكرواسون، الدفء، الضحك، الهدايا... لم ترغب في اعتبار الهدايا أجراً لأنها لم تكن ترغب في أجر في تلك الحالة.

12 الفتاة الإنكليزية.

أضحكها أن حنّة التي تتوق إلى الحب الرومانسي تعتبرها شيئاً عجوزاً مسكيناً، في حين أن هيبي التي فكرت في الحب بموضوعية، واعتبرته تدليلاً للآخرين، افترضت بصورة صحيحة أنها كانت سيدة متقاعدة من المتعة.

بعيداً في أعلى الشارع فكرت حنّة بقلق: هل يجب أن تتزوج جورج. خططت أن تتزوج رجلا يلفظ "ريغاتا[13]"، كـ"ريغاته"؛ جورج يلفظها: "ريغاتر".

13 Regatta: سباق الزوارق.

٤

تمكن مونغو داف بصعوبة من إيجاد مكان لركن سيارته في مرآب السيارات المتعدد الطوابق. كان غاضباً لأنه لا يملك نقوداً معدنية لحجز مكان في المرآب. كان يوماً حاراً وهو متعب من الجولة في الكاتدرائية التي أصرت عليها أليسون من أجل صديقيها السيد والسيدة دروز القادمين من سانتا باربرا لرحلة استمرت أكثر من أسبوعين. عندما وجد النقود، عاد أدراجه ليحجز مكاناً، فوجد البطاقة ملصقة على الزجاج الأمامي. كان مشتاقاً جداً لتناول الشراب في حانة كلارنس أكثر من التجوال في كاتدرائية إكسيتِر وهو يصغي إلى زوجته الخبيرة وإلى ضيفيها الأكثر خبرة حتى، لكن الواجب يناديه، قال لنفسه، زاروا في الأمس ونشستر، ستونهنج، ساليسبري، شيربورن، وغداً يعودون إلى المنزل فيتمدد ويرفع ساقيه مرتاحاً. تمعن وهو يعبر الشارع في الفساتين التي تدور من حوله، كان هناك شيء مألوف في الخطوات الواسعة والأرداف المرتفعة التي عبرت أمامه. بحث في عقله عن وجه يلائم الأرداف، قبل أن ينضم إلى زوجته وضيفيها الذين كانوا يقفون في الممر الرئيسي يحدقون في الأعلى إلى عرض تقدمه فرقة من الموسيقيين. ستشتكي أليسون بحلول الليل من تصلب الرقبة وتستخدم حقها اللعين ضده. جلس مونغو إلى الكرسي ماداً ساقيه وانتظر ليدع أليسون تؤدي العمل، فهي من كانت قد تصيدت دعوة إلى سانتا باربرا، وليس هو. تمنى مونغو بصدق أن يبقيها السيد والسيدة دروز في ضيافتهما لمدة طويلة. فكر في نفسه، ألم يكن يمكنهم الاكتفاء بزيارة أكسفورد، كامبردج، دير وستمنستر، كوخ آن هاثاواي، كأميركيين لائقين؟ قارن وهو يشاهد زوجته من الخلف أثناء تجوالها في الممر مؤخرتها مع مؤخرة صديقتها باتسي ومع المؤخرة التي كان قد رآها قبل قليل في الشارع.

– "أو، مونغو".

"اللعنة!"، لقد رأته أليسون تماماً في اللحظة التي كان على وشك أن يتذكر فيها من كانت صاحبة الأرداف.

"نعم؟"، ذهب لينضم إلى زوجته.

"ابق معهم، عزيزي، أريد أن أتجول قليلاً داخل محل الأحذية ذاك عند الزاوية، لديهم تخفيضات"، همست أليسون.

"إنهم ضيوفك، ليسوا ضيوفي"، همس هو الآخر.

– ”عزيزي، لا تكن خسيساً“.

”أليس هذا وقت الغداء تقريباً؟“، قال مراوغاً.

– ”حالاً، حالاً، كن ملاكاً، لن أتأخر“.

– ”آه، إلهي“.

– ”إذا لم تكونوا هنا عندما أعود سألقاكم في الحانة“.

– ”هذا يعني أنك سوف تتأخرين“.

”لا، لا“، تركته وسارت بسرعة شديدة بخفيها الغاليي الثمن لتستخدم عينيها في المساومة وتشتري بسعر مخفض زوجاً، وعلى الأرجح اثنين، من الأحذية الغالية لتتباهى بها في كاليفورنيا. عندما كانا يحبان بعضهما بعضاً قبل سنوات، كان يدعوها مازحاً المولعة بالحذاء، والآن يدعوها مدمنة تسوق. لقد أحب مشيتها الأنيقة التي وجدها تشبه مشية مهر من شيتلاند[14]، لكن الآن، بينما يراقبها تذهب، كان يتساءل هل ساقاها قصيرتان جداً، وهل سيصبح جسدها الجيد، الذي هو في متوسط العمر حالياً، بشكل البرميل مع تقدم العمر. انضم إلى ضيفيهما عابساً.

14 جزر شيتلاند في اسكتلندا.

– ”كاتدرائية جميلة جداً، كنا نقارنها مع دورهام ولينكولن“.

يبدو أن باتسي لا تتعب أبداً. ماذا رأت أليسون فيها؟

”هذه أكثر دفئاً“، بذل مونغو جهداً.

– ”دفء؟“.

– ”ودية أكثر، أصغر، أقل مسافة للمشي“.

”هل نتعبك مونغو؟“، كان إيلي مهتماً، أصغر من مونغو، وأكثر نشاطاً منه، رشيق جداً، يتحرك بسرعة.

”لا، سيدي“، حسّن أسلوبه.

”هذا كله جديد علينا، أنتم ترونه طوال الوقت“، قالت باتسي مبررة.

– ”حقيقة أنا لم أزر إكسيتِر من قبل“.

”أنت لا تتوقع منا أن نصدق هذا“، لا بد أنها كانت تمازحه؟

– ”عبرتها بالقطار“.

– ”لكنها قريبة جداً من منزلكم“.

– ''مئتا ميل ليس قريبة بالنسبة إلى الرجل البريطاني''.

ضحك الضيفان مقدرين مزحته.

''لماذا لا نتخطى بقية الأماكن ونذهب لتناول الغداء؟''، اقترح إيلي، ''ويمكننا أن نعبر باث أثناء العودة إلى المنزل، وقد يكون مناسباً أن نقصد ويلز أيضاً''.

''بالتأكيد ويلز''، قالت باتسي، ''ويلز ضرورية''.

''وكذلك الشراب''، اتجه مونغو نحو باب الكاتدرائية، ''قالت أليسون إنها ستلاقينا في الحانة''.

بينما كانوا يعبرون الشارع إلى فندق الكلارنس، لمح مونغو المؤخرة الغامضة تختفي عبر الباب، لكن البهو كان فارغاً عندما وصلوا.

طلب مونغو الشراب في الحانة التي كانت ملئية بالغرباء، واختار لضيفيه مقاعد مريحة، ''من الأفضل أن أذهب وأحجز طاولة''. قال ذلك وهو يتجه إلى المطعم متلفتاً حوله في كل اتجاه، لكنه لم ير أي وجه مألوف. نظر في الحانات الأخرى والمقاصف لكن دون فائدة. وبينما كان يعود، بعد أن حجز الطاولة في المطعم، التقى أليسون.

– ''هل اشتريت شيئاً؟''.

– ''ثلاثة أزواج''.

– ''أوه! يا إلهي''.

– ''فقط ما أحتاجه في رحلتي إلى أميركا''.

''ما تريدينه''، قال مونغو بغضب.

– ''أريده، أيضاً، بالطبع. هل طلبت لي شراباً؟''.

– ''ليس بعد، لا أعرف ماذا ستشربين''.

– ''أنا دوماً أشرب الفودكا''.

– ''ليس صحيحاً، أنت غالباً تشربين الخمر وعندما تشعرين بالعفة تشربين كامباري''.

– ''مونغو، عزيزي، لا تكن عدائياً جداً''.

عندما تدعوه أليسون بالعدائي يكون هناك شجار على وشك الوقوع. اعتذر مونغو على عجل: ''آسف، آسف، آسف''.

– ''باتسي، عزيزتي، ألا تودين أن تذهبي إلى الحمام؟''.

انحنت أليسون لتقبل باتسي كأنهما لم تلتقيا منذ أسبوع. ارتعد مونغو من الحركة الأميركية.

''اطلب فودكا بينما نذهب''، قالت أليسون لمونغو.

قال مونغو: ''بالطبع،'' مقاوماً رغبته في قول: ''بالتأكيد''. كان مونغو يتساءل هل مارست أليسون الجنس مع إيلي، أو أنها خططت لذلك مستقبلاً.

ذهبت المرأتان للبحث عما تسميه باتسي ''الجون[15]''. أخذ مونغو جرعة ويسكي وانتظر ليشعر بنشوة الشراب التي ستسمر خلال الغداء وما بعد الظهر. ''يقول النادل إن لديهم بوردو جيدة''، قال لإيلي. كان هذا أحد الأيام التي يجب أن يثمل فيها قليلاً إذا أراد أن يستمر بالحياة.

15 المقصود به المرحاض.

في حمام السيدات، خلعت هيبي ثيابها. الشيء المزعج الوحيد في متاجر ماركس وسبنسر كان غياب أي مكان يمكن أن تجرب فيه الأشياء التي تريد شراءها. وقد اعتادت هيبي لسنوات، عندما كانت تتسوق في إكسيتِر، قبل أن تذهب للقاء سيلاس وهو ينزل من قطار مدرسته أن تأخذ مشترياتها إلى فندق الكلارنس لتجربها في حمام السيدات وترجع بعد ذلك الأشياء التي لا تناسبها بسرعة. الحقيقة هي أن متاجر ماركس وسبنسر كان لديهم الآن أماكن لتجريب الملابس، لكن ذلك غاب عنها بسبب ضعف نظرها. كان الحمام فارغاً، فتركت هيبي ثيابها وحقيبتها معلقة على الخطاف في الحمام وخطت ضمن الغرفة لتجرب البكيني. كانت قد جربت اثنين وعلى وشك أن تجرب الثالث عندما دخلت أليسون وباتسي الغرفة فجأة.

حدقت أليسون، وفمها مفتوح بشكل حرف O، فيما دخلت هيبي إلى المرحاض بسرعة وأقفلت الباب بالرتاج. وقفت مذعورة بإحراج، وأنصتت.

ذهبت أليسون وباتسي إلى مراحيض أخرى. سمعتهما وهما تدخلان... تقفلان الأبواب، تتبولان، حفيف الأوراق، صوت الماء، ثم تفتحان الأبواب، تخرجان، تغسلان أيديهما وتغادران الحمام لتندفعا بالثرثرة في الممر.

متلمسة بيديها المرتبكتين، لبست هيبي ثيابها. أرجعت البكيني إلى الحقيبة. لم يكن بإمكانها أن تتذكر أيها ناسبها. سوّت شعرها، عدلت نظارتها ووقفت مصغية. هل قالتا شيئاً ما لبواب الصالة. اشتكتا في المكتب؟ هي لم تدخل الكلارنس أبداً لتناول شراب أو وجبة طعام. لم تكن معروفة. تمشت في الممر الذي يقود إلى الصالة وهي تتظاهر باللامبالاة. بينما تمشي كانت تناشد نفسها أن تبدو طبيعية ولا تسرع. لم تكن تتوقع أن تلتقي مونغو يسرع عبر الممر للقاء أحد ما. أسقطت أغراضها وهي ترفع يدها لتحجب وجهها كي لا يراها.

''ماذا تفعلين هنا؟''، كان مونغو قد شرب كأسين مزدوجين من الويسكي ولم يستطع تصديق عينيه. انحنى ليلتقط لها أغراضها. تقارب وجهاهما جداً عندما كانت هيبي تنحني أيضاً.

''ماذا تفعل هنا؟''، قالت بلهجة اتهام، ''لماذا لست في المنزل؟''.

''طلبت أليسون من هذين الأميركيين البقاء في ضيافتنا. لقد زاروا في الأمس الكاتدرائية، وينشستر، ستونهنج، شيروبورن، واليوم إكسيتِر، ويلز، وباث... وإذا لاحظوا كم هم قريبان من غلاستونبيري، سيزورونها أيضاً...''.

''أنت ثمل''، اختطفت أغراضها منه، ''أنفاسك كريهة''.

– ''قليلاً فقط. هل تعيشين هنا؟''.

– ''لا، لا، لا''.

''قريب من هنا؟''، كاد يقع عليها، بدا أطول مما تتذكر.

''بالتأكيد، لا''، كانت تتراجع.

– ''أليسون ذاهبة إلى أميركا في زيارة طويلة، وضعت عينها على الزوج''.

– ''ماذا يعني هذا؟''.

''يعني يمكننا أن نكون معاً، عزيزتي''، قال مونغو بصوت عالٍ.

''لا تخاطبني هكذا''، همست هيبي.

''لن تسمع، هي في الحانة''، أمسك اليد التي تحمل الحقيبة، فتركته ومضت، وجد نفسه يفتش الحقيبة.

''أوه''، لحق بها، ''خذي، هذه لكِ،'' أمسك ذراعها، ''كانت تلك مؤخرتك التي رأيتها قبل قليل. ألا يمكنني أن أضعه؟''.

''ما الذي تتحدث عنه؟''، أخذت الحقيبة وأسرعت.

– ''منذ متى ترتدين النظارات؟''.

''إلى اللقاء''، عبرت هيبي الشارع بقفزات كبيرة قبل مرور الحافلة. عندما نظرت وراءها، رأت مونغو. كان رأسه أطول من أي أحد على الرصيف، شعره أسود مشعّث، يحدق إليها بعيونه الزرقاء وبنظرة مليئة بالزهو.

تذكر مونغو الذي بقي وحيداً على الرصيف أنه كان في طريقه إلى أشخاص. وعندما عاد لينضم إلى زوجته وضيفيهما كانوا يضحكون فيما تصف باتسي رعبها لرؤية فتاة عارية في حمام السيدات.

''لم تكن ترتدي شيئاً باستثناء نظارات''، تصافحت باتسي وأليسون وهما تضحكان.

ضحك إيلي، ''الحياة في بلدة فيها كاتدرائية، وكثير من المومسات''.

''ليست امرأة فاسقة''، قال مونغو، الذي لم يسمع الحديث جيداً.

''من هي التي ليست كذلك؟''، سايرته أليسون بسرعة.

شعر مونغو بالخطر؛ ''تلك الفتاة''، قال، ''تعرفين من أقصد، تلك الفتاة التي تطبخ لأمي. ظننت أنني رأيتها في الشارع للتو. ما اسمها، هل يمكنك أن تتذكري؟''، سأل أليسون: ''ألا تأتي من هذه الأنحاء؟''.

''أظن أنها تأتي من لندن. لا أستطيع أن أتذكر ماذا كانت تدعى''. بدت أليسون غير مهتمة، ''لا تطلب المزيد من الشراب، عزيزي، أليس علينا أن نتناول الغداء؟''.

''بالطبع، بالطبع، من الأفضل أن نسرع إذا أردنا زيارة ويلز وباث، يمكننا أيضاً أن نزور غلاستونبيري، لم لا؟''، قال مونغو، كان صوته ودوداً مع ارتياح.

استلمت أليسون التي لم يؤثر فيها الكحول الذي تناولته بقدر زوجها عجلة القيادة إلى ويلز وباث. قرروا أنهم بعد كل ما زاروه سيفوتون غلاستونبيري. قالت باتسي إنها سمعت أنه كان مكاناً لتجمع الهيبين ومدمني المخدرات. ''لدينا مثله في كاليفورنيا''.

تساءل مونغو وهو يتظاهر بالنوم في المقعد الخلفي: ما الجحيم الذي كانت تفعله هيبي في إكسيتِر. فتاة كتومة. كان منزعجاً من أن عليه أن يتواصل معها بواسطة عنوان في لندن يعيد توجيه الرسائل إليها. هل تعيش في الجوار يا ترى؟ في اللحظة التي سيتأكد فيها من تاريخ سفر أليسون إلى سانتا باربرا سيكتب إليها ويدعوها لتنضم إليه. قد يكون من الممكن أن يسافر بها إلى الخارج. كانت تحمل حقيبة مليئة بالملابس المثيرة. خطط وهم يتجهون نحو ويلز وباث لعطلة على شاطئ المتوسط، ولكن لأن أثر النبيذ الذي تناوله على الغداء بعد الويسكي كان قد بدأ بالزوال، فكر بحزن أن هيبي كانت هي من تتحكم بالأمر، وليس هو. هذا السبب في أنها كانت هي من تختار المواعيد والأمكنة كما فعلت دوماً، فهي من اختارت الشقة التي يلتقيان داخلها في شارع سلوان.

حركت أليسون الجالسة في مقعد القيادة المرآة الأمامية لترى نفسها. كانت مستاءة من مظهرها. شعرها الذي كان طبيعياً بلون المربى الذهبي بحاجة إلى تصفيف. عيناها الزرقاوان كأزهار القنطريون العنبري كانتا جميلتين لكنهما ستغدوان أفضل إذا صبغت رموشها الباهتة، كما اقترحت باتسي. أنا أزداد ضيقاً مع مرور الوقت، فكرت وهي تنتقل إلى الطريق السريع. عدلت المرآة من جديد لتنظر إلى مونغو الجالس في المقعد الخلفي. فكرت باستمتاع، كما كانت تفعل غالباً من قبل، في أنه كان لديه كل الضمانات التي يمكلها الإيتواني العجوز دون أن يذهب إلى هناك فعلاً، لكن

شعرت أنها غير واثقة وغير آمنة رغم طبيعتها المتسلطة. يجب أن أصحح ذلك، قالت لنفسها، منطلقة في الخط السريع. تساءلت كم من المرات كان مونغو غير مخلص. بدا مراوغاً على الغداء عندما ذكرت طاهية أمه. آها! قالت أليسون لنفسها، مظهرة شفتها السفلية، أوه! ''سأعيد تصفيف شعري في أميركا''، قالت من فوق كتفها لباتسي، و''سنرسل الصبيان إلى إيتون''، قالت لإيلي الجالس قربها.

''هل ذلك الحد مسموح؟''، قال إيلي، دون اهتمام. ''حد السرعة لدينا في أميركا هو خمسين، ما الحد عندكم؟''.

''سبعون''، زادت أليسون السرعة رافعة السرعة إلى ثمانين.

٥

قطعت هيبي ميلاً عبر إكسيتِر بواسطة الحافلة وصعدت التل عائدة إلى المنزل وهي تلعن مونغو. لم تفكر أن أليسون عرفتها. لقد مرت سنوات منذ التقيا عندما ذهبت للمرة الأولى إلى والدة مونغو. في تلك الأيام، كان لديها غرة قصيرة فوق جبينها، وكانت نظارتها الآن تنكراً إضافياً. بذلت جهداً حتى أبعدت مونغو وزوجته عن عقلها. فقد اليوم، الذي خططت له أن يكون يوم تسوق بسلام، سحره. كم سيغدو الوقت كئيباً في انتظار القطار الذي يحمل سيلاس من المدرسة وحياته الأخرى. كان لديها الوقت لإرجاع البكيني واستعادة أموالها فقط. أجبرت نفسها أن تكون صبورة، وألا تسرع إلى أخذ سيارتها من المرآب، وألا تقود بسرعة كبيرة إلى المحطة، وأن تركن السيارة بدقة، وأن تسرح شعرها، وتعدل تنورتها، وتسترخي مركزة على سيلاس.

دائماً بعد افتراقهما لمدة، كانت هيبي تخشى أن يكون سيلاس تغير، وأنه لم يعد لها، وأنه قد لا يقبلها. كانت تخشى إحراجه بإظهار الكثير جداً من العاطفة. خطت على الرصيف في ترقب مؤلم.

فوجئت عندما وصل القطار في موعده، كانت قد أقنعت نفسها أنه سيتأخر. عندما احتضنها سيلاس كانت تقريباً تبكي بارتياح. وضعا أمتعته في السيارة وجلس قربها وهي تقود. قال بصوت ودي: ''رائع أن أكون في البيت''. شعرت بمتعة عارمة لامتلاكها طفلاً رائعاً جداً. أحبت شعره الكستنائي، فمه الواسع، بروز أنفه الكبير، تعبيره المغرور قليلاً الذي تناقضه عيناه.

''لقد كبرت''، قالت

''ماذا تتوقعين؟''، أجاب، فتبخرت غبطتها.

''ماذا تريد أن تفعل في هذه العطلة؟''، سألته، وكانت على وشك أن تسأل: ''ماذا سنفعل في هذه العطلة؟''.

قال سيلاس الذي انزعج من نفسه لكنه كان متلهفاً لتأكيد استقلاليته: ''أظن أن جيلز وأنا يمكننا أن نستكشف. هناك أمكنة لم نذهب إليها من قبل''.

''يمكنني أخذكم بالسيارة''، أقحمت هيبي نفسها كرهاً في حياته.

''نحن نفضل نوعاً ما الذهاب بالحافلة، إن لم يكن لديك مانع''، نظر سيلاس إليها نظرة جانبية.

''بالطبع لا أمانع''، قالت هيبي بحدة، ''لماذا سأمانع؟''.

فكرت، دوري هو أن أطبخ، أعطيه مالاً لينفق، أكون موجودة عندما يحتاجني، إذا احتاجني. بحق الله، ناشدت نفسها، لا تتعلقي، لا تكوني متملكة.

– "عرض علي أحد الفتية أن يقلني في طريقه، والده كان يأخذه إلى كرونول"، قال سيلاس، "إلى سيلي في الواقع".

– "لماذا لم تقبل؟".

– "أفضل أن آتي بالقطار، أتوق لرؤيتك تنتظرين على الرصيف؛ أحب هذه الطريق الطويلة إلى البيت معك وأنت تقودين".

"أوه! عزيزي"، قفز قلبها.

– "بالطبع كان هذا ليوفر أجرة القطار".

"فلتذهب أجرة القطار إلى الجحيم"، سالت دموعها وهما يضحكان ساخرين من أجرة القطار المهلكة بكلفتها.

– "كيف العمل؟ متى عدت إلى المنزل؟".

"هل تمانع فعلي هذا النوع من العمل؟ إنه العمل الوحيد الذي أجيده وهو مربح. هل تمانع فعلي إياه؟"، خافت من انتقاده.

"لماذا سأمانع؟"، كان سيلاس مدهوشاً بصدق.

– "أحد الصبيان أخته تطبخ لفرق الرماية، يقول إن بعض الشبان حاولوا أن يمارسوا معها الجنس".

"أوه!"، ماذا يعرف سيلاس عن ممارسة الجنس؟ معرفته أكاديمية، بالتأكيد.

– "أخبرته أنك مختصة بالعمل لدى السيدات العجائز لأنهن يدفعن أكثر وقال إنه سيخبرها. هل يؤثر هذا في عملك، أمي؟".

– "بالطبع لا. هناك مكان للجميع".

– "ألم يطلب منك أحد أبداً أي أعمال في العطل؟".

"لن أقبل أي عمل"، قالت هيبي بسرعة، "العطل هي فرصتي الوحيدة لرؤيتك".

– "يمكنك فعل عمل مختصر، اذهبي لأسبوع، لن أمانع".

– "ماذا تقصد؟".

– "إذا كنت ترسلينني بعيداً إلى المدرسة، فأنا بالتأكيد يمكنني البقاء في المنزل فيما تذهبين إلى العمل".

يا إلهي، أي شوكة قاتلة وجهها سيلاس.

كان سيلاس يقصد أن يقول شيئاً مثل لبعض الوقت لكنه فكر أنه ربما قال الكثير جداً. تساءلت هيبي هل تفقد التواصل مع سيلاس، أو أنها لم تكن أبداً على تواصل معه.

''هل أنت سعيد في المدرسة؟''، سألت سؤالاً سخيفاً.

– ''إنها على ما يرام''.

''أي نوع من الإجابات هو هذا؟''، قالت متوسلة بقلق.

''أنا سعيد تماماً، ماما''، كذب سيلاس، بمهارة فتى في الثانية عشرة.

''لدي الكثير من الأصدقاء''، أضاف، وهو يعرف أن مثل هذه العبارة قد تهدئ مخاوفها. ''كيف الشارع؟''، سألها بلطف، وهو يعرف أنها تراه قبيحاً.

''قبيح كما هو دوماً''، نظرت هيبي إليه، وهي تتساءل من أين جاء بذاك الأنف الكبير. ''لكنك اعتدت أن تحبه''.

– ''أنا أحبه فعلاً. إنه مليء بالناس الكتومين''.

– ''حنة، جيلز، إيمي ترايماين''.

– ''وناس آخرون. لا يبدو أبداً أنك تريدين معرفتهم. ألا تفكرين أنك قد تحبين بعضهم؟''.

''ليس في الواقع''، تحدثت هيبي بثقة وصدق، ''أنا لست اجتماعية، أنا أبداً لا أكون في البيت لمدة طويلة بما يكفي''.

– ''أنت تظنين الشارع قبيح جداً ليكون فيه أي شخص مهم يعيش فيه. سمعتك تقولين هذا لحنة''.

– ''أنت تجعلني أبدو متكبرة''.

''لن تكوني مختلفة أبداً إذا عشنا في شارع آخر''، شعر سيلاس أنه يدافع عن الشارع الذي يجده ساحراً في انسجامه الكئيب.

– ''قد أكون مختلفة في ميدان من الطراز الجورجي أو مزرعة ريفية''.

قالت هيبي خائفة من أن تتحدث. كان سيلاس يصدها للحظة ثم يشجعها فيما تمنت لو أنها تعرف طفلها الغامض على نحو أفضل.

''أنا سعيدة لأنك تحبه''، قالت، وتابعت مازحة، ''وإذا حدثت معجزة وجاءني عمل في منتصف العطلة يمكنك عندئذ أن ترى كيف ستتدبر أمورك بنفسك''.

''سأكون على ما يرام''، كان جاداً.

''إنهم دوماً يدفعون الضعف''. كانت تصدق بصعوبة أنها نفسها من كانت تتحدث. هل سيكون من الجيد له أن يكتشف كيف تكون الأمور إذا كان وحيداً؟ ''ستكون وحيداً''، قالت متوقعة أن يعترض.

''سأحصل على وجبات طعام من حنة أو إيمي إن احتجتها''، قال سيلاس ممازحاً، وهو يفكر أن البقاء وحيداً في المنزل سيكون أمراً رائعاً ومختلفاً جداً عن الوحدة في المدرسة.

شعرت هيبي وهما يقتربان من الشارع المرتفع بالخوف من أنها لا تعرف سيلاس أبداً بصورة حقيقية، ثم تذكرت ذلك الكابوس في اليوم السابق وأدركت وهي تقف أمام منزلها أنها نادراً ما كانت قد اختبرت رعبها عندما كانت تعمل بعيداً. فكرت في لقائها مونغو، وضحكت وهي تقترب من باب منزلها مستمتعةً بولعها بمونغو.

''ها قد وصلنا، معجزتي العجوز''، ضحك سيلاس أيضاً مستمتعاً بالعودة وسعيداً لأن أمه لم تكن قد جُرحت منه على ما يبدو.

''سأبدل ملابسي''، قال وهما يحملان أمتعته إلى الطابق العلوي، ''ثم سأجد جيلز''. كان متلهفاً للعودة إلى بيئته المنزلية.

''سأعد الشاي''، كانت هيبي تتمنى أنها لم تكن خجولة مع سيلاس لو أنه لم يبتعد عنها. لقد ورث مني تكتمي وتحفظي، فكرت، ثم تمنت وهي تتذكر المصادفة السيئة الحظ مع مونغو، لو كان بإمكانها أن تتشارك النكتة معه.

نزل سيلاس يرتدي سروالاً من الجينز وقميصاً قصير الكمين، ''هل تمانعين إن خرجت ورأيت جيلز الآن؟''.

– ''هناك رسالة لك فوق الموقد''.

فتح سيلاس الرسالة، ''أوه، رائع!''، صاح، ''هذا ساحر! والدة مايكل ريفز تطلب مني أن أذهب إليهم. كما هذا رائع!''.

''من هو مايكل ريفز؟''، شعرت هيبي بالقشعريرة.

''فتى من المدرسة. لقد استأجروا كوخاً في جزر سيلي، إنهم يبحرون. لن تمانعي، هل ستمانعين؟ إنها ثلاثة أسابيع فقط''.

''ثلاثة أسابيع؟''، حاولت أن تحافظ على هدوئها، ''متى؟''.

''سيكون ذلك رائعاً''، كان سيلاس مبتهجاً، ''إبحار لثلاثة أسابيع، تخيلي فقط، أنا لم أبحر في حياتي أبداً''.

''متى؟''، شعرت بالبرد، كان متأكداً أنه سيذهب.

– ''هي تقول أن نحدد التاريخ الذي يناسبك، هي لطيفة جداً، أتت إلى النشاطات الرياضية في منتصف الفصل''.

''كنت أعمل ولم أستطع ترك العمل للقدوم''، كانت هيبي تتجنب النشاطات المدرسية.

''لا تمانعين، أليس كذلك؟''، بدا سيلاس قلقاً، ''إنه الصبي الذي عرض أن يوصلني''.

''فهمت''، كانت مصابة بخيبة أمل.

''بالتأكيد أنت لا تمانعين؟''، افترض سيلاس أنه سيذهب، لم يسأل.

''بالطبع لا أمانع، هذا لطف كبير من السيدة ريفز''، ليس علي أن أتشبث به، قالت لنفسها. ''علي أن أكتب لها. سأكون مرحة من أجلك''.

''ألا يمكننا أن نتصل؟''، كان سيلاس مستعجلاً جداً لتثبيت الموعد، والتقاط الفرصة، والتشبث بها.

''نعم، جبيبي، سنتصل الليلة''، استسلمت للأمر.

''جيد، سأخرج الآن وأجد جيلز''، غادر سيلاس المنزل تاركاً جميع الأبواب مفتوحة وهو يخرج راكضاً جائعاً للحياة.

مرت بضع دقائق كانت هيبي في بؤس خلالها، ثم اتخذت قراراً أنها سوف تذهب إلى العمل. ليس مونغو، فذلك سيكون مستعجلاً جداً؛ سيظن أنه ربح نقطة. السيدة فوكس ستكون جيدة، ليست هناك تعقيدات، والأجر جيد تماماً. عندما عاد سيلاس ومعه جيلز، كانت هيبي تبتسم.

– ''وكيف كانت باريس؟''.

''رائعة''، كان جيلز نسخة مذكرة من حنة.

– ''شاي؟''.

''لقد تناولته للتو''، ابتسم جيلز ليكشف عن أسنان غير مستقيمة، هل سيصلح جورج سكوب هذه الأسنان مجاناً إذا تزوجته حنة؟

– ''هل تريد فنجاناً آخر؟''.

''شكراً''، كان جيلز مولعاً بأم صديقه، ويعتبره محظوظاً.

– ''أتمنى لو أن أمي كانت طاهية''.

''إنها تجارة مربحة''، قدمت هيبي قطعة من الكعك إلى جيلز، ''سأذهب للعمل لدى السيدة فوكس في ويلتشاير أثناء ذهابك إلى سيلي''، قالت لسيلاس.

– ''من هي السيدة فوكس؟''.

– ''واحدة من السيدات العجائز اللاتي يمكن لهن أن يتحملن دفع أجرٍ لطاهية أحياناً لتسليتها''.

– ''هل ستكونين هنا عندما أعود من سيلي؟''.

''سأكون هنا''، قالت، ''بالطبع سأكون''.

٦

تشاجر مونغو داف مع أليسون عندما غادر إيلي وباتسي، متهماً إياها على نحو شرير بالأنانية لأنها تخطط لتركه وحيداً. وبينما كان متلهفاً لذهابها إلى سانتا باربرا، لم يكن يتمنى لها أن تستمتع في رحلتها، مع أنه كان يأمل أن تخونه مع إيلي. يجب أن تذهب وهي تشعر بالامتنان له لأنه تخلى عنها، وأن ترجع لتدليله وهي تشعر بتأنيب الضمير. إن استطاع أن يجد هيبي فإنه سيرحب بأليسون عندما تعود إلى البيت ويأخذها بالأحضان، وإن فشل في ذلك فإنه سيكون في وضع أقوى ليلعب دور الزوج المجروح. تمنى أن يخيب إيلي أملها في السرير. كان أليستر وإيان ذاهبين لزيارة أصدقاء لهما، وكان هذا مصدراً آخراً لتبادل الاتهامات، لأن أليسون كانت قد رتبت لعطلتهما دون أن تسأله رأيه.

"سيكبران دون أن يعرفا والديهما"، قال معترضاً، "ربما كان من الأفضل أن نكون مطلقين".

"أنا غالباً أفكر"، أجابت أليسون، "أن أولاد الأشخاص المطلقين يرون آباءهم أكثر من أولاد الأشخاص غير المطلقين. ولكن هل هذا شيء جيد؟ لا يمكنني أن أعرف ما الفائدة التي سيحصلون عليها منك في مزاجك الحالي، هذا مهم"، أضافت بعزم، وبأسلوب مستفز، "لأنهم سيقيمون صداقات مفيدة، ثم سوف يلتقون النوع الصحيح من الفتيات، لا يمكنهم التأخر في البدء بذلك".

– "حسناً، سافري، استمتعي، اتركيني وحيداً".

"لقد دعيت أنت أيضاً"، كانت قد قالت هذا من قبل.

– "تعلمين تماماً أنني لا أستطيع أن أترك المكتب في هذا الوقت".

– "لا أعلم، أنت غالباً تترك المكتب وتذهب إلى لندن، وأمور مكتبك تسير على ما يرام أثناء ذلك".

"أبقى على اتصال عندها، بأي حال، لدي أعمال"، فكر مونغو بكم العمل القليل الذي يفعله عندما يترك المكتب، كما ادعت أليسون، قاصداً لندن: محادثة هاتفية شكلية، غداء عمل، وبقية الوقت يقضيه مع هيبي، التي كانت تقترح موعداً عبر مكالماتها الهاتفية العرضية. لماذا أتحمل هذا، سأل نفسه، ولم يزعج نفسه بالإجابة، لسبب واحد هو أنه كان متأكداً أن هيبي هي من تقرر الأمر.

"وأنا أدفع"، قال متأوهاً.

كانت أليسون توبخه، فقالت: "أنت تعلم تماماً أنني أدفع عن نفسي".

– ”أنا لم أقصد المال بحد ذاته، قصدت أنني أدفع الثمن بوحدتي“.

”اذهب لرؤية أمك، فهي وحيدة، إذا كان هناك أحد كذلك“، لم تكن أليسون متعاطفة، ”ستكون لديها تلك المرأة التي تطبخ لها، على الأرجح“.

”لا أتوقع ذلك“، كان مونغو قد علم مسبقاً من أمه أن هيبي لن تأتي قبل الخريف. ”لا، عزيزي“، أجابت أمه عن سؤاله التالي، ”لا أعرف أين تعيش. الآنسة تومسون تكتب إلى عنوان في لندن يعيد إرسال الرسائل إليها. إنها تأتي ثلاث مرات في العام، كما تعلم، حتى يمكن للآنسة تومسون أن تحصل على إجازة“.

”ألا تستحق الآنسة تومسون إجازة؟“، قال مونغو لأليسون.

– ”لماذا لا يمكنك أن تذهب عندما تكون الآنسة تومسون هناك؟“.

– ”الزوار هم أمر أكثر من اللازم بالنسبة إليها“.

– ”لا أصدق ذلك، هي دوماً ترحب بي“.

”وأنا لا أصدق ذلك“، كان مونغو يتقصد أن يكون مزعجاً.

– ”صدق ما تريد. لن أدعك تفسد رحلتي“.

استلقى مونغو في السرير يفكر في هيبي. ماذا كانت تفعل في إكسيتِر؟ ألم تقل في العام الماضي، بعد أن أنهت عملها لدى أمه، وتركته يصحبها لمدة أسبوع إلى ديفونشاير، ألم تقل أنها لم تزر المنطقة من قبل أبداً؟ ألم تصح بسعادة عندما قاد السيارة بها عبر الطرقات التي تنتشر على أطرافها أزهار المنثور البري والجريس، مع الأبقار التي ترعى العشب، هل كانت تمثل؟ ماذا كانت تفعل في فندق الكلارنس؟ هل كانت تنزل هناك برفقة رجل آخر؟ تأوه مونغو وهو يتذكر ذراعي هيبي وساقيها الطويلتين تلتف حوله في عناقها الرائع لكن العابر.

”هل تشكو من ألم في المعدة؟“، قالت أليسون وهي نصف نائمة.

– ”لا، لا“.

– ”دعني أنم، إذاً، لقد شربت كثيراً على الغداء في الأمس، وهذا يزعجك دوماً“.

”لا أستطيع انتظارك حتى تذهبي إلى أميركا“، صاح مونغو.

”حسناً، حسناً..“، تمددت أليسون في السرير وهي تشعر أنها موضع تقدير. فكرت أنه كان من الجيد لمونغو أن يبقى دونها سعيدةً أنه منزعج من أنها ستتركه وحيداً. كانت غافلة عن أنه لسنوات مضت كان يقضي ستة أسابيع كل عام مع هيبي، الأسابيع التي يفترض أنه يكون لديه فيها أعمال في لندن. سمعت من أصدقاء أنه كان يشاهد مع فتاة، لكن بما أنه كان يعود إلى المنزل بمزاج جيد فهي

كانت قد قررت منذ زمن بعيد أن لندن جيدة له. أياً كان من يراها هناك، فهي لا تشكل تهديداً. هي نفسها، عندما كان مونغو يغيب عنها، كانت إما تعيد ترتيب غرفة في المنزل وإما تذهب مع صديقة لمشاهدة لوحات وكنائس. كان وقتاً سعيداً غيرت فيها نمط حياتها. إذا كان يمكن لمونغو أن يخرج، فهي تمكنت من ذلك أيضاً.

بينما غرقت أليسون في النوم، كان مونغو يبحث في عقله عن حلول لإيجاد هيبي. فكر للحظة في استخدام محقق خاص، وقرر ألا يفعل لأن ذلك سيكون محرجاً جداً. هيبي لم تؤذه أبداً، كل الخطأ الوحيد الذي اقترفته هو طريقتها الغامضة في إدارة علاقتهما. وبينما هو غير قادر على النوم، عاد بأفكاره إلى المرة الأولى التي التقى فيها هيبي مصادفة قبل سنوات. بينما كان يستمتع بذكرياته، كانت أليسون تشخر في السرير المجاور وهي تدير ظهرها له. كان الفضل لأليسون أنه التقى هيبي... ويا إلهي، تأوه مونغو، كان من الصعب أن يشعر بالامتنان لأليسون، إذ إن أليسون كانت زوجة جيدة، ولو أنها متسلطة، وكانت مديرة رائعة... أم جيدة، كنة جيدة خصوصاً، وهذا، بالاجتماع مع تسلطها، هو ما حمل هيبي إلى حياته. والده، الذي توفّي منذ زمن بعيد، كان لاهياً. يذكر أصدقاؤه أنهم هم أنفسهم عاشوا اللهو على نحو كبير جداً، يروون أحداثاً تعيسة: أطفال غير شرعيين يجب تأمين معيشتهم، ترتيبات عمليات إجهاض، أمراض خطيرة، كان يشار دوماً إلى الأمراض التناسلية بالأمراض الخطيرة، والمكلف جداً كان الاحتفاظ بعشيقة من النوع المرح المبهج. توفّي والد مونغو فجأة وترك أمه ثرية ووحيدة في منزلهم الكبير الذي سيرثه في الوقت المناسب، وترك ثروة سمحت لمونغو أن ينقل ابنيه الذين هما حالياً في المرحلة الإعدادية إلى كلية إيتون، لأن أليسون لم تكن ترى مدرستهما القديمة جيدة بما فيه الكفاية.

استلقى مونغو مصغياً إلى أنفاس زوجته، يفكر في وفاة أبيه، عندما تحملت أليسون المسؤولية، ورتبت الجنازة. لم يزعجها أن تجعل الأمر يبدو كأن مونغو هو من رتبها. كتبت الرسائل وردت عليها، واست وعزت بعفوية. وجدت مدبرة منزل طاهية لتدبر أمور المنزل الكبير، تعيش مع تلفازها الملون، وسيارتها الخاصة، وتحصل على أيام إجازة منتظمة وعطل طويلة مقابل أجر متواضع. كانت العطل، لأسبوعين ثلاثة مرات في العام، هي الأمر الذي سيبقي الآنسة تومسون سعيدة. هذا ما أكدته أليسون لحماتها عندما وصفت لها ترتيبات العمل، ثم كان هناك التبذير الرائع بإيجاد طاهية مؤقتة تعمل خلال غياب الآنسة تومسون، إذ إن السيدة لوسي سوف تستضيف كل الأشخاص الذين تريدهم دون أن تزعج الآنسة تومسون، التي كانت تحب الروتين الهادئ. "وهنا"،

ستقول أليسون، ''هنا توفقت بضربة حظ. نُصحت بامرأة تأتي عندما تذهب الآنسة تومسون، ويكون الجميع سعداء''.

''هل هي مكلفة؟''، تُسأل أليسون.

''حسناً، هي تستحق ما سيدفع لها''. تجيب أليسون دون أن تفشي سر مرتب الطاهية. ''أحياناً يكون الشخص محظوظاً جداً''، تقول أليسون بصوت راضٍ، الأمر الذي يصدم مونغو، لأن حظ أليسون الجيد كان حظه أيضاً. عندما زار أمه قبل سبع سنوات دون أن يعلمها بزيارته، قالت: ''عزيزي، كم هو جميل أن أراك. اذهب وأخبر الطاهية أنك هنا للعشاء. الآنسة تومسون في عطلة''.

كان مونغو مذهولاً، ''هل صار عندنا طاهية في هذه الأيام وبعد هذا العمر؟''.

– ''ألم تخبرك أليسون؟ ستجدها في المطبخ، أخبرها أنك هنا''.

وهناك في المطبخ كانت هيبي. الأمر المزعج الوحيد اللعين، فكر مونغو وهو يستمع لأنفاس أليسون، كان أن هيبي تأتي عندما تذهب الآنسة تومسون في عطلة فقط، وهذا لم يكن ممكناً عندما قررت أليسون الذهاب إلى سانتا باربرا. كانت هذه فرصة رائعة لرؤية هيبي، فرصة ذهبية بدا أنها ستضيع منه. تساءل مونغو هل تملك أمه عنواناً آخر لهيبي غير العنوان الذي لديه. يمكنه أن يدعي أن والدة صديق له تعيش ظروفاً مماثلة لظروف أمه وتحتاج إلى طاهية تعمل مؤقتاً. يمكنه، ربما، أن يحصل على عنوان هيبي بطريقة مخادعة أخرى. يبدو من الغباء أنه لا يعرف أين تعيش. بينما هو يتقلب غير قادر على النوم، تذكر هيبي كما رآها أول مرة. كان قد ذهب إلى المطبخ متوقعاً أن يرى امرأة في منتصف العمر ترتدي ثياباً من طراز قديم، فوجد هيبي تعد المعجنات وهي مركزة في عملها لم تنتبه إلى دخوله. كان لديه الوقت ليتأمل الفتاة الطويلة في الثوب الزهري المخطط والمئزر الأبيض، التي تشبه الطاهيات.

كان شعرها داكناً لامعاً يلامس كتفيها، وفمها مكتنزاً. ابتسمت، وهو ببساطة وقع في الحب وقرر أن يغويها. ولم يبدُ أن هذا كان سهلاً فوراً. لبدء الأمر، سأل مونغو أمه بعد العشاء – أفضل عشاء تناوله تحت سقف بيتها على الإطلاق – أسئلة من نوع أين وجدت هذه الطاهية الممتازة. وفوجئ أنها كانت اكتشاف أليسون، مع أنه لم يفاجأ بأنه لم يُخبر بالأمر.

''العزيزة أليسون''، قالت أمه، ''لقد حلت مشكلة كبيرة، التقت ستة أشخاص على الأقل، هذه الفتاة كانت الوحيدة التي تلائم الآنسة تومسون. الآنسة تومسون تخطط لعطل بعيدة في الربيع، الصيف، والخريف. ومن الواضح أن مخططاتها تناسب هيبي. أليسون حلت الكثير من المشكلات. ليس عليها أن تقلق بخصوص مشكلة أخرى بعد الآن''.

لاحظ مونغو تكرار كلمة ”مشكلة“ وتساءل هل كانت أمه تحب أليسون كما تتظاهر.

– ”لذا، كل ما على الآنسة تومسون فعله هو إعداد ترتيباتها الخاصة“.

”أعتقد أن هذا ما ستفعله بكل الأحوال“، قال مونغو.

”نعم، عزيزي“، لم تترك السيدة داف الحديث يعلو أكثر من دوامة سطحية في بركة المحادثة.

– ”من أين تأتي؟“.

– ”لم أسألها. لا أحب أن أكون فضولية“.

– ”هل هناك من زكاها؟“.

”أظن أليسون وجدت أنها كانت على علاقة بطريقة ما مع امرأة كانت تعمل لدى والدك، بمنتهى الاحترام، من الواضح أنها...“.

”من الواضح أنها ماذا؟“، عرف مونغو ما ترددت أمه في قوله. أراد أن يرى هل كانت ستصف هيبي كواحدة منا، سيدة، أو أي من العبارات اللطيفة مثل فتاة لبقة.

– ”حسناً، عزيزي، متعلمة“.

– ”الكثير من الفتيات متعلمات“.

– ”أنت تعلم تماماً ماذا أقصد“.

– ”حتى الخادمات“.

”هي ليست خادمة“، اعترضت السيدة داف.

– ”إذاً، ماذا تكون؟“.

”عزيزي، لا تكن مملاً“، غيرت لوسي داف الموضوع.

خلال اليومين التاليين الذين قضاهما مونغو مع أمه عمل على محاولات متكررة للتحدث إلى هيبي. كانت مؤدبة لكن مشغولة. لم تتناول الطعام مع أمه كما كانت تفعل الآنسة تومسون، وعندما لا تكون في العمل، كانت تختفي في سيارتها. وفشل مونغو في إيجاد عذر لدخول المطبخ. غادر بعد يومين مقرراً إخراجها من ذهنه، لكنها بقيت فيه، وعاد بعد أسبوع ليرى أمه مبرراً زيارته بقضايا تتعلق بضريبة دخلها. لم تنخدع لوسي داف، وتمنت في سرها أن يستمتع. صحيح أنها كانت تستفيد من ميزة تسلط أليسون وكفاءتها، لكنها لم تكن تحبها ولم تكن ترد لها الأفضل. فليحصل مونغو على بعض المتعة.

وجد هيبي تحضر العشاء، اندفع مونغو مباشرة إلى غايته. ”لقد عدت لأطلب منك أن تنامي معي“.

رفعت هيبي نظرها وهي تقلب الصلصة فوق النار، وقالت: ’’لن أنام معك هنا‘‘.

– ’’لم لا؟‘‘.

– ’’ليس في منزل أمك‘‘.

’’لكنك ستفعلين؟‘‘، نظر مونغو إليها محملقاً.

– ’’عندما أغادر المكان هنا يمكننا أن نذهب إلى فندق‘‘.

’’ستفعلين... أوه، يا إلهي!‘‘، شعر مونغو بالابتهاج، لم يصدق أذنيه.

’’سأرى كيف سيكون الأمر ثم...‘‘، قالت هيبي.

– ’’سترين؟ كيف يكون؟‘‘.

’’سأرى‘‘، كانت هيبي صبورة، ’’إن كنت سأحب النوم معك. يمكننا أن نناقش الترتيبات إذا أحببتُ الأمر، وإذا أردت أن تستمر به‘‘.

’’أوه!‘‘، تراجع مونغو بفعل نبرتها الهادئة.

– ’’لا يمكنني أن أفعل الأمر مقابل لا شيء. عليّ أن أكسب عيشي. أنا غالية جداً‘‘.

’’هل أنت عاهرة، إذاً؟‘‘، كان مونغو مرتبكاً منفعلاً.

– ’’أنا طاهية لكن إذا أردت سأمنحك فرصة للمحاولة‘‘.

’’تمنحيني فرصة للمحاولة!‘‘، صاح مونغو.

’’أنت من طلب مني، لست من طلب ذلك منك‘‘، بدت هادئة جداً، عملية جداً.

’’أرجوك‘‘، وضع مونغو ذراعه حولها وحاول أن يشم رقبتها.

’’انتبه لصلصتي‘‘، دفعته بعيداً بمرفقها. رآها تبتسم، ’’سنقضي بضعة أيام مع بعضنا، ونرى كيف يجري الأمر‘‘، قلّبت الصلصة.

– ’’ثم، إذا كنت سعيدة، سنناقش أمر المال‘‘.

– ’’إذا كنت سعيدة؟‘‘.

’’أنت ستكون سعيداً بكل الأحوال. عليّ أن أفكر في نفسي‘‘، هل كانت تسخر منه؟، ’’أنا طاهية غالية جداً‘‘، قالت، ’’والأمر نفسه ينطبق على السرير‘‘.

لم يبخل عليها مونغو أبداً، كل ما فكر فيه كان تكتمها. لم يكن يعلم عنها الآن أكثر مما عرفه حين التقاها أول مرة. لم يكن يعلم من أين تأتي أو أين تذهب عندما يفترقان. لقاؤه بها في إكسيتِر كان الدليل الأول له خلال كل تلك السنوات. لماذا كانت ترتدي نظارات؟ ماذا كانت تفعل في إكسيتِر،

سأل نفسه. كل محاولاته للنوم ذهبت سدى. عرف أنها تطهو في أماكن أخرى، هذا يعني أنه كان لديها عشاق آخرون. تأوّه بغضب وإحباط.

"هلا تتوقف عن إيقاظي. إذا كنت لا تستطيع النوم اذهب إلى الصالة"، وبخته أليسون مؤنبة، "خذ دواء للمعدة".

– "شخيرك هو ما يبقيني يقظاً".

– "أنا لا أنخر".

– "قلت شخير، عاهرة حمقاء".

غادر مونغو السرير غاضباً وذهب إلى غرفة الملابس، هل سيتحمل إيلي شخير أليسون؟ هيبي لا تشخر أبداً ولا تنخر. وهو يحاول الاستقرار في سرير غرفة الملابس. قرر أنه سيحاول مجدداً ابتزاز أمه، لا بد أنها تعرف شيئاً ما عن خلفية هيبي.

٧

عرفت لويزا فوكس صوت هيبي عندما رفعت السماعة: ''هيبي، كم هو لطيف أن أسمع صوتك''.

– ''أتساءل هل تريدين أن آتي في شهر آب. كان لدي موعد وقد تم إلغاؤه، لذا أنا...''.

– ''فكرت أنك يمكن أن تأتي إليّ؟''.

– ''نعم، أنا...''.

كانت لويزا متحمسة: ''في أي يوم ستأتين؟ سيكون هذا ممتعاً''.

– ''هل يناسبك أن آتي بين السابع والحادي والعشرين؟ هل مفكرتك معك؟''.

– ''لا ضرورة لذلك. آب هو شهر أختفي فيه. سنكون بمفردنا''.

– ''أوه، جيد. سأصل في المساء وأحضر عشاءً''.

''سأنتظر ذلك. يمكنك أن تخبريني أخبارك عندما تأتين''. لا، فكرت لويزا فوكس، تلك الفتاة لم يكن لديها أبداً ما تخبره. أدارت التلفاز لتتابع نشرة الأخبار وتساءلت هل ستتصل بلوسي داف. وبينما تفكر في ذلك، انتقل بها مقدم الأخبار عبر كوارث العالم إلى مقدم نشرة الطقس. طلبت رقم لوسي.

– ''لوسي، هل هذه أنت؟ أصغي، الكنز قادمة إليّ في آب. ألست محظوظة؟''.

– ''ظننت أنها لا تأتي إليك أبداً في آب. لا يمكن. ظننت أنّ لديها طفلاً تجلس معه في العطل أو تكون مرتبطة بعمل آخر. لم تأتِ إليّ أبداً في الميلاد أو الفصح... على الآنسة تومسون أن ترتب عطل الربيع والصيف والخريف. كانت هنا في أيار، أمضينا أسبوعين شرهين. هل أستطيع القدوم والبقاء معك؟''.

– ''لا أظن ذلك. سأطلب منها أن تملأ لي المجمدة. هل زارك مونغو عندما كانت لديك؟''.

– ''لا، أليسون قيدته''.

''مقيد حقاً؟''، ضحكت المرأتان.

''كيف لي أن أعلم''، قالت والدة مونغو، ''ماغي تقسم أنها رأت مونغو مع هيبي في لندن''.

– ''هل رأته حقاً؟ أين رأتهما؟''.

– ''يتجولان في حدائق كيو''.

– ''متى كانت لدى ماغي؟ لا تقولي لي ابنها...''.

''أراهن أنه حاول، ولو أنه نجح، لكان العالم كله قد سمع، وذلك لن يكون مناسباً...''.

– '' لن يناسب هيبي، هل مونغو...''.

– ''لا ينبس بكلمة أبداً. لن يتجرأ على قول أي شيء أمامي خوفاً من أن أخطئ سهواً أمام أليسون كأنني سأفعل''.

''كأنك''، ضحكت المرأتان اللتان تفصل بينهما أميال من الأسلاك.

''نحن لسنا مثل ماغي''، قالت لوسي، ''حتى بالنسبة إلى الأخبار غير المهمة، صدقيني ماغي توفر طوابع''.

''ألن يكون أمراً جميلاً أن تتمكن هيبي من القدوم إليك في العطلة؟ سيحب أحفادك طعامها. إذا كانت ستأتي إلي فيّ آب فهذا يعني أنها ليست مرتبطة في العطلة، كما ظننت''، قالت لويزا.

''لن أدعو الوحوش الصغيرة للبقاء''، قالت لوسي، ''ليس قبل أن يكبروا قليلاً بعد''.

– ''بحق السموات، لم لا؟''.

– ''لقد انتزعوا كل الأزرار من كراسيي الفيكتورية. لماذا أحضرهم؟''.

لا بد أن لوسي قد أزعجت الوحوش الصغيرة بطريقة ما.

– ''أليسون مسافرة، اتفقت معها أن ترسلهم ليبقوا مع أصدقاء لهم... مونغو يائس منهم، هو يصيح وهم يضحكون، سترسلهم إلى ناس لا يقبلون التصرفات السيئة''.

''سيكونون أفضل عندما يكبرون''. عبرت لويزا عن رأيها.

''يأمل الشخص هذا''، كانت لوسي مشككة، ''يجب أن نتذكر فاتورة هاتفك''. قالت ملمحة إلى أن لويزا تحدثت طويلاً بما يكفي.

''إلى اللقاء''، قالت لويزا وهي تغلق الهاتف. الغني هو من يذكّر الفرد بفواتيره. سيصبح مونغو غنياً ذات يوم. رأته لويزا محظوظاً إن كان قد أقام علاقة مع هيبي. إنه ماضٍ قديم الآن، وقد يجرح لوسي أن تعرف أنها كانت الخيار الثاني. لقد طلب والد مونغو منها الزواج قبل أن يطلبه من لوسي، ربما ما كان مونغو ليكون موجود أبداً، بما أنها عاقر، وإن كنت محقة، فكرت، فهيبي هي حفيدة كريستوفر، وربما ما كانت لتكون موجودة هي الأخرى أيضاً. كانت لويزا مستغربة من أن لوسي لم تلحظ أبداً الشبه الكبير بين هيبي وكريستوفر روتر، الرسمية، الجدية، النزاهة... هو الذي عرض عليها الزواج قبل وقت طويل وغضب عندما رفضته، فتزوج فتاةً بمثل نزاهته. قررت لوسي بعد أن حسبت التاريخ أن هيبي هي على الأرجح حفيدته، طفلة الابنة التي ماتت في حادثة تحطم الطائرة. وهي تشك في أصل هيبي. امتنعت لويزا عن إخبار صديقتها، لأن لوسي التي تلوم الآخرين على

النميمة، قد تثرثر بالأمر، وهيبي، لأسباب تعرفها جيداً، لم تتحدث عن عائلتها أو أصدقائها، ولا حتى عن برنارد الذي عرف هيبي مصادفة، لأنه كان يعيش في الجزء نفسه من البلدة. لم تفكر لويزا أنه من الضروري أن تعرف هيبي عن صداقتها مع برنارد الذي كان مهتماً بهيبي، ويحبها، عرفت هي ذلك. ستسخر لوسي من أي ارتباط مع كريستوفر روتر وتثرثر بالأمر. عندما نصحت لوسي لويزا بهيبي للعمل طاهية مؤقتة، كانت تعمل آنذاك لدى ماغي كوك – بوفام، وقالت لوسي: ''هي ليست الطاهية الأكثر روعة فقط، وإنما هي سيدة''. مستخدمة التعبير الذي استهجنه مونغو. ولأن هيبي لم تناقش زبائنها أبداً، فقد احترمت لويزا تكتمها، معتقدة أنها تنتقل من عمل إلى آخر. ورغم أنها لمحت مازحةً إلى مونغو أثناء حديثها مع أمه، فإنها لا تصدق أن الأمر صفقة عمل، فهي إذا فكرت في علاقة مونغو وهيبي لا تراها أكثر من قليل من المرح لهيبي ولمونغو المتزوج بأليسون المتسلطة، الذي يستحق المتعة. كان يمكن أن تذهلها معرفة الفروق في ما يدفع للعشيقات وللطاهيات. رحبت لويزا بزيارة هيبي، وهي تنتظر بشوق الأشياء اللذيذة التي تطهوها. شعرت لويزا بغصة حقد وهي تتذكر اليوم الذي اقترحت فيه لوسي أن تجري لها تجربة. كانت لوسي قادرة أن تدفع أجراً دائماً للآنسة تومسون، بينما كانت تكاد لا تقدر أن تتدبر الأجر الباهظ لهيبي مرة أو مرتين في العام. لم تكن منتبهة أن هيبي، التي أحبتها، تتقاضى منها أجراً أقل من لوسي، وأنها تقاضت من ماغي كوك – بوفام، التي لم تكن لا محبوبة ولا موثوقة، مبلغاً أكثر بكثير.

بينما كانت لويزا تتحدث في الهاتف مع لوسي وتتطلع بشوق إلى طبخ هيبي، استمتعت هيبي بالوقت القصير الذي كانت تقضيه مع سيلاس قبل أن يذهب إلى سيلي سعيدة برؤيته يرتاح من نفسية الولد المتوتر العائد من المدرسة، وسعيدة أنه وجد في جيلز صديقاً. رغم أن مشاعرها جرحت في البداية من تخلي سيلاس عنها، فإنها ووجدت نفسها تتطلع باشتياق إلى أسبوعين في ويلتشاير. من الأفضل أن أشغل نفسي عن الجلوس في المنزل والتفكير كيف يمتع نفسه. كان لقاؤها بمونغو في إكسيتِر قد أثار حفيظتها، فقد كان من الممكن أن يجد شيئاً ما يقوده إليها. إذا كانت بعيدة في ويلتشاير فإن هذا يقلل فرص إيجاده لها. كانت تحب لويزا فوكس، تحب منزلها، وتستمتع بالعمل لديها. لكنها غفلت عن الآنسة تومسون، التي كانت تلمح باستياء إلى الفتاة التي تأخذ مكانها والتي تؤمن وجبات خيالية ولا تمانع أن تدعو لوسي أصدقاءها للاستمتاع لديها، وهو شيء لم تكن مستعدة له، فهي تشعر أنها تضحي بنفسها إذا جاء أي شخص لتناول الشراب أو قهوة الصباح أو الشاي لدى لوسي. لقد كانت تخاف من هيبي، مستاءة من أن لوسي تشير إليها بـ''الكنز''، أو بما هو أسوأ، ''سيدتي الطاهية''. وهي تسترق السمع إلى محادثة لوسي مع لويزا عبر وصلة الهاتف الإضافية، شعرت

بالغضب بسبب الغيرة التي كانت تكنها لهيبي. اتقدت فيها موهبة مستترة في إيذاء الآخرين. وبينما كانت تجهز العشاء الذي تتقاسمه مع سيدتها، فكرت الآنسة تومسون في النظرية التي كانت قد استبعدتها حتى الآن وهي أن يتم طلاق غير منطقي بين مونغو وأليسون، حتى يتزوج مونغو بهيبي، فتحل محلها بصورة دائمة أو تتسبب في خسارتها عملها بطريقة خبيثة ما. كانت الآنسة تومسون تدخر الأموال كي تؤمن شقة على الساحل الإسباني عند تقاعدها، ولأنها ذعرت من أي تدخل في مخططاتها، قررت أن تدس عصا في عجلة هيبي بما يبدو بريئاً، فاختارت بطاقة بريدية وجهتها إلى أليسون وكتبت: "عزيزتي السيدة داف، أتمنى منك الاتصال بهيبي روتر، الطاهية المؤقتة، ستكون في عمل لدى السيدة فوكس في ويلتشاير بين السابع والحادي والعشرين من هذا الشهر. الآنسة تومسون، المخلصة".

عندما قرأت هذا، تمنت الآنسة تومسون أن تتساءل أليسون: ما الذي يحدث، وماذا تعني هذه الرسالة من الآنسة تومسون؟ هل هي تحذير؟ ربما تنتبه عند ذلك، وبقليل من الحظ فإنها ستسبب مشكلة لهيبي، لتترك الآنسة تومسون في سلام تكمل ادخارها. قد لا تسبب أي ضرر، فكرت الآنسة تومسون وهي تفتح علبة حساء، لا يمكن معرفة أي شيء تماماً، سوى أنها ستغرس فكرة صغيرة في ذهن أليسون. وضعت البطاقة في صندوق البريد بعد ساعة من مغادرة أليسون إلى الولايات المتحدة. وعندما قرأ مونغو الرسالة، صاح مبتهجاً.

٨

دخلت هيبي إلى بيت إيمي، حيث ترتفع معنوياتها بالمودة. "مرحباً، عزيزتي،" قبّلت إيمي، "لقد أرسلت الصبيين لقضاء يوم عطلة في الخارج، وأعددت لهم بعض الشطائر".

– "في المطر؟".

"لن يهتموا أبداً للمطر. هل رأيت حنة؟".

"ذهبت إلى درس الخطابة". ابتسمت إيمي، "الأسنان، الاسم، والآن يجب أن تتغير طريقة كلامها".

"إذا كان هذا يجعلها سعيدة". جلست هيبي إلى جانب إيمي. نظرت حولها. لاحظت أن ثقالات الورق الذين كانت حنة قد خبأتها قد عادت إلى عتبة النافذة حيث يقع عليهم ضوء الشمس.

"من أين اشتريت هذه الأشياء الجميلة؟"، ضربت هيبي يد السيدة العجوز.

– "أحدهم أعطاني إياها، لم أشترها".

– "آه".

"أصبح لها قيمة الآن، تفهمين ذلك"، كانت إيمي راضية، "أين ستذهبين غداً؟".

– "إلى السيدة فوكس؟ من الأفضل أن أكسب بعض المال، سيكون هذا أفضل من الجلوس مكتئبة خلال غياب سيلاس؟".

– "من سيهتم بتريب؟ هل تريدين أن أطعمها؟".

– "تيري سيطعمها".

"أوه، تيري"، ضحكت إيمي، "ذاك الشاب!".

"أحضرت لك أجرة المنزل"، سلمت هيبي مغلفاً للمرأة العجوز.

أحصت إيمي النقود، "أنت تدفعين سنة مقدماً أو نحو ذلك؟".

– "حصلت على علاوة، خذيها من فضلك".

"ممن؟"، نظرت إيمي إلى هيبي بعينين سوداوين لامعتين، "ليس من ذلك الزنجي؟".

"علاوة من تيري"، ابتسمت هيبي، "هدية وداع".

"تركك؟ حقاً؟"، كانت إيمي فضولية.

– "ما زلنا أصدقاء، إنه ينتقل...".

– ''إنه غريب الأطوار، أليس كذلك؟''.

– ''رائع إلى حد ما...''.

– ''أنت مولعة به، صحيح؟''.

– ''يجعلني أضحك. نقرأ الشعر''.

– ''قلت لي، قصائد حب''.

– ''وغيرها أيضاً. لقد نجح في المستوى المتوسط''.

– ''أنت رسبت في المرة الأخيرة، أليس كذلك؟''.

''أنا رسبت في امتحاني!''، بدت هيبي مهمومة.

– ''استخدمته لإزعاج الرجل العجوز، ألم يكن هذا هدفك؟ ما كان ليتحمل الجمع بين فتى أسود ورسوب في الامتحان''.

''بدأ الأمر بتلك الطريقة''، قالت هيبي بثبات، ''وقد أصبح صديقاً جيداً''.

– ''ماذا يعمل؟ أما زال يعمل في كمائن السرقة؟''.

– ''يعمل في مهن حرة، يعزف منفرداً''.

– ''مثلك''.

''مثلي''، تبادلت هيبي النظر مع إيمي بهدوء وقالت بأسف: ''مثلنا''.

شدت إيمي على يد هيبي. ''أنا لم أتعامل مع الأمر مثلك أبداً. لم أقرأ الشعر وألعب النرد، لم أتحكم بالأمور. أنا لا أعرف كيف تنجحين في ذلك''.

نظرت هيبي إلى بعيد دون أن تجيب.

– ''الفتيات الجميلات مثلك يجب أن يتزوجن، حنة تريد أن تتزوج مرة ثانية''.

– ''طبيب الأسنان الذي يعالجها''.

– ''لكنها تجده مملاً. كان إدوارد كرول مملاً، هي لا تريد أن تكرر خطأها''.

''أوه. هل تعرفين أحداً ما يعرفه؟''، كانت هيبي تشعر بالمفاجأة من ثرثرتهما، ولم تفاجأ عندما لم تجبها إيمي. جلست في غرفة الجلوس الصغيرة في المنزل الذي جعلته إيمي منزلاً لها في وقت أزمتها، ملجأها حتى بعد ولادة سيلاس، إلى أن أجّرت بعد ذلك المنزل الذي يقع في الجهة المقابلة من الشارع.

– ''ماذا كنت لأفعل من دونك، إيمي؟''.

– ''كنت تدبرت أمرك''.

– ”أنت أنقذتنا“.

– ”لا تبالغي. لو لم أكن أنا كان سيكون أحد ما آخر، أنت أوقعت نفسك في هرج ومرج، ذاك كل شيء“.

”هرج ومرج“، ظنت هيبي أن هذا التعبير يقلل من شأن ما حدث، قالت: ”لم يكن هناك أحد آخر، لا، إيمي، أنت أنقذتنا بحق، ثم أرشدتني إلى الطريق الصحيح“.

”قليلون هم الأشخاص الذين يعتبرونه الطريق الصحيح“، ضحكت إيمي باستمتاع.

– ”أنت من عرفني إلى برنارد“.

”الوغد العجوز، كان يمكن أن نتدبر الأمر من دونه“، قالت إيمي بمرارة.

– ”اشترى مني أغراضي، لم يخدعني، ساعدني للعمل في الفندق“.

– ”يا له من عمل، أنا أعترف أنه لم يخدع. لم يكن له الحق في أن يعرّفك إلى هيبولايت ذاك. كان بإمكانك العمل لدى لوسي داف أو لويزا فوكس“.

– ”أنا فعلاً أعمل لديهم“.

– ”ناس محترمون. لقد عملت لديهم عندما كانوا بحاجة إلى سكرتيرة قبل...“.

”جدي“، قالت هيبي بقوة.

– ”ظننت أنك لا تحبين ذكره“.

– ”لا أحب“.

– ”حسناً، إذاً. ما الذي علمك إياه ذاك الطاهي ولم تتعلميه في مدرسة كوردون بلو؟“.

”خبز المعجنات“، تذكرت هيبي هيبولايت، ”أنت تضحكين، تسترخين، تستمتعين، ترتقين، خفيف، طعام كثير، لذيذ، مستعد للمزيد“... ”هو علمني كيف أصنع المعجنات“، قالت مغامرة.

”واو!“، قالت إيمي، التي ما زالت مشككة، ”واو!“.

قالت هيبي محاولة أن تغير الموضوع: ”سأترك السيدة كوك – بوفام، إيمي، أنا لا أحبّ ابنها. أموري جيدة مع السيدة فوكس والسيدة داف والعمل المؤقت الآخر“.

– ”أنا أشك في العمل المؤقت“.

”أنا أستمتع بهم“، قالت هيبي وهي تفكر بسعادة في مونغو وهيبولايت متحسرة على تيري. ”العمل المؤقت هو ما يأتي بالمال كما يجب...“.

”كما يجب أن أعلم، لكن الأعمال المؤقتة لا تدوم“، قالت إيمي بحزن وهي تتذكر في سنها المتقدمة فرح الاستيقاظ في السرير المزدوج في فندق إنكلترا، الضحك، أشعة الشمس المتسربة من

خلال ستائر القطيفة الحمراء، القهوة والكرواسون... ''كلهم لا يدومون''. قالت وهي تذكر بمرارة الرحلة الموحشة إلى لندن، الطبيب الدجال في باترسي، الألم والمعاناة... ''لا يدومون. لذلك السبب، أصبحت سكرتيرة''.

''وعملت لدى عائلات داف وفوكس، ولدى جدي''، قالت هيبي بكآبة. كان بإمكانها أن تتذكر إيمي السكرتيرة. لكن وجدت من الصعب أن تتخيل إيمي في عملها في باريس. من كان الرجل الذي خذلها، تساءلت، وللحظة سمعت في عقلها تلك الأصوات المختلطة تسأل: ''من كان الرجل؟''، و''أجرِ إجهاضاً''.

''هل أعدّ لنا بعض الشاي؟''، نهضت لتقطع الحديث.

''نعم، حبيبتي''، راقبت إيمي هيبي وهي تضع الإبريق على النار وترتب الفناجين. تساءلت للمرة المليون من قد يكون والد سيلاس. قد يخطر في بال أحدهم، لو لم ير الطفل يولد، أن الرجل لم يكن موجوداً أبداً. هي تحكي لي عن عشاقها، فكرت إيمي، لم يكتشف أولئك الجدين، الحمقى، كانا يلقنان الطفل دوماً: ''لا تتمتم''، ''لا تقاطع''، دوماً ''لا''، و''ارفع نفسك''، ''لا تنحنِ''.

عندما سمعت هيبي صوت الإبريق ذهبت لتضع الشاي وهي تفكر: لقد أجرت إيمي إجهاضاً، لو أنها لم تفعل، لكان طفلها أكبر مني، في منتصف العمر. قدمت فنجاناً إلى إيمي.

''أبقيت حياتي محدودة، إنها أفضل بهذا الشكل''، قالت هيبي مبررة، ''التزمت العمل''.

''نعم''، تناولت إيمي الفنجان، ''أفترض أن هذا أفضل''.

''وفرت الكثير من المال''، تابعت هيبي.

''رصيد جيد''، وافقت إيمي.

''أؤمن التعليم لسيلاس، هذا هو المهم''، أضافت هيبي.

''نعم''، عادت أفكار إيمي إلى الوراء، لماذا كنت مذعورة؟ سألت نفسها، صاحت بصوت عالٍ: ''الوغد!''.

''ماذا؟''، أجفلت هيبي.

– ''أحببت وغداً. لم يكن من النوع الذي يتزوج''.

''أظن أن الحب شيءٌ يجب تجنبه، كما تعرفين''، ضحكت إيمي من نبرة صوت هيبي.

''حسناً''، قالت، ''لدي أنت، لدي سيلاس، والآن جيلز وحنة. حنة تؤمن بالحب. لذلك السبب، غيرت اسمها وأسنانها، والآن تتعلم لتتحدث كشخص من الطبقة الراقية. حنة تؤمن بالزواج، لكنها لم

تحصل على chien[16]، ربما في الزواج لا تحتاجين إلى chien“.

16 الكلمة الفرنسية تحمل حرفياً معنى كلب.

– ”ما هو chien؟“.

– ”هو شيء لا يمكن تحديده، نوع من الرائحة، كان يسمى في أيامي الإغراء الجنسي“.

”رائحة!“، تأملت هيبي في الأمر، ”أراهن أنه كان لديك Chien“، تمعنت في وجه إيمي بحثاً عن الفتاة التي محتها السيدة العجوز.

”لم يكن كافياً لاحتجازه“، قالت إيمي، ”أحبَّ واحدة أخرى“.

”في الوقت نفسه؟“، كانت هيبي مصدومة.

– ”من يتحدث، مع مجموعتك“.

– ”لكنني لا أحب، الحب كارثة، أنا مسلية“.

– ”بالتأكيد أنت تسليني. أنا أعيش الحياة عبر الآخرين في هذه الأيام. هل أخذت عنوان سيلاس في الجزر في حال احتجت إليه؟“.

– ”أحضرته لك، تعرف العائلة بعائلة ريفز. يبدو أنهم جيدون“.

– ”بأي طريقة؟“.

”أوه! أنت تعرفين“، أشاحت هيبي نظرها.

”النوع المثالي؟“، جعلت نبرة إيمي هيبي تنفعل.

”نعم، أفترض ذلك“، نهضت مترددة غير راغبة في ترك عالم إيمي المفعم بالصفاء. انحنت لتقبل المرأة العجوز، ”كنت ستكونين زوجة رائعة“.

– ”ليس بالنسبة إليه، بعض الرجال يجب ألا يتزوجوا أبداً. أفهم ذلك الآن“.

تساءلت هيبي كم عانت إيمي لتكسب تلك الحكمة، ”وبعض النساء أيضاً“، قالت، ”ربما أنا واحدة منهن“.

– ”من الطريقة التي ترسمين بها حياتك ربما تكونين كذلك، عملك...“.

– ”الآن، إيمي، لا تبدئي الحديث عن عملي“.

– ”بالتأكيد هذا ليس من شأني“.

– ”حنة ستتزوج جورج سكوب“.

''قد لا تكون حنة عاقلة كما تظنين''، قالت إيمي، ''بالأحرى، أنا لا أتمنى ذلك، طبيب الأسنان ذاك لا يستحق حنة''.

– ''ليس جيداً لها بما يكفي؟''.

– ''ليست مناسبة له''.

– ''يا إلهي! لماذا؟''.

– ''ستعامله كما عاملت إدوارد كرول''.

– ''كيف تعرفين؟''

– ''يجب أن تكوني قديسة لتتحملي الرجال المملين، ومع ذلك فهي هي مصممة على الزواج''.

وقفت هيبي وهي تفكر في حياة حنة البسيطة نسبياً، ''يجب أن أغادر''. قبلت إيمي مودعة.

''إلى اللقاء''، كانت إيمي تقارن نية حنة بالزواج مع نمط حياة هيبي الذي هو في رأيها أقل ضرراً. ضحكت ضحكة خافتة وهي تفكر، إنها تستمتع حقاً. قالت بصوت عالٍ وعيناها تعكسان وميض أشعة الشمس المنعكس عن ثقالات الورق: ''هي تسلي، وتستمتع بالتنوع''. تحدثت إلى ثقالات الورق كأنها كانت إنساناً، ''وتجعل الناس سعداء''. احتفظت إيمي بهذه الأفكار لنفسها دون أن يكون لديها من يشاركها بها.

٩

ليس من طبيعتي أن أثق بإيمي أكثر من الحد الأدنى، فكرت هيبي، وهي ترتب ملابس سيلاس التي سيأخذها معه في رحلته. تساءلت هل هناك شخص ما في مكان ما لن يكون عليها أن تحفظ لسانها أمامه. وضعت ملابس سيلاس على السرير. أخذت ما هو بحاجة منها إلى الكي، ونزلت إلى المطبخ. وضعتها على لوح الكي، وصّلت المكواة بالكهرباء، فكرت في مونغو. وافقت إيمي على مونغو، لكنها كانت تشكك في تيري بوضوح. ألم يكن تيري هو من شجعها على أن تسمي زبائنها بالرابطة، مكتشفاً النكتة في الطعم المريب للكلمة. ولكن هل كانت ستوافق على مونغو لو أنها علمت كم هي بذيئة طريقته في الكلام، وكيف يتباهى بسخافة بحجم عضوه. فكرت هيبي في مونغو بنوع من التسامح، وهي تختبر حرارة المكواة. تحب إيمي في مونغو أنه أخذها إلى ويمبلدون، وأنه يصطحبها لحضور الأفلام والأوبرا... إنه كريم جداً، دوماً يدفع أكثر، ولا يهمهم عندما أهزمه في لعبة الطاولة.

أنا أسعده دوماً، فكرت، وهي تكوي قميص سيلاس، أجعله أكثر مرحاً مع عائلته، وأفضل مع زوجته (عد إلى المنزل وعش حياة طبيعية، لقد حصلت على تغيير لطيف). طوت هيبي القميص، ثم أحضرت بعض أغطية الوسائد، وعصرتها لتجففها من الماء. هي تحب الطبقة التي ينتمي مونغو إليها، فكرت وهي تسوي أغطية الوسائد. كانت تعرف أن هيبولايت ولد مزارعاً، كانت تناديه هيبو. أدعوه هيبو لأعبر له عن إعجابي، هو يستمتع بي، يجدني مسلية. ضغطت المكواة على غطاء الوسادة. يقدم إليّ وجبات مجانية في مطعمه في يوم عطلتي عندما أعمل لدى ماغي كوك – بوفام، يتظاهر أنه لا يعرفني عندما أدخل مطعمه. ضحكت هيبي وهي تتذكر وجه هيبولايت عندما لم تكن بمفردها في إحدى المرات وإنما برفقة زبون محتمل. "نجح بإتقان في جعلي أنفر من الرجل المسكين، لم أكن أخطط لأكثر من مداعبة. كنت أشعر بالملل مع الرجل، تلك كانت كل القصة. من كان؟ ما كان اسمه؟". أجهدت عقلها لتتذكر وهي تطوي أغطية الوسائد. كان هناك عدد من الأعضاء المحتملين حاولوا الانتساب إلى الرابطة، ووجدتهم غير مناسبين. اعتاد جدها أن يقول: "Il y a toujours l'un qui baise et l'autre qui tend la joue"[17]، "حسناً، أيها العجوز، أنا هي التي تقرّب خدّها". أنا أحقق ربحاً جيداً في هذه المهنة التي أوحيت بها لي، وأؤمن التعليم لسيلاس. كانت هناك إخفاقات، اعترفت هيبي لنفسها. كان هناك الرجل الذي أخذها إلى روما في

عطلة نهاية الأسبوع، زدعاها إلى العشاء في مطعم بيتزا نافونا، حيث كان التين مع لحم الخنزير، والريسوتو مدهشاً، زفراولة الجبال، لكنه شرب الكثير جداً من نبيذ سواف[18]، ولم يكن يعلم أن أثره كارثي، فثمل إلى درجة خطيرة، وعاد إلى الفندق متعباً وخارجاً عن السيطرة. لست فخورة بذاك الشخص، فكرت هيبي، وهي تفصل المكواة عن الكهرباء. لقد كان تصرفاً شريراً أن أرمي سرواله، وحذاءه وملابسه الداخلية من النافذة، ولكن ماذا يمكن لفتاة أن تفعل غير ذلك؟ كان علي أن أجد طريقة للهرب. لقد أخبرت هيبولايت عن ذاك الشخص، ''فكان لطفاً كبيراً منه أن دعاني إلى العشاء مع شريكه. لم أخبر إيمي أبداً عنه، لا أستطيع أن أذكر كيف كان شكله''، فكرت وهي تستند إلى لوح الكي. نوع من النمط الإنكليزي العادي. هزت رأسها وهي تتذكر إدوارد الموظف الرئيسي في مكتب المحامي الذي يؤدي أعمال الكي لزوجته أيام السبت، ويحل المشكلات الزوجية للزبائن في خياله. كان فيه شيء يبعث على الشؤم. لم تكن تريد أن يحل لها مشكلاتها. طوت هيبي لوح الكي ووضعته جانباً، ''أبقيهم متحمسين''، قالت لتريب التي أتت تصدر مواء عبر الفتحة السفلية في الباب، ''أحدد لهم الوقت، أسبوعين كحد أقصى، لثلاث مرات في السنة مع مونغو... أربع أو خمس رحلات مع هيبولايت إلى باريس وعملي في الطهو، سنكون بخير. لن أشتاق فعلاً إلى تيري. سيبقى بإمكاني أن أراه. لن يكون بإمكاني توفير الكثير من المال للأيام العصيبة أو لجامعة سيلاس، هذا كل ما في الأمر. هناك فرق كبير''، قالت وهي تحمل الهرة، ''من اكتفائي بثمن مجوهرات أمي والضمان الاجتماعي، ليس ذاك ما فكرت في الاعتماد عليه على الإطلاق!''. ققزت الهرة من بين ذراعيها لتلعق الحليب من الصحن، ''إنها حياة ممتعة''، قالت هيبي للهرة، ''لكنني أتمنى لو أن سيلاس لن يذهب بعيداً''.

17 ''هناك دوماً من يقبّل، وهناك من يقرّب خدّه''.

18 نسبة إلى منطقة Soave في إيطاليا التي تشهر بصناعة النبيذ.

''من هذا الذي تأخذني لأراه؟''، سأل جيلز وهو يجلس في الحافلة قرب سيلاس ويمسح البخار عن النافذة بكمه.

– ''رجل عجوز يعيش في كوخ على بعد أميال من أي مكان. لديه أكثر الأشياء خرافية، إنه عجوز جداً، يدعى برنارد كويجلي. لديه كلب يدعى فيذرز وهرة. إنه صديقي. وجدته عندما كنت أستكشف عبر الريف''.

– ''هل هو قريبك؟''.

''ليس لدي أقارب''. نظر سيلاس من النافذة إلى المناظر التي تعبر قربهما.

– ’’لا بد أن يكون لديك، لدي الكثير من الأقارب في أميركا، وإيمي تكون خالة أمي، كل شخص لديه أقارب‘‘.

– ’’نحن ليس لدينا‘‘.

’’لا بد أن يكون لديك، لماذا ليس لديك؟‘‘، أصر جيلز.

– ’’لا تكن مملاً، ليس لدي أقارب‘‘.

– ’’سل أمك، ألا تخبرك عنهم؟ إيمي تخبرني كل شيء عن أمها وأبيها، ماذا فعلوا وكل شيء‘‘.

’’ممل، سننزل هنا‘‘، سار سيلاس أمام جيلز من الحافلة إلى الموقف قرب كشك الهاتف المهجور عند تقاطع الطريق، كان المطر قد بدأ بالهطول، فارتدى الصبيّان قبعات معطفيهما المطريين، ’’سنذهب عبر هذه الحقول‘‘. تسلق سيلاس بوابة السور ودخل إلى حقل.

– ’’أليس هناك طريق؟‘‘.

– ’’لا‘‘.

سار سيلاس في المقدمة عبر العشب المبلل. تسرب الماء إلى أحذيتهما التي خاضت في الوحل، ’’كان علينا أن ننعل أحذية عالية الساق‘‘.

أصر جيلز، ’’بالتأكيد والدك لديه أقارب؟ ألا تتواصل أمك معهم؟‘‘.

– ’’لا‘‘.

– ’’لماذا؟ ألا تخبرك عنهم؟ أمي تخبرني عن أبي، هي تريدني أن أنفر منه‘‘.

’’سنتسلق هذا‘‘، قفز سيلاس إلى كومة وزحف فوقها، لينزل ضمن حقل من اللفت. تبعه جيلز. شق سيلاس طريقه بجهد، لأن نباتات اللفت الطويلة احتكت بكتفيه، ’’بالتأكيد‘‘، استمر جيلز في الإزعاج، ’’لقد أخبرتك عن أبيك‘‘.

’’لا شيء، قلت لك‘‘، ترك سيلاس نباتات اللفت تعود إلى الوراء بقوة لتضرب وجه جيلز.

’’ولكن عندما تسأل؟‘‘، مسح جيلز وجهه.

’’لا أسأل. هي لا تتحدث في الموضوع أبداً، لذا هو ليس موجود؟‘‘، اندفع سيلاس عبر حقل اللفت.

– ’’ربما تكون قد ولدت في أنبوب اختبار مثل أولئك الأطفال في أستراليا‘‘.

– ’’لم يكن بمقدورهم فعل ذلك قبل اثني عشر عاماً‘‘.

– ’’ربما فعلوا. ماذا يمكن أن تكون غير ذلك؟‘‘.

– ’’ابن لقاتل، تلقيح صناعي؟‘‘.

– ''عميل سري، يحمل اسم شخص من نوع ما، نجم شعبي''.

''لو كنت كذلك، كنت لأحصل على إعالة كما الحال مع أمك''، علق سيلاس.

– ''ذاك ممل، أيضاً. أمي تستمر وتستمر في الحديث عن أبي، سأهرب في يوم ما وأذهب لأعيش معه في أميركا''.

''ستفعل ذلك، ها هو فيذرز''، انحنى سيلاس ليحيي الكلب الكبير المبلل الذي ظهر خارجاً من الضباب الرقيق الذي يلف المنطقة، ''لدينا شطائر لحم، أنت تحب اللحم''. وثب فيذرز إلى الأمام والخلف فرحاً ولعق وجه سيلاس. كان لديه أذنان كبيرتان مع خصلات من الشعر على الأطراف، وكان يلوح بذيله الريشي الطويل، ما جعل قطرات المطر تتناثر على جانبي جسمه البني الذي كان بلون الشوكولاتة.

''هذا جيلز''، قال سيلاس للكلب.

ربت جيلز على ظهر الكلب، ثم تبع سيلاس نحو مجموعة من الأشجار المنحنية جانباً بفعل الرياح الجنوبية الغربية السائدة. من بين الأشجار شاهدا سحابة دخان. ''إنه في الداخل''. هرول سيلاس إلى الجدار وبدأ التسلق واضعاً قدميه بعناية بين الحجارة، فتبعه جيلز. نادى سيلاس عالياً بصوته الطفولي: ''سيد كويجلي، سيد كويجلي، هل أنت هناك؟''.

وقف برنارد كويجلي في شرفته، ''لا أتوقع زواراً في يوم كهذا، تعالا وجففا نفسيكما قرب النار''.

– ''ظننت فقط أنه يمكننا أن نزورك؟ هذا جيلز كرول. أنا ذاهب في الغد إلى سيلي لثلاثة أسابيع''.

''ما رأي أمك في هذا؟''، تمعن برنارد في وجه سيلاس.

– ''هي سعيدة لأجلي، لأني سأبحر. ستذهب للعمل لأسبوعين''.

''أين؟''، تحرك الرجل العجوز بتشنج في أرجاء غرفة جلوسه الصغيرة دافعاً الصبيين إلى الاقتراب من النار. أخرج أكواباً من الخزانة، وزجاجة خمر.

– ''إلى سيدة عجوز ما تدعى فوكس''.

''فوكس''، نظر الرجل العجوز بسرعة إلى الصبي، ''ابقيا قرب النار، لا تدعا الكلب يتجول في الغرفة، هو أيضاً مبلل. تناولا الشراب، أيها الصبيان العزيزان. لن تسبب كأس من الشراب الأذى لكما. أنتما كبيران كفاية، في الحادية عشرة، أليس كذلك؟''.

''اثنا عشر''، قال سيلاس وهو يقرب يديه من النار.

– ''حسناً إذاً، تناولاه''.

تذوق الصبيّان الخمر وهما يحاولان أن يخفيا إحساسهما بسوء طعمه.

''ستحبانه عندما تكبران''، راقبهما العجوز وهما يشربان، أفرغ كأسه بجرعة واحدة، وأعاد ملأه بسرعة. كان جيلز مسحوراً ببرنارد كويجلي، الذي كان صغيراً، محدودب الظهر وعجوزاً، ووجهه مليء بالتجاعيد، ما جعل ملامحه الأصلية تضيع. أنفه الذي كان في يوم ما ذا انحناءة أرستقراطية، يبرز بوضوح فوق فم رقيق الشفاه، ما جعل العينين ذات الأجفان الكبيرة تبدو غير متناسبة مع الوجه، وشعره يتطاير كزغب حول رقبته. وهو يرتدي سروالاً بنيّاً، وقميصاً بلا ياقة، وقد تدلت حمالات السروال على الجانبين فوق ساقيه المنكمشتين ليبدو كسارج خيول عجوز جداً ينتظر من يشتري منه خيوله. شاربه غير المنتظم كان عليه بقايا من العطّاس.

''كنت أعرف والدك''، قال لجيلز، ''إدوارد كرول''.

''حقاً، هل كنت تعرفه؟''، كان جيلز قد بدأ يجف، وتحرك بعيداً عن النار، ''متى؟''.

''عندما كان في الجامعة''، تناول الرجل العجوز علبة العطاس من جيب صدريته، وقال: ''إدوارد كرول ممل جداً، ممل، ممل. أرسلوه إلى أميركا''.

''من فعل؟''، لم يكن جيلز معتاداً الفظاظة من الكبار.

''أصدقاؤه''، تفحص برنارد كويجلي وجه جيلز باحثاً عن شبه مع أبيه، ''لكنك لا تبدو مثله''، قال، وأضاف بعد قليل: ''لحسن الحظ''.

''أظن أنه يفترض أنه كان وسيماً''، قال جيلز مدافعاً.

''أعترف لك بذلك''، كان برنارد كويجلي يمقت الوسيمين، ''كان وسيماً لا بأس، لكن ما فائدة ذلك في الظلام، سل أمك؟''.

– ''في الظلام؟''.

– ''في السرير، صغيري العزيز، ربما أنت لا تعلم عن السرير بعد. هل ارتكبت خطأً ما؟''.

''ماذا؟''، عاد جيلز إلى الاقتراب من النار.

''لم يتغير صوتك، لا تهتم. فكر بما ينتظرك، كل ذلك الجماع الرائع''، نظر إلى جيلز متأملاً. صار جيلز وردياً.

''إنه صندوق عطاس جميل''، حاول سيلاس الذي شعر بالقلق على صديقه أن يجذب انتباه برنارد.

''يعود إلى عهد جورج الثاني، كان لجدي''، قدم العجوز الصندوق نحو سيلاس وسحبه قبل أن يتمكن هذا الأخير من لمسه، ''سأريك أغراضي بعد أن نتناول الغداء، لدي الكثير من الطعام في

المنزل''.

''هل يمكنني أن أساعد؟''، اقترح سيلاس.

''لا، لا، جفف نفسك وأعط شطائرك التي أعطتك إياها أمك الفاتنة إلى الكلب''.

ألقى سيلاس الشطائر لفيذرز الذي شمها بفضول حذر قبل أن يبدأ التهامها بطريقة بدت أنها من حسن السلوك أكثر منها ناتجة عن الجوع.

جال جيلز بنظره في أرجاء الغرفة. كان هناك كراسٍ ذات ظهر طويل، وطاولات خاصة بالمناسبات موضوعة فوق بعضها بعضاً محملة بالخزف والفضة والأحجار الكريمة. وفوق كل المساحات الخالية من الجدران علقت لوحات إضافة إلى المرايا التي عكست ضوء النار. كان هناك فراغ يكاد لا يتسع لقنديل زيت فوق المنضدة التي بجانب كرسي الرجل العجوز، وعدة شمعدانات موضوعة على الأرض عليها دهن الشموع.

كان بإمكان الصبيين أن يسمعا صوت برنارد عبر الصالة وهو يتحرك في الأنحاء. ''هل تظن أنه يحب العطاس أو أنه يحب فقط أن يحمل صندوق العطاس ذاك؟''، همس جيلز برهبة.

''علي أن أظن أنه جعل نفسه مثله، لأنه يحب هذه الأشياء''، سكب سيلاس محتويات كأسه على السجادة.

''ألن يشم رائحتها؟''، لم يكن جيلز مرتاحاً وهو يقلد صديقه.

''ستخفيها رائحة الشمع''. راقب سيلاس فيذرز، فهو يشم البقعة الرطبة ثم يعود ليكمل طعامه.

''لم أعرف أبداً أن أبي كان مملاً''، قال جيلز وهو يفكر في إساءة برنارد، ''قالت أمي الكثير من الأشياء، لكنها لم تقل أبداً إنه كان مملاً''.

''تنفّرك من أميركا، أليس كذلك؟''، سأل سيلاس بحقد ممتع.

''تعالا إلى الغداء''، نادى برنارد، فانضم سيلاس وجيلز إليه في غرفة الطعام التي كانت مزدحمة مثل غرفة الجلوس. كانت بعض الكراسي مكدسة جانباً، ما يعطي الغرفة مظهراً يجعلها تبدو كحجرة بيع. وضع برنارد ثلاثة صحون فوق المائدة. نظر جيلز إلى الفضة والزجاج المحفور. ''هل كل هذه الأشياء قيّمة؟''، صاح متعجباً.

– ''عليك ألا تسأل عن قيمة الأشياء، بل أن تعجب بجمالها، بندرتها، بحرفيتها''.

'' آسف''، شعر جيلز بالخجل.

– ''سوف تتعلم، تناول طعامك الآن، الطعام لذيذ، ليس كالمادة التي وضعتها هيبي في شطائركما''.

"ايه... لحم رائع!"، هتف سيلاس بينما كان برنارد وقف مستعداً لتقطيع اللحم. "أُرسل إلي بالبريد"، قطع العجوز اللحم بسرعة، "أرسلته صديقة لي من ويلتشاير، إنه معالج بطريقة خاصا، وهو مقتطع من ردف الخنزير اليميني الذي يكون أكثر طراوة من الردف اليساري".

"كيف يصل ساعي البريد إلى هنا؟ ليس هناك طريق"، تناول جيلز طبق اللحم، وهو يتساءل في سره عن ردف الخنزير.

"للرجل قدمين، يمشي"، الصبي مثل أبيه، فكر برنارد.

"كيفما كان حال الطقس"، قال جيلز بإصرار.

– "بالطبع هو يمشي، أنا أستلم قهوتي بالبريد كذلك عصائر الفاكهة، جبن ستيلتون، كل تلك الأشياء التي تهمني. هل تريدان بعض السلطة، اجعلا أحشاءكما تعمل".

"إنها تعمل، شكراً لك"، تناول سيلاس الخس، "أمي طاهية ماهرة".

– "هل تصاب بالإمساك في المدرسة؟".

"أحياناً"، أجاب سيلاس بحزن.

سأل جيلز الذي كان مرتبكاً من سير الحديث: "ألم يكن لديك طريق أبداً؟".

"بالطبع كان هناك طريق"، كان برنارد كويجلي ساحقاً وهو ينظر إلى جيلز نظرة حادة، يتساءل هل سيحب هذا الصبي الجالس هناك، الذي يبدو شاباً وبصحة جيدة بخلافه، هو المنكمش المتقلص جداً والذي صارت حياته خلفه.

"ماذا حدث له؟"، شعر جيلز أنه مضطر أن يسأل.

– "تركت العشب ينمو فوقه، فربما استخدمه الناس، وجاؤوا لزيارتي".

"نحن نزورك"، قال سيلاس مبتسماً.

– "لكنكم واجهتم مشكلة القفز فوق بعض الأكوام، بللتما نفسيكما. أمك تأتي".

"لا أعرف"، نظر سيلاس بدهشة، "ظننت أنك تعرفني فقط".

– "أعرف الكثير من الناس، أبقيهم بعيدين، هذا كل ما في الأمر. أمك تحب ذلك، فهذا يجعل الحياة أسهل".

"كيف؟"، كان فم جيلز مليئاً باللحم، انتبه برنارد إلى ذلك. تلك علامة سيئة؛ بالتأكيد تبقى آداب الطعام مهمة.

– "لا يناقشون أمورك من وراء ظهرك إذا كنت تبقيهم بعيدين. والدة سيلاس تجد أن الحياة تدار أسهل هكذا، الناس الآخرون مثل والدك إدوارد كرول اجتماعيون. تناولا بعض التين مع العصير أو

الجبن، يمكنكما تناول الاثنين بالطبع''.

تابعوا تناول الطعام في ما يشبه الصمت. كان جيلز قلقاً، وسيلاس يشعر بالرضا. نظر جيلز حوله وهو يتناول الطعام. ''ليس لديك كهرباء''، قال ملاحظاً.

''صحيح، لا كهرباء، ماء من النبع، لا صرف صحي، لا طريق، أي تساؤلات أخرى؟''، نظر برنارد إلى جيلز بعدائية.

''لم يكن يسأل تماماً''، شعر سيلاس أن برنارد كان سيستمر في إزعاج صديقه، ''أحب منزلك كما هو''، قال سيلاس.

''أكيد؟''، نظر الرجل العجوز نظرة شك.

– ''أكيد تماماً''.

''إذاً، سأريك بعض كنوزي، اجلس قرب النار''. سار برنارد أولاً إلى غرفة الجلوس وحمالات سرواله تتأرجح على الجانبين. ''حمالات سروالك متدلية''، قال جيلز بخجل هذه المرة. ''هذا مريح أكثر''، رد الرجل العجوز على نحو غامض وهو يفتح درجاً في مكتب، ''يمكنكما أن تلقيا نظرة على هذه الأشياء بينما أرتاح قليلاً''. أعطى صندوقاً لسيلاس، ثم ارتاح في كرسيه وغفا.

تفحص الصبيّان الجاثمان أمام النار الخواتم، ساعات اليد، عملات قديمة، دبابيس للزينة من الألماس، مجموعة زمرد كبيرة مع قطع من الألماس، ميداليات، صندوق باترسي مغطى بنسيج رقيق، وأساور مرصعة بالمجوهرات.

''لا بد أنها تستحق ثروة''، همس جيلز، ''هذه الميداليات وحدها''.

استيقظ برنارد كويجلي وراقب الطفلين. استراح جيلز على كعبيه وحدق في مضيفه. ''من أين أتى كل هذا؟''. أشار بيديه إلى الغرفة.

– ''عملي. أنا أعيش في مصرفي''.

اتسعت عينا جيلز: ''لص؟''.

''بالتأكيد لا، أنا تاجر. أنت تبدو جميلاً جداً''، ابتسم برنارد وهو يخاطب سيلاس، مظهراً أسناناً صفراء، ومعجباً بالطفل الذي ارتدى الخواتم في أصابعه والأساور حول معصميه. ''انتظر لحظة''، قال وهو يقفز من كرسيه، ''لدي عمامة في درج المطبخ''. غادر الغرفة.

''ماذا قال''، نظر جيلز إلى صديقه.

''عمامة''، قال سيلاس.

''ما هي العمامة؟''، سأل جيلز باستغراب.

عاد الرجل العجوز يحمل كيساً بلاستيكياً تناول منه العمامة ووضعها على رأس سيلاس. ''ابق ساكناً وإلا ستسقط''. كان سيلاس يجلس القرفصاء قرب النار وينظر إلى الرجل العجوز، وقطع الزمرد والألماس تبرق بفعل وهج النار. شهق جيلز: ''جميل''. انتزع العجوز العمامة عن رأس سيلاس وأعادها إلى كيسها. ''الآن''، قال بنبرة عملية، ''هلّا تقطعان لي بعض الأخشاب قبل أن تذهبا؟ ضعاها في الزريبة''.

''بالطبع''. نهض سيلاس. نزع الخواتم والأساور وأعادها إلى الصندوق الذي وضعه على ركبة برنارد كويجلي. ''شكراً لك''، تبادل الصبي والعجوز النظرات، فشعر جيلز أنه مستبعد.

''أسرعا إلى المنزل عندما تقطعان الأخشاب. تعالا لرؤيتي مرة ثانية''، شعر جيلز أن الدعوة لم تكن موجهة إليه.

''شكراً لك على الغداء''، قال، ثم أضاف غير قادر على كبت فضوله: ''كيف كان أبي مملاً؟''.

''كان يتحدث عن المال، كان محترماً، تقليدياً''، أطلق العجوز الصفات كوابل، ثم انتبه إلى وجه جيلز المحزون، فتابع بقليلٍ من اللين: ''وسيلة الإلقاح المختلط لم تؤذك''. قاد الصبيّين إلى الباب ودفعهما خارجاً تحت المطر، وأغلق الباب خلفهما.

''هيا، قطّع، قطّع''، سار سيلاس أمامه إلى كومة الخشب وبدأ تقطيعه مكوماً القطع بشكل مرتب. ساعده جيلز مقطب الحاجبين. عندما أنهيا العمل، عبرا الحقول باتجاه موقف الحافلات.

''إذا كان أبي مملاً''، قال جيلز وصدره يغلي غضباً من الوصف القاسي، ''فماذا عن أبيك؟''.

''غامض''، أجاب سيلاس باختصار.

– ''هل تقصد أنك لا تعرف حقاً؟''.

استدار سيلاس نحو رفيقه وضربه على أنفه. جلس جيلز، الذي أخذ على حين غرة، أرضاً مبللة أكثر من ذي قبل، وعيناه دامعتان.

''هناك حافلة''، بدأ سيلاس يركض، فنهض جيلز وتبعه.

''ربما أنت متبنّى''، صرخ جيلز وهو يركض. امتزج ماء المطر بالدم الذي سال من أنفه. ''أظن أنك كنت حقيراً فعلاً''، صاح وهو يلحق بسيلاس صاعداً الحافلة. شق سيلاس طريقه نحو الأمام وجلس في مقعد إلى جانب سائح فلم يكن هناك مكان لجيلز الذي وقف في الممر المزدحم بهيئة تثير الشفقة، محتكاً بالغرباء. لكن كانت هناك امرأة انتبهت إلى المأزق الذي هو فيه فأعطته منديلاً مسح به أنفه.

عندما وصلا إلى البلدة، سارا في الشارع باتجاهين متعاكسين. وعندما وصل سيلاس إلى باب بيته، صرخ جيلز عالياً: ''أراك عندما تعود''، بنبرة استفهامية.

رد سيلاس بدفء: ''بالطبع''، ودخل المنزل.

وجد جيلز نفسه لا يزال ممسكاً بالمنديل الملطخ بالدماء فرماه إلى جنب الطريق.

''بقة فضلات[19]''، عاد سيلاس ليظهر ثانية كأنه يريد أن يقول شيئاً. وقف في الممر مبتسماً ثم هز كتفيه مغيراً رأيه ودخل ثانية.

19 Litter bug: كلمة تقال لمن يرمي الأوساخ على الأرض في الأماكن العامة.

توقف المطر في وقت متأخر من المساء. خرج برنارد كويجلي يتبعه فيذرز وشق طريقه عبر الحقول متجهاً إلى كشك الهاتف. عندما أجابت لويزا على الهاتف، كانت تلهث مقطوعة الأنفاس: ''مرحباً''.

''هل أنت بخير؟''، تحدث برنارد متلهفاً، ''هل لديك مشكلة مع قلبك؟''.

– ''كنت في الحديقة ودخلت مسرعة، هناك الكثير من العمل لفعله. لماذا تتصل؟ هل هناك شيء؟ هل أنت بخير؟''.

''كان ابن هيبي هنا اليوم، أخبرني أنها ذاهبة إليك''، تحدث برنارد بهدوء.

– ''نعم. قالت إنه كان لديها التزام ما وقد ألغي، مهما كان ما تقصده''.

''الصبي ذاهب في زيارة إلى سيلي لثلاثة أسابيع برفقة أصدقاء من المدرسة''.

– ''هذا يفسر الأمر، لقد تعجبت فعلاً''.

– ''هل يمكنك أن تدفعي لها؟''.

''لا، ليس تماماً''.

– ''تريدين بعض المال؟''.

– ''نعم، أفترض ذلك. لم أفكر في الأمر، لم أتحقق من الأمر. عرضت أن تأتي وكنت مسرورة جداً بذلك. أنا...''.

– ''سأرتب الأمر''.

– ''برنارد، هل علي أن أفعل؟''.

''لا تكوني سخيفة. ما الهدف من الاحتفاظ بأشياء لابن أخيك ذاك؟ هو لن يتزوج أبداً، كما أخبرتني. متى رأيته آخر مرة؟''.

– ''منذ أسابيع. هو لا يدخل دوماً إلى المنزل، إنه خجول. يأتي ليصطاد في أوقات المساء''.

''سأرسل إليك بعض المال''، استمع برنارد إلى اعتراض لويزا الصغير.

''انتظري، عليّ أن أضع نقوداً''، أدخل برنارد النقود، ''هل ما زلت هناك، لويزا؟''.

– ''نعم، أنا هنا''.

– ''عليك أن تدفعي لها أكثر، لوسي داف تدفع أجراً أعلى بكثير''.

''أوه، عزيزي''، اعترضت لويزا، ''كم هذا مخجل؟''.

– ''الفتاة تحبك لذلك فهي تأخذ منك أجراً أقل مما تأخذه من لوسي''.

''إنها تطبخ بصورة رائعة، تساعدني في الحديقة، أنا لا أستقبل ضيوفاً''، قالت لويزا مبررة.

''سأرسل المال باليد، ستحصلين عليه خلال بضعة أيام''، قال برنارد.

''شكراً لك، هل علي أن أرسل إليك أشياء أكثر؟''، سألت لويزا.

– ''لا، لا تزعجي نفسك''.

''صوتك لم يتغير''، قالت لويزا بصوت دافئ.

– ''لكن كل ما تبقى فيّ تغير. تصبحين على خير، عزيزتي، عودي إلى حديقتك''.

أقفل برنارد الخط. كشك الهاتف يفوح برائحة التبغ والبول. كم هو مقزز الجنس البشري، فكر برنارد، وهو يضع النقود ويطلب رقماً جديداً. صار صوت لويزا عجوزاً. منذ أربعين عاماً مضت كان فيه إيقاع. ''هذا أنت، جيم؟''، أكد الصوت على الطرف الثاني من الخط أنه جيم. ''اسمع، أريدك أن تبيع بعض الأشياء من أجلي. هل علي أن أرسلها إليك أو تأتي لأخذها؟''.

''أنا قادم إلى مكان قريب منك، سآخذهم. هناك شخص أريد أن أراه قريباً منك''، قال جيم.

''حسناً، أريد منك أثناء ذلك أن تسلّم خمسمئة جنيه للويزا فوكس. هذا عنوانها''، أعطاه برنارد عنوان البيت والقرية والبلدة. ''هل دونته؟''.

– ''نعم، حسناً. أراك قريباً''.

– ''هل تشتري أو تبيع من هذا الشخص الذي تريد أن تراه؟''.

''لا أعرف بعد''، قال جيم هوكستابل. ''هو مجرد حدسٍ أتبعه''.

عاد برنارد إلى كوخه يتبعه فيذرز، الذي كان يقفز رافعاً ذيله. بينما كان يسير، كان يفكر في الحب بمفاهيمه المختلفة. على الأرجح أنه يحب لويزا كما أحبها قبل أربعين عاماً، عندما كان يلتقيان سراً ليمارسا الحب ثم يفترقان. الآن ليس هناك شعور بالإثم، لا ألم. لم يلتقيا منذ ثلاثين عاماً، قد يحرجهما أن يفعلا ذلك الآن. عندما وصل إلى باب منزله، تساءل ماذا يمكن أن يكون حدس جيم.

توقف قليلاً في الشرفة لينظر إلى غروب الشمس في نهايته. تذكر سيلاس في العمامة، من يشبه هذا الصبي؟ لعن ذاكرته التي تخونه. عندما دخل بحث متحسساً عن أعواد ثقاب لإشعال القنديل. ألقى نظرة إلى صورته في إحدى المرايا. قبل أربعين عاماً مضت، بين ذراعي لويزا، فكر، كنت ألبس قناع الشباب. ربما يكون هذا هو أنا الحقيقي. ما زلت نحيلاً، فكر، وهو يتذكر اللحظة التي دخلت فيها خادمتها على نحو غير متوقع لتحمل لها رسالة، وكيف استلقى بشكل مستوٍ تحت أغطية السرير حتى غادرت الخادمة الغرفة. تذكر برنارد ضحكهما الذي قاد إلى ممارسة الحب من جديد. علاقات الحب اليوم أكثر سهولة، فكر، وهو يضع عود الثقاب على الفتيل مثبتاً اللهب لكنها أقل إثارة. من بين الجميع، اليوم لوسي داف هي الوحيدة التي لم يكن لديها أبداً علاقة تخفيها، نادراً ما تهمل هذه الميزة ولا تبالغ بالاستمتاع بها كما تفعل على الدوام.

تمدد جيلز في سريره في المنزل الذي أعادت حنّة ترتيبه، في الوقت الذي كان فيه جورج سكوب يعيد ترتيب أسنانها، حيث جعلت الغرف مفتوحة على بعضها بعضاً في تصميم مفتوح. فكر جيلز في سيلاس وفي أنه سيذهب في الغد إلى أصدقاء آخرين، وأن الأصدقاء لديهم آباء، وعلى الأرجح، فإن آباءهم سيكونون معهم. تذكر جيلز بالضبط أن سيلاس قال إن والد مايكل قد عرض أن يقله من المدرسة إلى كرونول بسيارته. وبينما هو يفكر في والد سيلاس، استحوذ عليه الإلهام. قفز من السرير ونزل الدرج على رؤوس أصابعه، كتب ملاحظة لسيلاس.

– "ربما تكون أمك هيرمافروديت[20]".

20 خنثى.

فتح الباب وخرج متسللاً، وأسرع عبر الشارع في ثياب النوم ليدس الملاحظة في صندوق بريد هيبي.

عادت هيبي إلى سيارتها بعدما شاهدت المروحية تقلع بسيلاس وانطلق نحو ويلتشاير. سيبعدها سيلاس عن أفكاره إلى حين عودته إلى المنزل.

لن تتمكن أبداً من معرفة ما الذي يدور في عقله. فكرت في نفسها، أحبه لكنني نادراً ما أعرف بماذا يفكر. تمنت لو أنها كانت تملك تلك العلاقة السهلة التي تملكها بعض النسوة مع أطفالهن. لم تزعج حنة نفسها أبداً في ما يتعلق بما تقوله لجيلز. في الأمس، حدث شجار لأن جيلز قال إن أحداً ما أخبره أن أباه كان مملاً، فصرخت حنة: ''هو كل أنواع الأشياء التي لا أحبها لكنه ليس مملاً. هل يمكنك أن تتخيلني متزوجة برجل ممل؟''. إنكارها جعل الأمر واضحاً: لقد كان الكلام صحيحاً. لقد رأت حنة هذا الكلام إهانة لذكائها، وسيلاس، الذي كان يسمع ويشاهد لم يسأل، كما قد يفعل الفتية الآخرون. ''هل كان أبي مملاً؟''، لم يكن هناك أب لمقارنته على نحو كريه.

عندما تغضب حنة من جيلز، غالباً ما تقول: ''جيلز، أنت مثل أبيك تماماً''. عليّ أن أبتكر واحداً، فكرت هيبي وهي تقود السيارة متجهة إلى منزل السيدة فوكس، إلى منزلها الأنيق وحديقتها الجميلة، لكن الوقت تأخر جداً الآن. ركزت أفكارها على السيدة فوكس وعلى الوجبات التي ستعدها خلال الأسبوعين المقبلين.

توقفت في ساليسبري لتحصل على بعض الراحة. ركنت السيارة وتجولت في الطريق تنظر إلى المنازل الجميلة، وهي تتساءل أي نوع من الناس من يستحق هذا المحيط المميز؟ هل كانوا أناساً صالحين بصورة استثنائية أم أنهم أغنياء جداً فقط؟ سارت فوق العشب متجهة إلى الكاتدرائية لتجلس وترتاح قليلاً قبل أن تكمل الجزء الأخير من رحلتها. استاءت من أنه كان عليها أن تدفع رسماً لتدخل. جعلها هذا تشعر أن المناخ بات دنيوياً. وبسبب تأثرها بالدنيوية، تناولت ورقة وقلم حبر من حقيبتها وكتبت: هيبولايت، مونغو، تيري، لويزا، لوسي، ماغي. شطبت تيري وماغي. تمثل المجموع بلائحة الزبائن الذين يغطون القسم الأكبر من تكاليف تعليم سيلاس. لا حاجة في هذه الأيام إلى المساعدة من إيمي، ولا إلى قبول المساعدة التي يعرضها برنارد على نحو متكرر. تركت عقلها يفكر في برنارد وهي تشعر بالامتنان لأنها يمكنها أن تحبه دون مقابل. من الآن فصاعداً، ستكون حرة من الارتباط المالي بتيري، كما يمكن شطب ماغي كوك – بوفام.

في طريق عودتها إلى سيارتها، رأت متجراً للقبعات، فوقفت لتلقي نظرة. أخبرتها لوسي داف ذات مرة أنها عندما كانت شابة، كانت إذا شعرت بالاكتئاب، اشترت لنفسها قبعة لتروح عن نفسها. دواء ناجع للاكتئاب نصحتها به والدة مونغو. سأجرب ذلك. فكرت هيبي مداعبة نفسها، ودخلت المتجر. وإذا وجدت الأمر مغرياً، ربما تنفق بعض المال الذي تركه لها تيري.

عندما رآها صاحب المتجر، شعر برعشة في قلبه اليائس. أي رأسٍ هذا الذي يبحث عن زينة؟ وضع جانباً مجلة **نيو ستاتسمان** ونهض من كرسيه.

''هل يمكنني أن ألقي نظرة؟''، رأت هيبي شاباً غير متناسق الهيئة، ساقان قصيرتان، ظهر مائل إلى الخلف عند الوركين، يدان كبيرتان في نهاية ذراعين طويلتين، شعر خفيف في المقدمة ومجعد في مؤخرة الرأس، عينان بندقيتان موضوعتان في وجه يشبه وجه الأرنب البري مع شفة علوية مسننة.

''من فضلك، ألقِ نظرة، نعم، انظري...''، عاد خطوة إلى الخلف، مسقطاً سلة المهملات، ومسبباً سقوط المجلة عن المكتب، ''هل تقرئين هذه المجلة؟''، التقط المجلة وهو يأمل في فتح محادثة.

''ليس غالباً''، أشاحت هيبي بنظرها. بدا الشاب متوتراً. تفحصت هيبي القبعات. رأت عند النظرة الأولى قبعات احتفالية محافظة مخيبة للأمل أو رسمية محافظة، وفق الموسم الذي أعدت له. عندما عادت بنظرة ثانية، لمحت قبعة حمراء مع شريط عريض على الحافة فتناولتها.

''أخشى أن هذه ليست...''، تحرك صاحب المتجر إلى الأمام بقلق، ''إنها فقط...''. بدا غير قادرٍ على إنهاء جمله. ''لكن إذا أنت...''.

ارتدت هيبي القبعة وتفحصت نفسها في المرآة.

''تبدين رائعة في... بالطبع إذا أحببت أن... أقصد أنها ليست للبيع لأنها...''، تحدث بالطريقة التي تصفها لوسي داف بأنها طريقة سيد مؤدب، ما يقولونه ''هم'' عن خريجي المدرسة الخاصة، مع أن لفظ الحروف الصوتية لخريجي المدارس الخاصة لم يكن أبداً مثل ''لفظهم''. عكست المرآة صورة الناس الذين يعبرون الشارع. وحين رفعت هيبي يديها لتميل القبعة فوق رأسها قليلاً، جمدت، فلا بد أنها تذكرت شيئاً، ''يجب أن تلبس بطريقة مستقيمة''. نطق الشاب الجملة كاملةً. ''لقد كانت لعمة أبي، اشترتها عام ١٩٣٩ عند اندلاع الثورة''.

لكن هيبي كانت تسمع ''متسكع ذو شعر طويل،'' ''أقدام قذرة''، ''شيوعي''، ''سيئة''، ''عاهرة''، ''إجهاض''، ''أسود''، ''من؟''، ''من؟''... تابعتهم عيناها وهما يعبران الشارع: عرجه المألوف

نفسه، حقيبتها التي تحملها فوق ذراعها اليسرى، كان معهما كلب من نوع اللابرادور، أصغر من القديم، انهارت ساقاها وجلست على الأرض.

''أقول، لحظة فقط، سوف...''، بدأ صاحب المتجر يلوح بالمجلة أمام وجهها، ''هنا، دعيني..،''، ساعدها لتنهض، ''اجلسي فقط...''. قدم إليها كرسياً، ''نصف دقـ... لدي...''.

وضعت هيبي رأسها بين ركبتيها، فسقطت القبعة أرضاً. ''آسفة جداً، أنا غبية، لم أتناول الغداء. أنا...''. لم تستطع إنهاء جملتها أيضاً.

''خذي، تناولي جرعة من هذا''. شعرت بالزجاج يلامس أسنانها، اشتمت رائحة ويسكي. رشفت، وابتلعت.

– ''آسفة جداً، هل تسببت في ضرر للقبعة؟''.

''بالطبع لا''، عاد يلوح بالمجلة أمام وجهها. ''أنا لست يسارياً فعلاً...''، كان يحدق إليها بعينيه اللتين تشبهان عيني الأرنب البري. ''يساري ماذا؟''، تمالكت هيبي أعصابها. لم يروها. إنهما يتسوقان في ساليسبري. شعرت أنها حمقاء. لا بد أنه يوم الخميس. يوم التسوق لديهما.

''الجناح...''، نظر إليها. بدأ لونها يعود إلى طبيعته. هل كانت حاملاً لتصاب بالإغماء؟ ربما. لم يكن بإمكانه أن يطرح السؤال بطريقة جيدة.

''لست من الجناح اليساري''، قال مطمئناً لها، ''إنها فقط لمواجهة القبعات[21]''.

21 المقصود بالحديث مجلة **نيو ستاتسمان**، وهي مجلة سياسية وثقافية تصدر أسبوعياً في لندن، ولديها موقف يساري في السياسة.

ابتسمت هيبي، ''كم أنت ذكي. أنا بخير الآن''، قالت وهي تفكر أنه من الأفضل ألا تقدم تفسيراً، فليكن الأمر حدثاً طارئاً.

''... سعيد جداً جداً''. بدا أنه غير قادر على بدء الجملة أيضاً.

''يجب أن أكمل طريقي''، قالت هيبي وهي تنهض.

''لكن يجب أن تأخذي القبعة''، ألحّ عليها.

– ''كم ثمنها؟''.

''لا شيء، هي فقط...''. كان يضع القبعة في حقيبة ورقية مخططة بالأحمر والأخضر والأبيض مثل علم إيطاليا.

''لكن كم ثمنها... يجب...''، هذه الحالة معدية، على ما يبدو، قالت في سرها.

''... جزء من الديكور. لم تكن للبيع. أحب أن...''، أعطاها الحقيبة، ''خذيها''، ابتسم سعيداً كأنه منتصر.

''لا أستطيع أخذها''، قالت بصرامة.

– ''عليك أن تأخذيها، تبدين رائعة بها، ستكون عمة أبي جداً...''.

– ''هل هي ميتة؟''.

– ''لا، عجوز فقط. أعطتها لي من أجل...''.

– ''ماذا؟''.

''المرح''، لمعت عيناه البندقيتان، ''للتشجيع''، أعطى الحقيبة الورقية لهيبي، ''والآن أنا...''.

''ماذا؟''، شعرت هيبي بالود تجاه هذا الشاب.

''متشجع. يجب أن تري ماذا...''، انتظرت هيبي، ''يشترون. القبعات المزينة بالأزهار، بالريش، بالشاش، ولكن أنت أخذت القبعة الجيدة بنظرة صائبة. احتفظي بها، من فضلك. سوف يعطيني هذا الكثير من..''.

''السعادة''، أنهت هيبي الجملة له. ''شكراً جزيلاً لك''، أخذت هيبي القبعة.

– ''هل أنت ذاهبة...''.

– ''عشرة أميال أخرى''.

– ''إذاً، أنت لا تعيشين...''.

– ''أنا ذاهبة لأداء عمل مؤقت''.

– ''أفهم. أتمنى أن تستمعي...''.

''سوف أستمتع، ذهبت إلى هناك من قبل، إلى اللقاء''، مدت يدها لمصافحته.

''أوه!''، أمسك يدها بقبضته الكبيرة الجافة التي كانت هيبي متوقعة أن تكون متعرقة، ''شكراً جزيلاً''.

رافقها إلى الباب ووقف يراقبها وهي تعبر الشارع. استدارت، ضحكت وصاحت: ''أراهن أن والدك كان جنرالاً''.

''كان كذلك. إنه...''. لكنها كانت قد ذهبت. لم يسألها عن اسمها. ستقرأ اسمه على الحقيبة الورقية، روري غرانت، صانع قبعات، كانت عمة أبيه كاليبسو قد قالت له: ''كن جريئاً، لا تتركهم يتسببون في إحباطك، افعل دوماً ما تريد أن تفعله في الحياة''.

وضعت هيبي الحقيبة المخططة في المقعد الخلفي لسيارتها، وقطعت الأميال العشرة الأخيرة إلى منزل لويزا فوكس. كان أمراً خيّراً لها أنها وجدت القبعة، هذا جعلها تراهما وهما يعبران الشارع، دون أن يتمكنا من رؤيتها؛ لم يحدث أي ضرر. شعرت بالألم في عينيها، كانت متلهفة إلى أن تأوي باكراً إلى السرير، وتنزع العدسات اللاصقة التي تضعها، والتي تحرص على نزعها عندما تكون المنزل كنوع من التكفير المزيف لتتجول متخفية خلف نظارتها الكبيرة.

أثناء قيادتها السيارة، كانت هيبي تفكر في جديها. لماذا كانت لا تزال تخاف منهما؟ هل أصبح الأمر عادة؟ لماذا لم تشم الرائحة التي كانت ترافق موجات الرعب عادةً؟ حاولت تجميع أفكارها، وفصل الحقيقة عن الخيال. ما كانت قد فكرت فيه سابقاً أصبح واضحاً الآن، لا علاقة للرائحة بهذين العجوزين الذين كانا يعبران الشارع في ساليسبري. تساءلت ما اسم الكلب الجديد، الكلب القديم كان اسمه ''سموت''.

قادت هيبي ببطء وهي تشعر أنها بأمان أكبر مع كل ميل تقطعه. لا بد أنهما كانا في ساليسبري من أجل روتينهما المعتاد، من الذهاب إلى المكتبة، والتجول في متاجر الكتب دون أن يشتريا شيئاً، ثم العودة سيراً إلى سيارتهما، لينطلقا نحو الجنوب، إلى المنزل الواقع على طرف الغابة الجديدة.

لن يدخلا متجراً للقبعات بدافع غريزي، ويسمحان لصانع القبعات أن يعطيهما قبعة. سيسيران وسط الرصيف دون أن يريا شيئاً، لن يلاحظا حفيدتهما الضالة. ليس هناك مكان في حياتهما للقبعات التافهة، لا مكان للفتيات اللواتي يصاحبن متسكعاً حافي القدمين ملتحياً ذي شعر طويل. بدا الأمر كأنه حدث منذ زمن بعيد جداً، ولم يتغير شيء بخصوصهما رغم ذلك، باستثناء، فكرت هيبي، وهي سعيدة بالإحساس الذي انتابها فجأة، وهي تنظر إلى الحقيبة المخططة على المقعد الخلفي لسيارتها... باستثناء أنها لم تعد خائفة. ربما ستكون هذه المرة الأخيرة التي أسمع فيها أصواتهم، المرة الأخيرة التي أخاف فيها منهم. ارتفعت معنوياتها وهي تخرج بسيارتها عن الطريق الرئيسي لتقطع الأميال الأخيرة نحو منزل لويزا فوكس.

عندما وصلت قرب الباب، خرجت ثلاثة كلاب هجينة من المنزل وهي تنبح بقوة. كان الباب مفتوحاً، ففكرت أن الصالة ستكون باردة تفوح منها رائحة الزهور.

''اهدؤوا، يا فتية، اهدؤوا''، خرجت لويزا فوكس من المنزل، كانت ضئيلة في ثوب قطني، ترتدي مريلة الحديقة، رفعت وجهها لتقبل هيبي.

''أنا متسخة جداً لألمسك''، مدت يديها الملوثتين بالتراب، ''هل يمكنك تدبر أمر حقائبك. أوه، يا إلهي، كنت في متجر روري، كم هذا مضحك، ماذا اشتريت؟''، قالت هذا وهي تتفحص هيبي

ومحتويات السيارة والحقيبة الورقية بعينين سوداوين مشعتين، ''إنه رجل شجاع ليفتتح متجراً للقبعات في ساليسبري، أبوه غاضب. أريني ماذا اشتريت؟ يدهشني أنك وجدت لديه شيئاً يلائمك''.

أخرجت هيبي القبعة الحمراء من الحقيبة.

''لكن تلك القبعة من آثاره، أنا أعرفها جيداً، أعطتها له صديقة لي''.

– ''أعطاها لي''.

''أنا سعيدة أنك قبلتها. ادخلي وتناولي شراباً وسأحدثك عن الحديقة، حدثت كارثة أو اثنتين منذ كنت هنا آخر مرة، أدخلي أغراضك. انزلي!''، صاحت للكلاب التي كانت تقفز وتلعب حول هيبي. ''لكن هناك الكثير من أزهار التبغ والعليق رائحتها لذيذة''.

– ''لقد أحضرت بعض الصلصة من أجل المعكرونة، أعتقد أنها ستعجبك الليلة، وإذا كان هناك ثمار عليق...''.

– ''لا تبدئي الحديث عن الطعام مباشرة، تناولي شراباً أولاً. لقد أعددت لك الغرفة المعتادة. ماذا تحبين أن تشربي؟ نبيذاً؟''.

– ''نعم، من فضلك''.

– ''هناك زجاجة في الثلاجة، سنشربها في الشرفة، تعالي معي''.

هذا هو المنزل اللطيف الذي أحب، فكرت هيبي، وهي تلحق بلويزا عبر الممر المرصوف وكانت قدماها تتناوب في الخطوات على الحجر المختلط بالبساط العشبي. قادتها لويزا عبر الصالة إلى الشرفة، ''اجلسي، سأحضر النبيذ''.

– ''ألا يمكنني أن أفعل ذلك؟''.

''لا''، تركتها لويزا وغادرت الشرفة.

جلست هيبي على المقعد الحديدي الأبيض، ونظرت عبر الحديقة إلى المرج الواسع وراء السور، حيث كانت الأبقار تحرك أذيالها قرب جدول المياه ذات اللون الأخضر الداكن، والصوت الحاد لطائر الغرة المائي.

''ها نحن ذا''، حملت لويزا صينية مع زجاجة النبيذ والكؤوس. سحبت الزجاجة إليها، صبت وتذوقت، ''تمام''. قدمت كأساً إلى هيبي، ''تفضلي''.

استلقت الكلاب متنهدة، حركت آذانها، رفعت نظرها وهي تهز أذيالها، أغضمت عيونها ونامت.

راقبت لويزا هيبي وهي ترشف نبيذها، إنها تبدو حساسة ومتحفظة.

''أنا سعيدة أنك حصلت على تلك القبعة''، قالت، ''يحتاج روري إلى التشجيع. إنه يصنع قبعات جميلة''.

– ''ظننت أنها تبدو محافظة''.

– ''هذا ما يبدون عليه. ولكن هل جربت واحدة؟ لا؟ لو أنك فعلت كنت ستجدين أن كل واحدة منها فيها بعض المبالغة الماكرة. هو يستخدم قبعاته ليسخر من القوانين. هو يسخر من زبائنه''.

– ''هذا قاسٍ نوعاً ما''.

– ''لا، ليس قاسياً أبداً. حاول والده أن يدفعه إلى الجيش، وهو أعلن الإضراب''.

''أستغرب ذلك''، قالت هيبي ضاحكة، ''استوقفني متجره كنوع من الاحتجاج''.

– ''إنه يأتي أحياناً ليصطاد في الجدول. إنه بمنزلة ابن أخٍ فخري لي، كنت أعرف أباه وجده''.

– ''هل هما ميتان؟''.

''بالنسبة إلي''، فكرت لويزا بهيبي. هل يمكن لها أن تشعر براحة كاملة؟ بدا ذاك أمراً بعيد الاحتمال.

''جد روري كان أحد عشاقي، أو هو ظن أنه كذلك؟''، قالت متوقعة، ''كان من الصعب تحديد هل هو أم رجل آخر الأكثر إزعاجاً، كرفيق مضجر''.

نظرت هيبي بسرعة إلى ربة عملها: ''بالتأكيد لم تكوني مضطرة أن تقيمي علاقة مع رجل ممل؟''.

''العديد من الرجال المؤهلين للعلاقة كانوا مملين. جد روري كان واحداً منهم. أخوه الأكبر، الذي أرملته هي من أعطت روري تلك القبعة، كان أبعد ما يكون الملل، لكن للأسف، لم يكن من عشاقي. في إحدى المرات، كان لدي موعد مع جد روري في فندق ريتز، ومع رجل آخر في الوقت نفسه في فندق بيركلي. في تلك الأيام''، نظرت لويزا إلى هيبي مع ابتسامة، ''كان فندق بيركلي على الناحية المقابلة لفندق ريتز في الشارع نفسه''.

''لا أعرف ذلك''، كانت هيبي مؤدبة.

– ''ليس على طريقك؟''.

– ''بعيد عن محطتي''.

''وأنا أيضاً، الآن. على أي حال، أراد كلا الرجلين أن يتزوجني. أخبرت الأول أنني سأتناول العشاء معه في ريتز، والآخر، كان يدعى روتر بالمناسبة، ربما يكون قريباً لك''، لم تنظر لويزا إلى

هيبي، ''أخبرته أنني سأتعشى معه في بيركلي، وبعد أن عقدت موعداً مع الاثنين، التقيت شخصاً آخر وقضيت الليلة معه''.

''هل تزوجت ذاك الشخص؟''، إنها تخبرني أنها تعرف عائلتي، انتبهت هيبي.

''لم يكن من النوع الذي يتزوج. كان كلاهما يشعر بالغيرة من الرجل الذي تناولت العشاء معه. لذا، ربطتهم في مواعيد لينتظروا، وبعد ذلك كله تزوجت شخصاً آخر''.

''لم يكن مملاً''، ابتسمت هيبي.

– ''على الإطلاق. هذان المملان كلاهما يعيش على بعد عشرين ميلاً مني، لم أرهما أبداً. نسيت أنهما موجودان. المهم أنه يعجبني روري''.

''لأنه يزعج والده؟''، سألت هيبي.

''على الأرجح''، وضعت هيبي كوبها الفارغ وهي تأمل أن تشعر هيبي بأمان أكثر قليلاً إن عرفت أنها لم تلتق جديها، وأن تشعر أنها تحبها كما كانت تحب روري.

''ماذا حدث للرجل الذي قضيتِ الليلة معه؟''، عادت هيبي تسأل.

– ''نتحدث أحياناً عبر الهاتف''.

– ''ألا يزورك؟''.

''لا. تعالي الآن، دعينا نأخذ سلة ونجمع بعض ثمار العليق، هذه متعة بالنسبة إلي''، قالت لويزا وهي تتجه نحو سلة الفاكهة، ''وليس أن أتناول عشائي على صينية وأنا أشاهد التلفاز. فأنا لا أستطيع أن آكل عندها إما لأن هناك برنامجاً عن الطبيعة فيه حيوانات جميلة تلتهم حيوانات جميلة أخرى، وإما لأن رئيس الوزراء يطل في خطاب يزعجني''.

''دون شك أنت محافظة؟''، سألت هيبي مدهوشة. هل كانت السيدة فوكس ثائرة في هذا المحيط المحافظ؟

''لقد تربيت لأكون كذلك كما الحال معك دون شك''، أومأت هيبي برأسها موافقة، ''لكن هناك أوقات أتساءل فيها أليست هذه الحكومة مؤلفة بالكامل من جواسيس يعملون لموسكو''، قالت لويزا.

ضحكت هيبي، ''لهذا السبب أنت تؤيدين صانع القبعات؟''.

''نعم''، قالت لويزا، ''أنا أحب المتمردين لكنني أكره النفاق''.

''هل كان المملون منافقين إذاً؟''، اقترحت هيبي مدخلاً للحديث كي تتحدث لويزا أكثر.

''منافقون سيئون''، قالت لويزا، ''أوه، طائر مسكين. هل يمكنك مساعدة ذلك الطائر الأسود ليخرج من القفص؟''.

دفعت هيبي الطائر الأسود بلطف نحو بوابة القفص التي فتحتها لويزا، وهي تشعر بالامتنان لغموض لويزا وتجنبها الخوض في الحديث أكثر.

"هناك!"، صاحت بفرح وهي تشاهد العصفور يحلق حراً، "شكراً لك".

رتبت هيبي أغراضها، بدلت ملابسها، ثم حضرت وجبة لذيذة. أنهيا زجاجة النبيذ، وفتحت لويزا، لتمتع نفسها، زجاجة أخرى. تحدثت عن حديقتها وكانت ممتنة عندما عرضت هيبي أن تقتلع منها الأعشاب. أوت هيبي باكراً إلى السرير، وبقيت لويزا تقرأ حتى وقت متأخر من الليل، وهي تأمل أن يرن الهاتف فيكون بإمكانها أن تتحدث حديثاً طويلاً. لو أنه يحول كلفة المكالمة إليها، ما كان مضطراً أن يفتش عن عملة معدنية. لكن الهاتف بقي صامتاً. تحسرت على القدر الذي منعها من الزواج ببرنارد رغم أن زواجها كان سعيداً. لقد كان برنارد كعاشق مفرحاً دوماً، ولكن، كزوج ربما كان قد أخفق في ذلك، ثم ذكّرت نفسها أن برنارد لم يعرض عليها الزواج أبداً.

فكرت هيبي في جديها وهي تصغي لأصوات الليل: صوت نعيب بومة، وصوت قطار بعيد، وخوار بقرة في المرج. كانا يبدوان عجوزين ومتكبرين متحصنين في تعصبهما. لعنت عجزها عن التواصل معهما. يجب أن أتواصل مع سيلاس، قالت لنفسها، يجب أن أتوقف عن الخوف منه وإلا سوف تتكرر القصة. فكرت في عائلتها والنعاس يثقل جفنيها بالخوف من الله وبالغموض. كم عجيب أنهم وظفوا إيمي لديهم عندما كانت طفلة، إيمي التي أمنت لها النجاة، ودافعت عنها في الوقت الذي أزعجتها فيه أخواتها الكبيرات وعذبنها، أخواتها الكبيرات اللاتي تكيفن مع العائلة أكثر، وعلى نحو عفوي، كيّفن أنفسهن مع النمط المقترح. كن أكبر منها بست وثماني وعشر سنوات، تذكرهم هيبي كعملاقات في ثياب ركوب الخيل وهن يطلبن خدمة ما بأصواتهن الواثقة، مؤثرات في جديهما، لم يخفضن أصواتهن أبداً عند الحديث على الهاتف. ظنتها مزحة عندما عاد الرجال، الذين كانوا يخطبونهن، ثم تزوجوهن لاحقاً، عندما عادوا مخمورين وصاحوا: "دعونا نضاجع العبدة"، فيما يتحركون متثاقلين نحو غرفة إيمي. تذكرت هيبي رعبها من أصواتهم، صوت الأقدام الثقيلة التي تتجه إلى السعادة المرتقبة، ثم صوت الركلات التي دفعتهم يتدحرجون عبر الدرج.

كان جداها قد وافقا على الشباب على نحو يتعذر تفسيره، معجبين بشجاعتهم في حقل الرُكبي، وفي مجال الصيد. الآن روبرت خدع أغلبيةً محافظة وحاز مقعداً آمناً له في السياسة، وماركوس حقق موقعاً له في الأعمال المصرفية التجارية، وديليان يصنع الرقاقات الإلكترونية في بروكسل.

تذكرت هيبي كيف رفضت إيمي البقاء ليوم آخر، أدبها القاتل. تذكرت كيف راقبتها وهي تحزم حقائبها، وكيف مدت وجهها لتقبلها حزينة من الفراق المنتظر، وكيف سمعت صوت إيمي الصافي

وهي تقول: ''سأراك مرة ثانية في يوم ما، حبيبتي''. راقبتها وهي تصعد في سيارة الأجرة التي كانت تنتظرها، ورأتها تنفجر ضحكاً عندما كانت السيارة تستدير عند المنعطف.

لا بد أن إيمي كانت في الخمسين من العمر آنذاك، فكرت هيبي، ما يجعلها فوق السبعين الآن، مثل لويزا فوكس ولوسي داف. لو أنها كانت تعمل لدى إحدى هذه العائلات آنذاك، ما كانت هي من ترك المنزل، وإنما الشباب.

تذكرت هيبي وصولها بعد سنوات إلى باب بيت إيمي. وكيف قالت إيمي عند ذلك: ''ستكونين بخير معي''. وقد كان ذلك. وسيلاس كان بخير، فعلاً. لو أنني أستطيع فقط أن أكون لسيلاس ما كانته إيمي لي، فكرت. تذكرت كيف ارتفعت معنوياتها من الأعماق وإيمي تسحبها داخل منزلها، وكيف تمكنت في النهاية من البكاء.

بينما هي تصغي إلى أصوات الليل، كانت سعيدة أن لديها أسبوعين تقضيهما مع لويزا، وذلك في الوقت الذي يستمتع فيه سيلاس بالإبحار. كان جيداً له أن يكون لديه أفق أوسع من الشارع القبيح. وهي سعيدة أنه سيحظى بوقت جيد مع عائلة عادية، حسناً، ليست عائلة عادية، فكرت، وقد أجفلها تكبرها الفطري، أشخاص ممن تدعوهم لوسي داف ''النبلاء''.

''أوه، يا إلهي!''، قالت بصوت عالٍ، وتذكرت حنة وهي تقول: ''أعددت الشاي''. وتتملّق، متذكرة تربيتها من قبل ''هم'' الذين تبرأت منهم، الكبش الأبيض العجوز ونعجته البيضاء اللذين ابنتهما هي من ولدتها. اشتاقت فجأة إلى تيري بسراويله القصيرة. حياته غير معقدة مقارنة بحياتي، فكرت، وهي تتذكر بشرته الداكنة بلون الشوكولا ذات الملمس الحريري.

١١

مونغو داف، وهو أبعد ما يكون عن الرجل الصبور، كان سيتمنى لو أنه استطاع في اللحظة التي قرأ فيها رسالة الآنسة تومسون أن يقفز في سيارته ويسرع عبر البلاد إلى منزل لويزا فوكس، ليجد هيبي، يختطفها ويأخذها إلى فينيسيا، هايلندز، يوغسلافيا؟ لكن لماذا يضيع الوقت في السفر؟ هناك فنادق جيدة في إنكلترا وويلز، وفي أيرلندا أيضاً، هل ستحب أيرلندا؟ سأل نفسه وهو يقف متردداً في الرواق.

– "أبي، أقول هل رأيت أنبوبة الغطس خاصتي، كنت قد تركتها مع نظارات الوقاية، لكنها اختفت".

"عليك اللعنة"، صاح مونغو، "ألا يمكن للرجل حتى...". نظر إلى ابنه الأكبر يقف على بعد خطوات منه، وأخوه الأصغر قربه. كان الصبيان ينظران بدهشة، "ماذا تفعلان بحق الجحيم؟"، صرخ مونغو، كان قد نسي أولاده وهو يفكر في هيبي.

– "نحزم أمتعتنا، نجمع ما سنحتاجه لدى عائلة ريفز".

"أوه، يا إلهي!"، تحطمت آمال مونغو. لعن أليسون لأنها غادرت إلى سانتا باربرا وهي تشعر بسعادة كبيرة. كان عليهما أن يرسلا أليستر وإيان ومعهما أمتعتهما إلى جزيرة سيلي. لذلك هو الآن مقيد بمسؤولياته الأبوية حتى يغادرا.

"هل هناك أخبار سيئة، أبي؟"، نظر أليستر إلى الرسالة في يد مونغو.

"بالطبع لا، لا تكن فضولياً"، صرخ في وجه أليستر. لماذا يثقل المرء نفسه بالأطفال؟ أي حماقة هذه، أي تخريب للسعادة، فكر في نفسه وهو يعيد النظر إلى الرسالة. لن تكون قد ذهبت بعد، ليس قبل الرابع عشر. هناك وقت للتخطيط، ثم للحظة ارتجف قلبه من الشك، فسأل: "في أي يوم ستغادران؟".

– "بعد غد، أبي، في الثاني عشر، أخبرتك أمي ذلك".

"بالطبع"، أيّ خلاص هذا.

– "قالت أمي إننا صرنا كباراً ويمكننا أن نحزم حقائبنا بنفسنا، وإنك ستضعنا على متن القطار. هل كل شيء على ما يرام، أبي؟ أقصد، إذا كان هناك شيء ضروري، يمكننا أن نذهب في سيارة أجرة".

''لا تكن غبياً''، زمجر مونغو.

– ''نحن نحاول فقط أن نتذكر حزم كل شيء. قالت أمي إنه إذا نسينا شيئاً، فليس علينا أن نزعجك بأن ترسله إلينا''.

''هذا تفكير عاقل منها''، قال مونغو.

''لذا أبي، هل رأيت أنبوبة الغطس خاصتي؟''

''لا، لم أر أنبوبة الغطس خاصتك. إذا كنت كبيراً كفاية لتحزم أمتعتك، فأنت كبير كفاية لتجد أنبوبة الغطس اللعينة''. ضحك الفتى الأصغر ضحكة عالية. ''لعين'' كانت كلمة ممنوعة في المنزل (لا أسمح بتلك الكلمة في المنزل). وكان هذا ينطبق على معظم الكلمات المؤلفة من أربعة حروف. ولكن عندما رأى إيان وجه مونغو، كبت ضحكته. تمعن مونغو في ولديه، ثمار خصيتيه، هو افترض ذلك، ولو أنه ليس هناك دليل على ذلك، فكر بغضب، كلاهما يبدو تماماً مثل أليسون. ''تابعا عملكما''، قال، ''ولا تسببا الفوضى''.

استدار إيان وأليستر وركضا، وسمعهما مونغو من خلف ظهره ينفجران بالضحك، الحقيران الصغيران اللعينان، ليس لديهما احترام. تذكر مونغو والده وابتسم، اعتاد أن يشده من أذنه، وكانت أمه تقول: ''انتبه إلى طبلة أذنه''. انحنى مونغو ليلتقط بقية الرسائل. كانت هناك واحدة من أمه. مزق المغلف بحدة وفتحها:

> عزيزي مونغو، يجب أن أراك في موضوع خاص. سأكون ممتنة إذا أتيت لرؤيتي عندما ترسل الصبيين إلى جزيرة سيلي حتى يكون بإمكاننا أن نتحدث. الموضوع حساس جداً ولا يمكن مناقشته عبر الهاتف. لذا، يجب أن أطلب منك القدوم. لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً.
>
> مع خالص حبي، أمك.

خالص حبها، ماذا عن خالص حبي؟ صرخ مونغو بغضب داخلي. رمى الرسالة أرضاً وداس عليها، ثم تلفت حوله ليرى هل كان أحد قد رآه. التقط الرسالة ودسها في جيبه.

عندما اطمأن في المساء إلى أن الصبيين خلدا إلى النوم بأمان، بعدما وجدا أنبوبة الغطس فوق رف في البيت الزجاجي، اتصل مونغو بأمه.

– ''أمي، ما الأمر؟''.

– ''أخبرتك عزيزي، لن أتحدث عنه في الهاتف''.

– ''هل أنت متأكدة؟''.

''بلا أدنى شك''، عرف مونغو نبرة صوتها تلك، ليس هناك شيء يمكن أن يغير رأيها.

– ''جيد جداً، لا يمكنني أن أحضر قبل أن يغادر الصبيان في الثاني عشر. سآتي في الثالث عشر من الشهر''.

''موعد مناسب''، هل كانت تضحك؟

''لن أكون قادراً على البقاء''، كان مونغو مبرراً.

– ''لم أطلب منك ذلك، عزيزي. كما تعلم الآنسة ت تكره أن يأتيني زوار''.

هل تظن أنها إذا أشارت إلى الآنسة تومسون بـ''السيدة ت'' لن تسمعها؟

''هل تستمع إلينا؟''، سأل مونغو.

''لديها القليل جداً من وسائل التسلية''، قالت لوسي مازحة، ''أراك، إذاً، في الثالث عشر. سأغلق الآن، عليك أن تنتبه إلى فاتورة هاتفك''.

فكر مونغو: إنها مهووسة بالفواتير. عندما مزق رسالتها، انتبه أنها وضعت طابعاً من الدرجة الثانية عليها.

في الثاني عشر من آب، وضع مونغو إيان وأليستر على متن القطار المتجه إلى بنزانسي حيث رتبت جنيفر ريفز للقائهما وأخذهما إلى مطار المروحيات. وكان قد اتفق مع السيدة التي تؤدي لأليسون الأعمال اليومية أن تأتي ما بعد الظهر وتطعم الهرة أثناء غيابه، ممتناً لأليسون أنها رفضت اقتناء كلب، فهو لن يثق بأن يعهد بكلب للسيدة التي تؤدي أعمال أليسون اليومية، فالهرة كانت قادرة على الاعتماد على نفسها إن هي نسيتها. كان مونغو يفكر دوماً في هذه السيدة أنها خاصة بأليسون، ليست له ولا للصبيين، فهي كانت تتمرد بوضوح في أي شأن يخصه أو الصبيين. أما مع أليسون، فكانت ودودة وخانعة.

غادر الصبيان، فانطلق بسيارته نحو الشمال، توقف ليتناول العشاء في الطريق في مطعم معروف ليحصن نفسه من أي أخبار سيئة ستخبره بها أمه، ولكي يمتع نفسه بالأشياء الجيدة في الحياة، قال لنفسه، قبل أن تعلن أمه أخبارها بأنها مصابة بالسرطان، أو أنها خسرت كل نقودها. أثناء تناوله قطعة اللحم وكأس النبيذ ترك عقله يفكر، إذا كان الخبر متعلقاً بالسرطان، فسيكون عليه أن يأخذها إلى دارٍ للعجزة، وسيكون أفضل بكثير إيجاد مكان محترم لرعايتها؛ سيوفر هذا الكثير من الإزعاج. وبما أنها منتسبة إلى الضمان الصحي، لن يكون هذا الجانب صعباً جداً. من ناحية أخرى، إذا أصرت على الموت في المنزل، فسيكون على أليسون أن تعود بسرعة وتبدأ بالبحث عن ممرضات خاصات. يا له من وضع سيئ، لكن أليسون سوف تتدبر الأمر. طلب مونغو زجاجة أخرى من الخمر، إنه حقاً مطعم جيد. إذا أخذ هيبي إلى اسكتلندا يمكنهم أن يتناولوا وجبة هنا خلال

الطريق. ولكن إن لم تكن أمه مصابة بالسرطان وإنما وقعت بطريقة ما في مشكلة مالية، شعر بالقشعريرة من الفكرة، شيء واحد لن يفعله، ولهذه المرة فقط، ستكون أليسون موافقة تماماً أن يأخذ أمه لتعيش معهم. لا خوف، فكر مونغو، وهو يحتسي خمرته ويطلب جبنة ستيلتون. كان خطيراً جداً أن يرتب مواعيد مع هيبي دون أن تتجسس أمه عليه بتلك العيون الثاقبة. تنهد مونغو وهو يفكر في عيني هيبي الواسعتين مثل عيني فأرة الخشب برموشهما الطويلة. أدرك فجأة أنه كان ثملاً، وتصبب عرقاً من فكرة أن توقفه الشرطة وهو يتجه شمالاً، ويستخدمون أداتهم المرعبة للتحقق من كونه ثملاً.

"أيها النادل"، لفظ مونغو كلمته بحذر، فحتى في مقطعين فقط يمكن أن تخونه قدرته.

"نعم، سيدي"، ردّ النادل بطريقته المجاملة.

– "هل هناك أي مكان يمكنني أن أقضي فيه هذه الليلة؟ لا أشعر برغبة في متابعة القيادة".

– "هنا، سيدي، لم لا تبقى هنا؟ المطعم جزء من فندق".

"حقاً؟ حمداً لله"، قال مرتاحاً، "احجز لي غرفة".

أمضى مونغو ليلة قلقة. وبأرق، وصل إلى منزل أمه في وقت الغداء من اليوم التالي متعباً من الشراب بصورة واضحة. عندما رأى مونغو أمه تبدو جيدة جداً، وقد أسرعت مندفعة إلى عناقه، فكر، رغماً عنه، أنه سيكون على أليسون أن تجد بيتاً يلائم الظروف المتغيرة الطارئة. يجب أن يكون مريحاً بالطبع، أو شقة، ستجد شقة، لكن ليس على مسافة أقل من خمسين ميلاً.

"خمسون ميلاً عن ماذا؟"، سألت أمه.

لم يكن يدرك أنه يفكر بصوت عالٍ، "قلت، تبدين جميلة، هل أصبت بالصمم، أمي؟".

"بالتأكيد لا"، بدت فضولية، مستمتعة وساخرة في آنٍ معاً.

"مريضة؟ هل أنت مريضة؟"، نظر إليها متحمساً للفكرة.

– "لماذا يجب أن أكون مريضة؟ أنا قوية مثل حصان".

– "هل يتعلق الأمر بالمال، إذاً، هل خسرت كل شيء؟".

– "عزيزي، هل جننت؟ أنا جيدة تماماً وكل شيء بخير، وأنت تعلم جيداً، بفضل أبيك. تعال وتناول الغداء، وسنتحدث عن مشكلاتك بعد ذلك".

"مشكلاتي؟"، حدق مونغو إلى أمه.

"وماذا غير ذلك؟ تعال وتناول شراباً"، قادته إلى غرفة الطعام.

– "أوه! إلهي! لا، حسناً، ربما نعم. كأس من الويسكي، إذاً".

"تريدها قوية مع الكثير من الصودا، أليس كذلك. هل تريد حبة أسبرين، أيضاً؟"، حدقت فيه بعينيها الثاقبتين.

"نعم"، كان مونغو خجولاً. كان لدى أمه ولع بالضعف الذي كان لدى أبيه. لكن أنا ملتزم إياها، فكر مهموماً، وهو يرشف شرابه فيما ذهبت لتحضر له الأسبرين.

أثناء تناول الغداء، الذي أعدته الآنسة تومسون، استمع مونغو لآراء أمه حول الحكومة، وأن أفرادها ليسوا محافظين حقيقيين، وليس لهم خلفية صحيحة، وعن الطقس الذي كان جيداً جداً، وكذلك عن حديقتها وتأثرها بالطقس، وعن أضرار الصناعات التي تلوث الهواء مع الدخان المنبعث من مداخن المصانع. ما زالت أمه تتحدث إليه كأنه طفل، فكر مونغو بكآبة، وهو يتناول الدجاج المشوي. "دخان"، حقاً.

– "ماذا عن الأنهار؟".

– "عزيزي، ذاك يخص شخصاً آخر ليقلق بشأنه، نباتاتي لا تتأثر بالأنهار".

– "دخلك يأتي من الصناعة".

– "أوه! لا، مونغو، ليس منها. لم يستثمر والدك أمواله أبداً في الصناعة".

"اسألي القائمين على أعمالك"، كان مونغو متجهماً وعصبياً.

"سأبقى وحيدة تماماً"، هربت لوسي من الاتهام، "هل نتناول قهوتنا في الخارج؟".

"سأحضرها لكما إلى الفناء، سيدة داف". نهضت الآنسة تومسون عن المائدة وتركتهما.

– "امرأة مثيرة للغضب، تصر على تسمية الشرفة بالفناء، إنها كلمة شعبية جداً، هيّا، دعنا نخرج إلى الحديقة، كما أنها تشير إلى المرج على أنه عشب مقصوص".

فكر مونغو، وهو يتبع أمه إلى الشرفة أنها لا بد أن تكون واحدة من آخر من يتجرؤون على دعوة أحداً ما بـ"شعبي". تمنى لو أنه كان يملك ثقتها الفظيعة بالنفس. جلسا في الشمس، دون كلام، ينظران إلى المنظر في البعيد حيث يمكن رؤية دخان المصانع الذي ينشر التلوث. أحضرت الآنسة تومسون القهوة وعادت إلى الداخل. شاهد مونغو ظهرها، خصرها السمين، كتفيها الممتلئتين القويتين، وساقيها المتينتين المنتهيتين بحذائها الواطئ.

– "إذاً، ما هي مشكلتك، أمي؟ إذا لم يكن هناك سرطان أو مال، فماذا قد تكون؟".

– "ليست مشكلتي، عزيزي، أخبرتك أنها مشكلتك".

– "ماذا؟".

– "مشكلتك".

''فسري''، ابتلع مونغو القهوة وهي ساخنة جداً. ماذا تقصد؟ ما الذي كانت تعنيه بحق الجحيم؟... ''ما الأمر؟''.

''الأمر هو أن أليسون تركتك، وطلبت مني أن أخبرك بالأمر''، لمعت عينا لوسي.

''لا أصدق هذا''ن انفجر مونغو بالضحك، سعيداً أن أمه ليست مصابة بالسرطان، ولم تفلس، لقد كان مولعاً بها جداً في الحقيقة.

''من الواضح أنها قررت أن تشكل ثلاثية مع أصدقائكم هؤلاء من سانتا باربرا''، راقبت لوسي وجه ابنها بفضول؛ قد يكون بطيئاً في استيعاب الأمر.

''ليسا صديقاي، هما صديقا أليسون''. كان الأثر الحقيقي لأخبار أمه بطيئاً في الظهور. ''التقت بهما عندما أخذنا الصبيين للتزلج في ميجيف، وبقيا معنا''.

– ''فهمت، إذاً''.

– ''هل تقصدين أن تقولي إنها كانت تقيم علاقة معه أمام ناظري؟''.

''معهما، أخبرتك أنه ثلاثي. أتساءل ماذا كان والدك ليقول''، شاب مسكين، فكرت لوسي. يجعله هذا الوضع يبدو سخيفاً جداً، أن تقيم علاقة مع رجل أمر مفهوم، أن تقيم علاقة مع امرأة شيء يحدث إلى حد ما، ولكن مع الاثنين، فهو أمر غير اعتيادي.

أنهى مونغو قهوته وجلس يفكر. حافظت لوسي على صمتها وهي تراقبه. من كان الشخص الذي قال، عندما كانت على وشك الزواج بوالد مونغو، ''إنه رفيق مبهج لكنه من نوع الرجال الذين ينجبون أطفالاً أغبياء؟''. صديق لويزا المخيف الصغير ذاك، برنارد كويجلي، الذي ألمح إليها ذات مرة برغبته في إقامة علاقة معها. كان الأمر أكثر من تلميحاً إذا تجرأت أن تكون صادقة. احمرّت لوسي وهي تغرق في ذكريات مخجلة. لقد كان مرحاً نوعاً ما. كان مسلياً. لقد حدث هذا مرة واحدة فقط، في فرنسا، لقد أحبت الفندق.

''حسناً؟''، كسرت الصمت الذي طال بينها وبين ابنها.

– ''حسناً؟''.

لاحظ مونغو لونها المحمر. ''قد يزعجك الأمر''، قال، ''لكنني أظن هذا رائع تماماً''، أطلق موجة ضحك. رأى نفسه يقود بسرعة على الطريق السريع، يختطف هيبي من منزل لويزا فوكس، ويتزوجها في مكتب التسجيل، وبالسعادة، السعادة إلى الأبد. الحبيبة، هيبي الحبيبة. وعندما انتبه إلى تعابير أمه، ولأنه غير قادر على شرح وجهة نظره لها، توقف عن الضحك، وقال: ''سأطلقها''.

– ''لأي سبب؟''.

– ''الزنا، بالطبع؟''.

– ''مع من؟''.

– ''اممم، الاثنين، فيما أظن، أوه، هيا، أمي، لم لا يكون الهرب، التناقض؟ هناك أسباب عدة للطلاق في هذه الأيام؟''.

''من سيهتم بأمر الصبيين؟''، كانت جملة قاتلة جعلت مونغو يشعر برعشة خوف، فقال: ''سوف تساعدينني، أمي؟''.

– ''لا''.

– ''أيها الرب الرحيم، أمي، أنت جدتهما، أنت...''.

– ''أعلم ذلك''.

– ''لذا، أنت سوف...''.

– ''لن أفعل''.

''أمي!''، صعق مونغو، تبددت سعادته بفعل إنذارٍ انطلق من الفراغ. كان هناك صمت طويل بين الأم وابنها، يواجه كل منهما الآخر. وكان مونغو أول من أشاح بنظره.

''أليسون زوجتك''، قالت لوسي، ''قد لا يكون أيّ منّا مولعاً بها خصوصاً...''.

''أمي!''، كان مصدوماً بصراحتها. كان مقبولاً بالنسبة إليه أن يكون خائناً، ولكن ليس أن تراه هي كذلك.

– ''بعد رد فعلك على الأخبار التي قلتها للتو، أظن أنه كان عليك أن تصغي أفضل. كنت أقول، ربما نحن لسنا مولعين بها، لكنني أرى، بنيّ العزيز، أنها مفيدة، هي تعتني بك وبالصبيين تماماً. أنت تتغذى، تتمرن... تخطط لك أيام عطلك، تجد فواتيرك مدفوعة. هي تتدبر خدمات سيارتكما، تخطط حياتكما الاجتماعية وحياة الصبيين كذلك، هي تتدبر أمر ذهابهما إلى المدارس الصحيحة، وقضاء أيام عطلتهما مع الأشخاص الصحيحين''.

– ''إنها متكبرة رهيبة''.

– ''كذلك أنا، كذلك أنت. لو لم تكن تلك الفتاة الجميلة التي تأتي لتطبخ لي سيدة، هل كنت تتوقع أنك كنت ستطاردها بهذه القوة''.

''كيف تعرفين؟''، استشاط مونغو غضباً.

– ''لا تكن سخيفاً، مونغو. ربما تظن الأمر سراً، لذا هي ربما لا تعرف. الخبر ينتشر مثل شجرة العنب. ابن ماغي كوك – بوفام رآك معها مرتين''.

– ''هل أليسون على علم بالأمر؟''.

– ''على الأرجح، لكن هذا، بأي حال، لا يزعجها، لن تهتم''.

''أوه''، شعر مونغو أن أمه أصابته في الصميم. ''متى حدث كل هذا؟''، سأل بضعف.

''تماماً فجأة. اتصلت أليسون بي هاتفياً، كما كتبت لي رسالة أيضاً. بالمناسبة، هي لم تقدم على خيانتك من قبل أبداً. هذا الترتيب تم عند إقلاع الطائرة. اتصلت أليسون بي عندما وصلت إلى هناك، ورسالتها وصلت في الأمس، وهي تشدد على كلمة نهائي''، قالت لوسي بازدراء.

– ''لا بد أنها كانت ثملة أو تحت تأثير مخدر''.

– ''أعرف أنه لا هذا ولا ذاك. لقد فكرت طويلاً في حركة كهذه، وحدث أن عرض عليها هذان الأميركيان الحياة التي كانت تتوق إليها دوماً''.

– ''أي هراء هذا؟''.

''اقرأ رسالتها''، أعطت لوسي رسالة أليسون إلى ابنها. وداع واضح، عملي، عندما تنتهي عطلة أليستر وإيان يكون على مونغو أن يتحمل المسؤولية. وفي حال الضرورة، يمكن لأليسون أن تقدم إليه النصيحة من سانتا باربرا، وفي ما عدا ذلك سيكون على مونغو تدبر الأمور. ومحاميها، الذي هو أيضاً محامي إيلي وباتسي سيتصل به قريباً. وقد أرفقت بالرسالة عنوان المحامي.

''يا إلهي، يا إلهي!''، شعر مونغو أنه على وشك البكاء، ''لا يمكن أن تكون مدركةً ما تفعله. لا يمكن أن تكون قد اتخذت قراراً بهذه السرعة''.

– ''لقد حدث الشيء نفسه عندما وقعت عينها عليك''، قالت لوسي بصوت حاد، ''قال أبوك أنه لم يرَ عاملةً بهذه السرعة. رأتك، وكما أقول، قررت بسرعة ما تريد''.

– ''ظننت أنه كنت، أنا، من قرر''.

– ''أنت افترضت ذلك، عزيزي''.

بعض الناس يحبون أمهاتهم. فكر مونغو.

''هل هؤلاء الأشخاص، إيلي وباتسي، أثرياء؟''، سألت لوسي.

– ''بدا أنهما مفرطان في الثراء''.

– ''هذا هو، إذاً''.

''سأفعل ما هو أفضل من ذلك''، أجرى مونغو مراجعة سريعة لأفكاره، سيحصل على مساعدة من جنيفر ريفز بشأن الصبيين. كانت امرأة قادرة على تدبر أمور ابنها. ولن يشكل اثنان آخران

مشكلة بطريقة أو بأخرى. ما زال يستطيع أن يتزوج هيبي، ما زال يستطيع أن يعيش سعيداً إلى الأبد بعد ذلك. كانت أمه تتحدث، "ماذا قلت؟".

– "قلت إنه من الأفضل أن نفعل ذلك حالاً".

– "نفعل ماذا؟".

– "نعيدها بالطبع".

– "لماذا، بحق السماء؟".

– "من أجلي أنا، إن لم يكن من أجلك، أنت، والصبيين. لن يكون بإمكاني أن أتدبر أموري دونها".

نظر مونغو إلى أمه. عندما تحدثت بالنبرة القاتلة، كانت حتى تقاوم أن تأخذ نفساً. ولأنها انتبهت إلى أن مونغو مندفع، فسرت لوسي: "عزيزي، في يوم من الأيام سأصاب بالسرطان، أو بشيء مؤذٍ ما، وسأحتاج إلى الرعاية"، أجفل مونغو من الحديث، "من نعرف غير أليسون شخصاً قادراً على تحمل الأمر؟ ليس أنت، بنيّ العزيز. يوماً ما ربما أتعرض لخضة مالية أو اثنتين، وأكون بحاجة إلى الانتقال من المنزل، سأصبح عجوزاً جداً غير قادرة على تدبر أموري بمفردي. من نعرف غير أليسون قادراً على تحمل المسؤولية عني؟".

دفن مونغو وجهه في كفيه، كانت أمه عاهرة عجوزاً مرعبة، اشمأزّ منها. كيف يمكن للناس أن يكونوا أنانيين بكل ما للكلمة من معنى؟ كان هذا أمراً يستحق اللعنة.

"إذاً، ماذا؟"، قال وهو يطبق أسنانه بقوة. "إذاً، ماذا، أو فقط إذاً". ذاك ما كان أليستر وإيان يقولانه عندما يرغبان في أن يكونا مزعجين. "إذاً؟"، بالطبع لا يقولانها لأليسون، لا يتجرآن على ذلك.

"إذاً، نتصرف"، قالت لوسي بهدوء، "أنت تتذلل لها، وأنا أبتزها. نستخدم الهاتف ولا نفكر في التكلفة. لنبدأ، دعنا نرى... نظرت إلى ساعة يدها، "لنبدأ خلال نصف ساعة، نوقظها من نومها. أنت سوف تتحدث إلى أليسون وأنا سوف أتحدث إلى هذين الإيلي والباتسي".

– "ظننتُ أنهما كانا مجرد أميركيين مملين ممن كانوا مهتمين بمشاهدة معالم المدينة".

"بني المسكين الساذج"، ضحكت لوسي على مونغو كما لو كان في العاشرة من عمره. "تعال الآن، دعنا نجرب ونستمتع بهذا. تذلل، تذلل، تذلل، ولكن بمراوغة"، كانت تستمتع بالوصف.

أدى مونغو محاولته اليائسة الأخيرة: "أمي، أرجوك، لا بد أن هناك طريقة أخرى".

– ‘‘أنا لا أتغير في عمري هذا، وأنت لا تفعل ذلك في عمرك هذا. هل تتخيل أنني كنت لأفكر أن يكون عندي طفل لو لم أكن متأكدة أنه سيكون عندي مربية تعتني بك، لو لم يكن مخططاً أن ترسل إلى مدرسة داخلية بعد أن تنهي الروضة؟‘‘.

‘‘كنت تعيساً في تلك المدرسة الخاصة‘‘، قال مونغو باستياء.

– ‘‘ألاحظ أنك ترسل أولادك إلى المدرسة نفسها. أمثالنا من الناس لا يتحملون رعب وجود الأطفال في المنزل. الأمر الذي يخشاه حتى الناس الصالحون هذه الأيام‘‘.

ناس مثلنا، ناس صالحون، أليس كذلك، تلوى مونغو يائساً.

‘‘وأنت‘‘، ثبتت لوسي مونغو بنظرة حادة، ‘‘تماماً مثلي، إن لم يكن لديك أليسون لتدبر الأمور، وتدير الأعمال وتربي الأولاد، ما كنت صرت رب عائلة‘‘.

اختنق صوت مونغو وهو يحاول الاعتراض.

– ‘‘لا أقصد، عزيزي، أنني لا أحبك. أنا أحبك جداً. لو لم أكن أحبك، ما غيرت لك حفاظاتك ورعيتك عندما أصبت بالنكاف. في المبدأ، أنا أحب حفيديّ أيضاً‘‘.

– ‘‘أنا لست متأكداً أنني أفعل‘‘.

– ‘‘هراء، بالطبع أنت تفعل. لم يصابا بالنكاف بعد، أليس كذلك؟‘‘.

– ‘‘لا أعلم، لا يمكنني أن أتذكر، أليسون...‘‘.

– ‘‘ها أنت، أنت لا تعلم. الحصبة؟ جدري الماء؟ مسامير اللحم؟ ذاك القمل الصغير الي يزحف في... أنت تعرف ما أعني‘‘.

– ‘‘العانة، هل عليك الحديث عن ذلك، أمي؟‘‘.

‘‘هل أنت مستعد لتحمل كل ذلك على عاتقك؟‘‘، سألت لوسي السؤال القاتل.

كان مونغو صامتاً يفكر في هيبي، لم يكن يريد لهيبي أن تهتم برعاية أليستر وإيان، وأن تتعامل مع قملهما. كان يريد هيبي لنفسه، أن يكون اهتمامها به خالصاً. اغرورقت عيناه بالدموع.

ربما هو يحب أليسون، فكرت لوسي، لا، لا يمكن أن يكون الأمر كذلك، إنها الصدمة.

‘‘متى نبدأ؟ ماذا سنفعل؟‘‘، قال مونغو مستسلماً.

١٢

احتفظ سيلاس في ذهنه بصورة أمه، كما لمحها في النظرة الأخيرة عندما كانت المروحية تحلق مبتعدة نحو سيلي، متسائلاً ماذا قد يكون معنى هيرمافرودويت، وفكر إن كان جيلز الذي يحب جمع المعلومات غير المفيدة، قد اكتشف طائفة دينية جديدة، أو أن هيرموافروديت كانت تعني طبقاً خاصاً معروف لدى القليل من الناس مثل الموساكا، أو أنها جمهورية مستقلة عن الاتحاد السوفياتي. كان جيلز يدخر المعلومات ككنز، مثل أن ''الفلفل الأسود يستغرق ثلاث سنوات حتى يتم هضمه''. وقد أخذ بحماسة الملاحظة التي ذكرها برنارد عن ردف الخنزير. وعد سيلاس نفسه برحلة إلى المكتبة العامة للبحث في المعاجم.

استقر في كرسيه ليشاهد الأرض تختفي وينتظر بشوق أن يرى الجزر. كان مشتاقاً للقاء مايكل وارتداء السروال القطني القصير الذي اشترته له هيبي. لم يرَ أي منهما الآخر بأي لباس غير لباس المدرسة الرسمي. تساءل ماذا سيكون صديقه مرتدياً. نظر نحو الأسفل إلى البحر المتلاطم الأمواج وتمنى أن يكون الطقس صحواً وأن تكون الشمس مشرقةً أكثر مما كانت من اليوم السابق. بدا أن الركاب الآخرين في المروحية كانوا متحضرين للأسوأ، فقد كانوا يحملون معاطف وأحذية مطاطية. هز سيلاس رأسه بقوة عند الوصول ليخلص أذنيه من ضجيج المروحية، ثم تبع المسافرين الآخرين على المدرج وهو يتلفت حوله بحثاً عن مايكل إلى أن ناداه صوت أنثوي وشاهد السيدة ريفز تلوح له. لوح سيلاس لها أيضاً واتجه إليها حاملاً حقيبته.

''مرحباً، سيلاس''، كان لديها أسنان كبيرة ولثتها تظهر عندما تبتسم، الأمر الذي كانت تفعله الآن. كانت طويلة وشعرها مرفوعاً في كعكة سميكة فوق الرأس ما جعل السترة المشمّعة الطويلة التي ترتديها تبدو غريبة. كان وجهها أحمر بفعل الريح وعيناها زرقاوان. معطفها أصفر مع ياقة مخملية، وتنورة قطنية، وسترة جيرنسي صوفية قديمة، وساقاها عاريتان. وقد ارتدت جوارب زرقاء تصل إلى كاحلها مع حذاء رياضي. حين صافحته، شعر بأن قبضتها كانت قوية.

''لطيف أن أراك، سيلاس''، لم تكن كما تذكرها في نشاطات المدرسة، لا بد أن شكلها قد اختلط عليه بصورة أمهات الصبية الآخرين.

''كيف حالك... مرحباً''. نظر سيلاس حوله بحثاً عن مايكل.

''ذهبوا جميعهم للإبحار. كان عليّ شراء بعض الأشياء من ميناء سانت ماري. لذا قلت إنني سأنتظرك''، كانت في صوتها نبرة مميزة.

– ''أوه، شكراً لك''.

– ''سيعودون عند العشاء. تعال وساعدني في حمل الأشياء إلى القارب. وصل أليستر وإيان في الأمس وكانا متحمسين للانطلاق. عرفا أنك لم تكن تريدهم أن ينتظروا''.

– ''أوه، أوه، لا''، مايكل فتى تافه، فكر سيلاس، لم يحن وقت الغداء بعد، ''ما الذي يفترض أن أفعله مع أمه حتى العشاء؟ بالطبع لا''.

– ''هل تعرف أليستر وإيان، سيلاس؟''.

– ''لا، لا، لا أعرفهم. من...؟''.

''لا تعرفهم، أتوقع. إنهم في مدرسة مختلفة، لكن ربما تكون التقيتهم في أيام العطل''. بدت ذكية في طرح الأسئلة، فكر سيلاس، ''لا أظن ذلك''. أين يفترض أن يكون قد التقى بهم؟ تبع سيلاس مضيفته. من يكونان، بأي حال؟

– ''ألم يكن الأفضل أن ترتدي معطفاً؟''.

''نعم، بالطبع''، فتح سيلاس سحاب حقيبته ووجد معطفه المطري.

''ليس هناك شيء غير المطر هنا''، قالت. بدت عملية بأسلوب رهيب وهي تقوده إلى جبل من المشتريات، وتطلب منه أن يضعها في سلال كبيرة.

– ''هناك صانع سلال رائع في توتنز هو من يصنع هذه. لا أستطيع استخدام الأكياس البلاستيكية، هل تستطيع ذلك أنت؟''.

''لا، لا أستطيع''، لم يفكر سيلاس أبداً في هذا.

– ''هل تعرف توتنز؟ مكان جميل. هذه السلال تأتي من هناك، هو يصنع كل الأشكال الأوربية التي يمكن تخيلها، وليس تلك النفايات الشرقية''.

''ثقيلة نوعاً ما''، غامر سيلاس وقال.

– ''لكنها تدوم إلى الأبد، وكونها ثقيلة أمرٌ يجب ألا يقلق طفلاً قوياً مثلك''.

''بالطبع لا''، كانا قد وصلا إلى رصيف الميناء.

''ذلك صحيح، رتبهم. ليس بذاك الشكل، لا تضع الجميع على الجانب نفسه، سيغرق المركب بهذا الشكل. هكذا، بهذه الطريقة''، أعادت ترتيب السلال وجمعتها وسط المركب.

''عفواً''، شعر سيلاس أنه أحمق.

– ''هل خضت كثيراً من رحلات الإبحار، سيلاس؟''.

''... لا''، ما هذا السؤال السخيف؟

– ''أليستر وإيان يشكلان طاقم عمل مفيداً، هكذا يقول جوليان، جوليان هو زوجي''.

– ''أوه''.

– ''اسمي جنيفر. نادني جنيفر، الجميع يفعل هذا''.

''شكراً''، سأناديها ''أنت''، فكر متمرداً.

رتبت المركب بالشكل الذي يرضيها، وقالت: ''اجلس على مقعد المجداف''.

ما هو مقعد المجداف؟ سأل نفسه.

– ''حلّ الحبل، هل يمكنك ذلك؟''.

تدبر سيلاس ذلك. أدارت جنيفر المحرك، وقادت المركب تحت المطر، متهادياً فوق الأمواج، ''سنصل في الحال''.

بقي سيلاس صامتاً. كان واضحاً أنهما ذاهبان إلى جزيرة أخرى.

– ''عندما تساعدني لننقل هذه الأشياء إلى الشاليه، أتوقع أنك سترغب في تناول الغداء، ويمكنك بعد ذلك أن تكتشف الجزيرة''.

– ''شكراً، نعم''.

– ''هل تعرف الجزر جيداً؟''.

– ''لم آتِ إلى هنا من قبل أبداً''.

– ''يا إلهي، وأنت تعيش قريباً جداً''.

''حسناً''، شعر سيلاس أنه سخيف.

''هناك الكثير لتفعله على البر البعيد عن الجزر بالطبع. ألم يقل مايكل إنك تعيش في البلدة؟''، بدت غير مقتنعة.

''نعم''.

''أوه''، قالت بلهجة منتقدة، ''تحبها؟''.

– ''نعم، نحن نعيش في شارع''.

''حقاً؟''، بدت كأنها قالت ''هقاً''.

– ''بناه رجل عجوز مجنون كان يكره الغرانيت الضارب للصفرة. لذا استورد قطع الآجر الأحمر الداكن من ديفون، وبنى شارعاً من منازل الآجر، آجر أحمر داكن مع قطع من الآجر

الأصفر تحيط بالنوافذ''.

– ''يا للقرف!''.

– ''هذا ما تظنه أمي. لكن مع أنه قبيح جداً، فأنا أحبه. إنه بشع ومتجهم وسري ومبني فوق تلة شديدة الانحدار جداً''.

''هقاً''. تمكن من رؤية لهاة حلقها.

– ''كل البيوت فيها ستائر من النايلون وحدائق في الخلف، وهناك زقاق بين الحدائق والواجهات الخلفية للمنازل الواقعة في الشارع التالي الذي بني من الغرانيت مثل بقية البلدة. شارعنا يدعى شارع ويلسون''.

''هقاً''، قالت السيدة ريفز وهي تجلس وراء المقود تقود المركب عبر المياه إلى جزيرة تريسكو. جلس سيلاس هادئاً مخفياً غضبه مستمعاً إلى صوت المركب فوق الماء مستمتعاً نوعاً ما بالحركة الوثّابة للمركب، رغم انزعاجه من رائحة السمك العفن. تساءل هل كان الماء الآسن الدهني الكريه الرائحة قد يصل كما يهدد ليبلل قدمي مضيفته. لكن هذا لم يحدث.

''ها قد وصلوا''، قالت وهي تطفئ المحرك. ساعدها سيلاس في حمل السلال إلى الشاليه التي استأجرتها العائلة لقضاء العطلة. أرست جينيفر ريفز المركب وحملت حصتها من السلال دون أن يبدو عليها أي علامة من علامات التعب. تبعها سيلاس إلى داخل الشاليه مقرراً أنها كانت أكبر من هيبي بنحو عشر سنوات.

– ''إذا فرّغت السلال، سأضع أنا كل شيء في مكانه''.

يا إلهي، كم هي عملية. ليس أن هيبي لم تكن كذلك، قال لنفسه، لكنها لا تجعل الأمر يبدو واضحاً جداً.

– ''ضع السلال في الرواق، سأتناول شراباً وأعدّ لنا بعض الطعام، هل سيكون ذلك جيداً؟''.

''شكراً جزيلاً لك''، كوّم سيلاس السلال في الرواق.

– ''ليس هناك، أحمق، سوف يتعثر بهم كل من يدخل، ضعهم فوق الرف''.

''آسف''، رتبها سيلاس فوق الرف، لماذا لم تقل ''الرف'' منذ البداية.

سكبت جنيفر لنفسها كوباً من الجن ووضعت فيه بضع قطرات من الأنغستورا[22].

[22] الأنغستورا خلاصة مادة من لحاء شجر مريرة جداً تضفي نكهة على المشروبات.

''كان أبي في البحرية''، قالت. بدا سيلاس غير متفاعل.

''هذا جن رائع، سيلاس، جن رائع''، راقبها سيلاس وهي تأخذ جرعة، متسائلاً ما الذي كانت تتحدث عنه.

– ''ذلك أفضل. الآن إلى الغداء. هناك يخنة، بطاطا مشوية، وفاكهة... هل يناسبك هذا؟''.

''جيد''، قال سيلاس.

– ''لا تخجل مني، إذا لم يعجبك الطعام، هل تريد مياهاً غازية؟''.

– ''لا، شكراً لك''.

– ''الصبيان دوماً يتدبرون أمورهم. هل تريد الذهاب إلى المرحاض؟ تحب أن ترى غرفتك؟''.

– ''شكراً لك. نعم من فضلك''.

''سأريك إياها''، سارت أمامه، ''جميعكم في هذه الغرفة الكبيرة معاً، أنت لا تمانع، أليس كذلك؟''.

''بالطبع لا''، تماماً مثل المدرسة، فكر في نفسه، أتمنى أن أحبهم. نظر بريبة إلى الأسرّة الأربعة.

– ''عندما تجهز، تعال وتناول الطعام. الحمام هناك، من الرحمة أن هناك مرحاضاً آخر في الطابق السفلي. أنا لا أفهم هؤلاء الناس الذين يتبولون في الحدائق، وقد يجلس أحدهم أيضاً فيقتل العشب''.

عاد سيلاس لينضم إليها، وتناولا الطعام بصمت: يخنة لذيذة وبطاطا مشوية وفاكهة طازجة، ثم ساعدها في تنظيف المائدة، ووضع الأطباق القذرة في آلة غسل الصحون.

– ''كل شيء آلي في هذه الشاليه''.

''نعم''، قال، وهو يضع الطبق الأخير.

– ''صحيح، إذاً. رتب أغراضك واخرج للاستكشاف، سآخذ قيلولتي، سيكونون في المنزل مع حلول وقت العشاء، إن لم يكن قبل ذلك. هل ستكون بخير؟''.

– ''نعم، شكراً لك''.

صعدت جنيفر ريفز إلى الطابق الثاني. سمع صوت حركتها وهي تخلع حذائها، وصوتها تتأوه بنغمة ارتياح. أدارت المذياع لتستمع للساعة المخصصة للمرأة. زحف سيلاس إلى الطابق العلوي واتجه إلى غرفة النوم المخصصة لهم. كان هناك ثلاثة أسرة غير مرتبة. وضع حقيبته على السرير الرابع. بحث عن سترته الصوفية وحذائه الرياضي ولبسهما. نظر خارج النافذة، كانت لا تزال تمطر، فكر هل كان عليه أن يبقى بالجينز ثم قرر أن يستبدله بالسروال القصير.

تبع الطريق الصاعدة من الشاطئ ليستمتع بالمناظر، كانت الطريق محدودة بشجر الطرفاء والفوشية، والهواء ملحي رقيق، بدأ يشعر بالمتعة. وصل إلى حدائق دير تريسكو. تجول منبهراً

بالأشياء الغريبة عنه، معجباً بالمفاجآت، متجنباً الناس الآخرين. وبعد أن غادر تلك الحدائق، تسكع طويلاً إلى أن وجد شاطئاً على شكل منجل فارغاً إلا من العصافير. جلس فوق صخرة واستمتع بمراقبة المياه، كان لونها أزرق مخضراً لم يره في كرونول قط. دخل المشهد أمامه مركب تقوده فتاة اقترب ببطء، وفي مؤخرة القارب كان هناك رجل يحمل قصبة صيد، ورمى طعماً في الماء. جلس سيلاس يراقب الرجل وهو يخرج سمكة إسقمري بحري ويتلاعب بها كأنه كان يصيد السلمون في البحيرة. كان الرجل والفتاة يتحدثان بصوت منخفض. لم يكن سيلاس الوحيد الذي يراقب. كانت رؤوس الفقمة تتمايل بفضول قريبة جداً من المركب. لم يكن سيلاس قد رأى فقمة من قبل. ابتعد المركب ببطء وغاب عن عين سيلاس، والرجل والفتاة ما زالا يتحدثان بصوت منخفض. شاهد سيلاس حيوانات الفقمة وهي تراقب المركب يبتعد. كان المطر قد توقف. نزع ثيابه ونزل إلى الماء بهدوء، لم يرد أن ينبه الفقمة التي كانت لا تزال قريبة إلى نزوله. سبح مبتعداً عن الشاطئ واستدار لينظر إلى الرمل الأبيض، والصخور الرمادية والجرف المنخفض المزدان بتجمعات من نباتات الخلنج الأرجواني. وقرب الشاطئ كان هناك مجموعة من الأشجار المتدلية، رؤوسها الرمادية التي تحمل البذور كانت تبدو كمجموعة من الممثلين الذين يرتدون قبعات صوفية في مسرحية إيمائية. شعر ببرودة الماء، فسبح عائداً إلى الشاطئ. لم يكن لديه منشفة، لكنه استمتع بإحساس التصاق الملابس بجسده. حمل حذاءه ومشى حافياً. كانت الشمس قد ظهرت من بين الغيوم. استلقى فوق نبات الخلنج مصغياً إلى صوت النوارس وهو يشاهد صقراً يحوم عالياً في السماء. غفا سيلاس وهو يصغي إلى صوت النوارس مع صوت ارتطام الموج بالصخور عند الرأس البحري، وعندما استيقظ، كانت الشمس حارة على وجهه وقد جف الملح المتبقي من أثر السباحة فوق وجهه. فرك يديه بخديه، مزعجاً وجهه باحتكاك الملح الجاف. راقب أفعواناً يزحف فوق صخرة مسطحة بالقرب منه. استمتع بمشاهدة المخلوق الجميل وهو يتحرك مبتعداً بين النباتات، مصدراً فحيحاً رقيقاً. أغمض عينيه، كانت سعادته برؤية الأفعوان بعد رؤية الفقمة قوية جداً. نهض عائداً وهو يشعر بالجوع. اكتشف أنه كان قد ابتعد أكثر مما ظن، والشمس قد مالت عن خط الأفق والنوارس أوت إلى أوكارها.

التقى مايكل ريفز وأبيه والصبيين الآخرين قادمين من رصيف الميناء. كان الصبيان بعمره ومايكل تقريباً. كانوا يتحدثون بصوتٍ عالٍ عن بعض الصعوبات التي واجهوها خلال إبحارهم. حيّا مايكل سيلاس بصوت عالٍ. صاح والد مايكل: "مرحباً، كيف حالك؟ لطيف أن ألتقي بك. وصلت بخير، كما أرى. أتمنى أن تكون زوجتي قد اعتنت بك... أطعمتك وتلك الأشياء. كنت تستكشف،

أليس كذلك؟ آسف لأننا تركناك، لم يكن بإمكاننا أن نضيع يوماً من الإبحار، عرفنا أنك لن تمانع‘‘. كان يتحدث بصوتٍ أعلى وأعمق من صوت مايكل.

لم يعرفه أحد إلى الصبيين الآخرين اللذين عرف لاحقاً أن اسميهما أليستر وإيان. كان مايكل وأبوه يرتديان قبعات من الكتان مجعدة ومتسخة كانت في يوم ما بيضاء اللون، فيما لبس إيان وأليستر قبعات من قماش أزرق كانت صغيرة جداً عليهما، إذ مر عليها زمن طويل. كان والد مايكل يرتدي سروالاً من البريتون الأحمر مثل صياد سمك مع رقع على الركبتين، والصبية جميعهم كانوا يرتدون سراويل قطنية قصيرة ضيقة جداً مثل سروال سيلاس، لكنها جميعها كانت قديمة ومتسخة، ما جعل سيلاس يشعر بالتميز. كان الجميع يرتدي سترات صوفية من الجورنسي مثل السيدة ريفز تفوح منها رائحة المراكب والعرق. تمنى سيلاس أن هيبي لم تقل: ’’سترتك ستفي بالغرض، لكن خذ سترتي البيضاء العتيقة إذا أردت‘‘. فالشيء الأبيض العتيق كان جورنسي. شعر سيلاس باستياء مبهم تجاه هيبي. لقد كانت ستراته جيدة لكنها لم تكن جورنسي. تدافع مايكل وأصدقاؤه إلى الشرفة وهم يتحدثون بأصوات عالية، ويصرخون وهم يحكون لجنيفر التي كانت في المطبخ عن يوم الإبحار، وهي الأخرى كانت ترد بالصراخ. فوق كل ذلك صاح جوليان ريفز أن ما كان يحتاجه قبل أي شيء آخر هو كأس من الويسكي.

’’اسكب لنفسك، إذاً، أنا أعد الطعام‘‘، قالت جنيفر من بين المقالي المبعثرة في المطبخ، ’’ضعوا أحذيتكم المتسخة في الشرفة، أيها الفتية، لقد تم تنظيف الأرضية في الصباح‘‘. خلع مايكل ورفيقاه الأحذية المطاطية الصفراء ورموها في الشرفة، وانتشرت في الجو الرائحة الكريهة للأقدام الحارة.

’’اخلع حذاءك، عزيزي‘‘. خاطبت جنيفر زوجها، ’’لقد نظفت السيدة شيء الأرضية هذا الصباح‘‘.

’’حسناً، حسناً‘‘. خلع جوليان ريفز حذاءه ووقف يصب الويسكي لنفسه. خلع سيلاس حذاءه بصمت ووضعه مع أحذية الآخرين.

’’أحضرت حذاءً عالي الساق، أليس كذلك؟‘‘، سأله مايكل.

– ’’لا، لم أعرف أنني سأحتاجه‘‘.

– ’’يمكننا أن نعيرك واحداً، كما أظن‘‘.

’’اذهب وغيّر سروالك المتسخ قبل العشاء، وبحق الرب، استحم‘‘، صرخت جنيفر ريفز في وجه مايكل الذي كان واقفاً قربها. تذمر مايكل وخرج وقد تبعه سيلاس والصبيان الآخران إلى الأعلى. بدؤوا يفتشون في الدرج.

''سعيد تماماً أن أغير ملابسي''، قال الصبي الذي سيعرف سيلاس لاحقاً أنه يدعى إيان وهو يخلع سرواله القصير؛ ''هذه الأشياء تعصر لي أعضائي''. ضحك أليستر ومايكل.

''الأعضاء الكبيرة أمر موروث في العائلة''، قال إيان متشجعاً، ''يقول أبي إن أعضاءه محترمة جداً''.

''ممن؟''، سأل سيلاس، وهو يشعر نفسه خارجاً.

''أبونا لديه عشيقة، يظن أننا لا نعلم. لم نسمع رأي أمنا بحكم أنها قبِلتها كما هي''، ضحك أليستر الذي هو أصغر من إيان بطريقة فاحشة.

''أمي تتوقع باستمرار أن أبي لديه عشيقة. هذا رعبها الراسخ''، قال مايكل بقصد المشاركة في الحديث، ''حقيقة هو لن يتجرأ. سيُقمع إذا أطال النظر إلى فتاة''.

''العشاء جاهز''، صرخ جوليان ريفز عبر الدرج بصوت كصوت الصفارة. نزل الفتية إلى الطابق السفلي حفاةً، فخلع سيلاس حذاءه وتبعهم.

سكبت جنيفر كميات كبيرة من اليخنة مشابهة لتلك التي تناولاها على الغداء كطبق اعتيادي، وبدأ الجميع تناول الطعام.

فتح جولينا ريفز زجاجة نبيذ وسكب لزوجته ولنفسه، ثم قدم الزجاجة إلى سيلاس.

''شكراً''، مد سيلاس كأسه، فملأ جوليان ثلاثة أرباعها، في حين تناول الفتية الآخرون المياه الغازية. شعر سيلاس أنه قد فعل زلّة، فاجترع النبيذ بخجل.

حكى جوليان والفتية لجنيفر عن إبحار اليوم مقاطعين بعضهم بعضاً بروايات متناقضة، ''نفكر في الإبحار حول صخرة بيشوب غداً إذا ساعدنا الطقس، هل تحب ذلك سيلاس، إيه؟''.

– ''أوه، نعم، جميل''.

''أخبرني سيلاس أنه يعيش في شارع مهم جداً''، كانت جنيفر تعيد ملء كأسها، ''تعرف أنه يعيش في البلدة. لم أكن أهرف''، أدخلت حرف الهاء في كلمة أخرى مجدداً.

''ما اسم الشارع؟''، سأل جوليان بصوت عريض.

– ''شارع ويلسون. كان يدعى شارع اللورد كيتشنر لكنهم غيروا الاسم إلى هارولد ويلسون منذ بضعة أعوام''.

– ''حقاً! في ظل حكومة العمل؟''.

''كان عنده بيت من طابق واحد قرب ميناء سانت ماري كما تعلم''، قالت جينيفر مستنكرة.

''ما الشيء المسلي الذي فعله؟''، كان فم إيان مليئاً باليخنة وهو يتحدث.

"أتساءل لماذا"، نظرت جينيفر إلى سيلاس وهي توزع الجبنة والبسكويت متأملة سيلاس، كأنه كان المسؤول عن تغيير الاسم.

"لقد فعل شيئاً ما للبلدة، وكانت هذه هي الطريقة التي شكره بها مجلس البلدية"، خلال الصمت الذي نشأ، رفض سيلاس البسكويت وتناول الخبز.

"كل شيء محتمل، أظن"، وضعت جينيفر الزبدة على البسكويت. قضمت وتبادلت النظرات مع زوجها.

– "ستذهبون باكراً إلى السرير الليلة إذا أردتم الإبحار إلى صخرة بيشوب غداً. نظفوا المائدة، هل ستفعلون، يا فتية".

"حسناً"، قال مايكل، وتبعه إيان وأليستر: "حسناً". فتح سيلاس فمه ثم عاد وأغلقه.

نهضت جينيفر، "الحانة؟"، أشارت إلى زوجها.

– "بالطبع".

راقب سيلاس جينيفر وجوليان يخرجان في الظلام.

"دعونا نفعل هذا"، بدأ مايكل تنظيف المائدة، وساعده سيلاس، فيما أدّى إيان وأليستر حركات مبهمة دون مساعدة.

"عائلتك من العمل، إذاً؟"، سأل إيان.

"العمل؟"، سأل سيلاس.

– "نعم، العمل ليس محافظاً. أنت تعلم، شارع ويلسون، أسألك. لأتأكد".

– "ماذا؟".

– "الإشارات الحمراء تحت السرير[23]".

[23] إشارة إلى اليساريين.

"لا تكن غبياً، إيان"، تحفظ مايكل في كلامه متذكراً أنه كان المضيف.

"لدي مبولة تحت سريري"، كان أليستر مبتهجاً، "فأنا معتاد أن أبلل سريري". بدا تقريباً أنه يفتخر بذلك.

"طفل صغير"، قال إيان الذي شعر بالرفض، "ماذا يوجد على التلفاز؟"، انتقلوا جميعاً إلى الغرفة الثانية ليتمددوا ويشاهدوا ويسترن[24]. رفع إيان الصوت لكنه بدأ جدالاً مع مايكل. إضافة إلى صوت تأرجح الأبواب في الصالون، إطلاق النار، جلبة العربات ووقع أقدام الخيول. علم سيلاس أن

عائلة مايكل غالباً ما كانت تلتقي بعائلة أليستر وإيان في أيام العطل، وأنهم يذهبون معاً للتزلج بانتظام في ميجيف، وكذلك أنهم قضوا عطلة الصيف الماضي في جبال الروكي الكندية وأنه كانت هناك مخططات لرحلة إلى لداخ في الهند في العام التالي، رغم أن أليستر قد يكون لا يزال صغيراً جداً على الذهاب.

24 ”ويسترن“ فيلم يعتمد على قصص مبتدعة عن الحياة في غرب أميركا قديماً.

”يمكنك دوماً أن تذهب إلى العم هـ في هايلندر“، واسى إيان شقيقه الأصغر.

”تباً لهايلندز“، صرخ أليستر بصوت أعلى من الموسيقا التصويرية للفيلم بكل غضب وإحباط الإخوة الصغار. بدا كل ذلك ساحراً جداً إلى جانب العطل التي قضاها سيلاس في شارع هارولد ويلسون الآجري الداكن ومغامرة الذهاب لرؤية السيد كويجلي برفقة جيلز.

”لماذا، بحق الجحيم، لستم في السرير جميعكم؟“، صرخت جنيفر ريفز عندما عادت من الحانة.

”إنها عطلتهم“، كان جوليان سكيراً لطيفاً.

”إلى الأعلى، إلى الأعلى جميعكم“. صاحت جنيفر كأنها تخاطب كلاباً متمردة.

استغرق سيلاس وقتاً طويلاً ليغفو. كان يتمنى أن لديه غطاءً إضافياً. كان يتمنى لو أن لديه لحافه وفراء تريب الناعم قربه وهي تموء في سريره في منزل أمه في شارع قبيح تماماً يدعى شارع ويلسون. تساءل هل كانت إشاعة، أن الشارع لم تعد تسميته من باب الامتنان وإنما من باب الحقد، يمكن ألا تكون صحيحة. استيقظ من نومه غير المرتاح مرتين ليسمع هدير البحر والريح تصفر في الخارج.

١٣

بعدما تناول روري غرانت عشاءه بمفرده، أخذ قصبة الصيد، ومستفيداً من دعوة لويزا المفتوحة له إلى الصيد متى يشاء، قطع بسيارته الأميال العشرة إلى أملاك لويزا. ركن سيارته إلى جانب الطريق، انتعل حذاءه المطاطي، وقف في هدوء المساء الذي يميز أمسيات ليالي آب، ثبت قصبته، واختار طعماً طائراً من صندوق الطعوم وهو يصغي إلى صوت الماء المتدفق تحت الجسر مع أصوات المساء، وحفيف أجنحة الوطاويط التي تصطاد فوق الماء، وصوت الاجترار الصادر عن مجموعة من الأبقار المستلقية التي راقبته منذ وصوله إلى أن تسلق الجدار. تقدم ببطء إلى جانب النهر، ورمى صنارته فوق الماء بحركة سريعة وخفيفة تنم عن موهبة فطرية. رمى روري السنارة ورمى معها همومه. حمل صوت الماء المتدفق الراحة والسلوان إلى روحه القلقة. عندما قفزت سمكة سلمون لالتقاط الطعم، ضربها بحماسة وأمسكها حتى تمكن من إنزالها أرضاً، ثم قتلها بضربة حادة على رأسها، ووضعها في كيسه. استاء نوعاً ما من مقاطعة سلامه. عندما وصل في مشوار صيده إلى أعلى النهر، كان الظلام بدأ يحل. اصطاد أربع سمكات جيدة، ووقف ينظر إلى منزل لويزا، متردداً هل يعود إلى المنزل دون أن يمر بها أو أن يذهب لزيارتها، اتخذ القرار الأخير. نظف السمك بما بقي من ضوء، ثم لفها بأوراق الأشجار، ومشى عبر الحديقة. التف وراء المنزل ليجد المفتاح الذي تبقيه لويزا مخبأً قرب الباب الخلفي، ودخل متحسساً طريقه في الظلام باحثاً عن مقبس النور. انتبه إلى رائحة طبخ وإلى دفء متبقٍ في جو المطبخ، قبل أن ينتبه إلى الذيول الضخمة التي لوّحت ملقية التحية من مكان تكومها متكاسلة قرب الموقد. أضاء النور، "أنت كومة من الأشياء السمينة لا تصلح أن تكون كلاب حراسة"، انحنى ليمسد رؤوس الكلاب، "لنفترض أنني كنت قادماً لسرقة العمة لويزا؟ ماذا كان سيحدث، إذاً؟"، بدت الكلاب مستمتعة بالملاطفة. نهض الكلب الأكبر بينها وذهب ليتشمم السمك الذي وضعه روري على المنضدة. خلع روري حذاءه، وأخرج طبقاً من الخزانة. رتب الأسماك بعناية رأساً إلى ذيل ووضعها في الثلاجة.

"هل هي في الصالة تشاهد التلفاز؟"، نظرت الكلاب إليه بسعادة، "أو ذهبت إلى النوم؟". لوحت بأذيالها بأفواه مفتوحة تماماً. "سأذهب وأرى، ابقوا أنتم هنا". لكنه حالما فتح الباب الواصل إلى الرواق، اندفع روفوس، أحد الكلاب، اندفع خلفه وسبقه مجبراً روري أن يتبعه.

كان الرواق غارقاً في الظلام، وصوت الساعة القديمة وحده ما كان يكسر الصمت. وجد روري الصالة غارقة في الظلام كذلك.

"بحق الجحيم، لا بد أنها أوت إلى الفراش. أين ذهب ذاك الكلب؟"، وقف مصغياً، لا يرغب في إزعاج المنزل الغارق في النوم. يمكنه أن يترك ملاحظة أو يتصل بها في الصباح، لكن الكلب صعد الدرج وبدأ يخربش على باب لويزا، وبذلك فالحيوان قد يوقظها إذا كانت نائمة.

فرقع روري بأصابعه، وصفّر بهدوء، لكن بدا أن الكلب لم يسمع. أنار روري الضوء الذي في أسفل الدرج ووجد طريقه إلى غرفة نوم العمة، وللمفاجأة، لم يكن الكلب واقفاً أمام بابها ولا في أي مكان آخر يمكن رؤيته فيه.

"عليه اللعنة"، صعد روري الدرج على رؤوس أصابعه وبدأ البحث. لم يكن الكلب في الطابق الأول، فصعد إلى الثاني.

أمام غرفة النوم التي كان يظنها له، بما أنه كان قد أمضى فيها عدة عطل سعيدة، جلس الكلب ورأسه مرفوع يترقب. فرقع روري بأصابعه، لكن روفوس كان يشب بنشاط أكثر. عندما انتبه روري إلى وجود ضوء في الغرفة، طرق الباب، ففتحه ودخل وراء الكلب.

أمام المرآة المتأرجحة التي عرفها طوال حياته، المرآة التي كان يتبختر أمامها ملتفاً بمنشفة الحمام متظاهراً أنه إمبراطور روماني عندما كان في الثامنة من عمره، أمام هذه المرآة كانت الفتاة التي أعطاها قبعة العمة كاليبسو واقفة تجرب القبعة في وضعيات أمام المرآة، ولم تكن ترتدي شيئاً.

"مرحباً"، قالت هيبي وهي تشعر بالمفاجأة.

"كنت أحاول أن..."، استوعب روري الأمر، يا إلهي، أي فتاة!... "أن أمسك الـ... هو صعد راكضاً للأعلى..."، ألن تستر نفسها، "كنت أخشى أن تكون العمة لويزا...".

"ماذا؟"، خلعت هيبي القبعة، ووصلت إلى قطعة من ثيابها الداخلية لفتها حول خصرها.

"لديها ألم في الرأس"، حدق روري مسحوراً.

"لا، ليس لديها. ذهبت إلى النوم باكراً لأنها كانت تعمل في الحديقة طوال اليوم"، كانت هيبي ترجع القبعة إلى حقيبتها المخططة، "كانت متعبة، هل تريد استعادة القبعة؟"

– "أوه، لا".

– "ماذا تفعل هنا، إذاً؟".

"أنا فقط... كنت أصطاد... وضعت بعض سمك السلمون.."، كان روري ما زال يحدق مفتوناً.

– "أين؟".

”في الثلاجة“، كانت هيبي تمسد روفوس الوحشي وهو يراقب يدها التي تلاطف رأس الحيوان.

”جيد“، راقبته، هل كان منتبهاً أن لديه انتصاب؟

– ”هلّا ارتديت تلك القبعة ثانية؟“.

”بالطبع“، أخرجت القبعة ولبستها. راقب روري ظهرها، ذراعيها المرفوعتين لارتداء القبعة، وانعكاس صورتها في المرآة. استدارت.

”لم لا؟“، أشارت بإيماءة لطيفة إلى السرير.

لا يذكر روري شيئاً مما حدث بعد ذلك: هل خلع سرواله أو خلعت هيبي القبعة. تشمم روفوس الغرفة، وحين وجد كرسياً بذراعين استقر فيه ونام.

عندما استيقظ بتأثير ضوء الشمس المتسرب من الستائر نصف المسدلة، انتبه روري إلى وجود عينين تراقبانه عن بعد إنش من وجهه.

”نظري قصير جداً“، قالت هيبي.

”أوه، لم أكن أبداً قادراً على فعل...“، حاول أن يتحدث، ”ليس بصورة صحيحة... لذا أنا... ليس مثل...“.

– ”حسناً، هذا جميل، أليس كذلك؟ وأنت يمكنك، أليس كذلك؟“.

– ”نعم، أوه، نعم، كان ببساطة...“.

– ”مرة أخرى إذاً، قبل أن أنهض؟ ما رأيك بذلك؟“.

لم تكن تضحك منه، لم تكن تسخر منه كما فعل الآخرون.

”رائع، رائع، رائع“، قالها مغنياً.

”بهدوء“، قالت وهي تلاطفه.

”لم أكن أبداً قادراً... ثم فجأة رأيتك في القبعة، أنا...“.

– ”هل كانت عمة أبيك ترتديها في السرير؟“.

ضحك روري وهو يضم هيبي بين ذراعيه. ”عمتي لم تكن تحتاج القبعات لتفعل الأمر“.

– ”ولا أنت ستحتاجها“.

سألها روري عند ذلك: ”من أنت؟ ماذا تفعلين هنا؟“.

”أنا طاهية مؤقتة، إحدى وسائل الدلال لدى عمتك. ألم تخبرك أبداً؟“.

– ”لا، حسناً، نعم. لقد سمعت أنها أحياناً...“.

”أنا أيضاً...“، توقفت هيبي عن الكلام.

''ماذا؟ أخبريني، أيضاً ماذا؟''، تملكه حزن مفاجئ.

''أنا أيضاً عاهرة. أفعل هذا مقابل المال''، سيقفز الآن من السرير، مسبباً إعصاراً، ويهرب. تنهدت هيبي واستدارت بعيداً، لكن روري قال بهدوء: ''أحب كلمة محظية أكثر''.

''أوه''، كانت مذهولة بنبرته.

– ''أستطيع أن أدفع لك، أنا ثري''.

– ''دعنا نناقش ذلك لاحقاً إذا أردت ذلك. عليّ أن أنهض وأحضر الفطور. يمكننا أن نتناول السلمون. هل تحب عمتك السلمون؟''.

– ''تقول هذا عندما أحضره''.

''تعال لنتحدث وأنا أستحم''، نهضت هيبي من السرير واختفت في الحمام المجاور، كان الحمام غرفة من الطراز القديم، وقد كانت في يوم ما غرفة ملابس تم تحويلها في ما قبل الحرب الكبرى إلى حمام. كان حوض الاستحمام له محيط ماهوغاني، وكذلك المرحاض أيضاً، والجدران مغطاة بورق مزخرف بالكثير من الورود. كان هناك موقد صغير في إحدى الزوايا بتصميم عثماني وكرسي بذراعين مغطى بالكريتون ليتلاءم مع الجدران. كل ذلك كان خلفية رائعة لهيبي التي ملأت الحمام وهي تتحسس درجة الحرارة، ثم تدخل الحوض وتستلقي على ظهرها.

''لم لا تجلس؟''، أشارت إلى الكرسي. جلس روري، الذي لف منشفة حول وسطه، إلى الكرسي.

أتى روفوس واستلقى على محيط الحوض وحدق إلى وجه هيبي من خلال البخار. كان في نيته أن يلعق وجهها، إن أمكن، ويتذوق الصابون. ضربت هيبي أنفه بأصابعها المليئة بالصابون.

''أنت تفسدينه''، شعر روري بوخزة حسد لوجود الكلب على تلك المقربة منها، وقبوله ملاطفتها على نحو عادي.

– ''إنه كلب طيب عزيز، أنا أحبه''.

جلس روري يراقبها وهي تفرك رقبتها بالصابون، وتمرر الإسفنجة على وجهها، وترفع قدميها من الماء وتنظف أصابعهما.

''كيف دخلت؟''، سألت.

– ''أنا ابن أخ لويزا، أعلم أين تخفي المفتاح''.

– ''فهمت''.

– ''تسمح لي بالصيد في مياهها كلما شعرت بالكآبة. اسمي روري غرانت''.

– ''أعلم، موجود على الكيس الذي كانت القبعة فيه''.

– ''بالطبع، كم سخيف...''.

– ''لماذا لا تنهي جملك أبداً؟''.

– ''أعتقد أنها لا تستحق أن تنهى''.

– ''يمكن أن يصبح ذلك عادة مزعجة جداً''.

– ''لم...''.

''أفكر... قل أفكر. قلها''.

– ''أنت تسخرين مني، أفكر''.

– ''جيد، اسمي هيبي''.

''هيبي، جنبة جميلة، أعني...''، تلعثم روري.

– ''ماذا؟''.

– ''شجيرة. قصدت شجيرة''.

''لم تقصد''، وقفت هيبي في الحمام، ''هل يمكنك أن تعطيني منشفتي، لقد لففتها حولك''، مدت يدها.

''أوه! آسف''، أعطاها المنشفة، ''من الأفضل أن أرتدي ثيابي''، عاد باتجاه الغرفة.

– ''حسناً، أراك في الأسفل. سأعد لك فطوراً''.

عند الباب، نظر روري إلى هيبي التي كانت تنشف نفسها بنشاط وحيوية.

– ''خذ روفوس إلى الأسفل، يجب أن يخرج للتبول''.

ارتدى روري ثيابه، فرقع بأصابع للكلب وأسرع نحو الأسفل. حيته الكلاب في المطبخ مع روفوس وعلت أصواتها، فيما تركها روري تخرج إلى الحديقة حيث اختفت في الضباب المرتفع من النهر، الذي تتبعثر أشعة الشمس خلاله. وقف روري غافلاً مبتهجاً.

في المنزل، كانت لويزا تستمع لأخبار الساعة السابعة. عادت الكلاب مليئة بالبهجة تتدافع متحضرة ليوم سعيد آخر. ابتسم روري غير مصدق، هل كان ما حدث حقيقة؟ كانت هيبي قد أدارت طاحونة القهوة في المطبخ وراءه، ما تسبب في ضجيج مزعج.

''ضجيج شنيع''، كانت ترتدي ثوباً قطنياً زهري اللون، ومريلة بيضاء. صفّفت شعرها باحتشام وربطته على مستوى الكتف، ولم تكن تضع مكياجاً.

– ''اجلس روري، لا تقف في طريقي''.

– ''ألا أستطيع المساعدة؟''.

”لا. فقط اجلس وأنا أعد الفطور لنا“، كانت عملية على نحو رهيب وهي تعد القهوة: تختار سمكة للطهو، تمد غطاء فوق المنضدة، تضع ثلاثة أطباق، وبجانبها: شوك، سكاكين، ملاعق، فناجين مع صحونها، ملح، فلفل، زبدة، مربى... كل شيء وضع بسرعة ورشاقة على المائدة، وشغلت محمصة الخبز.

”عندما قلت ذلك...“، اختنقت جملة روري في حنجرته العصبية.

– ”ماذا؟“.

– ”أنك... أن... أن...“.

– ”أنني عاهرة؟“.

– ”امممم، نعم“.

”أنا أنام مع الرجال مقابل المال. هل فهمت؟ عليّ أن أكسب عيشي. لدي التزامات محددة مثل فواتير الغاز لأدفعها“، كذلك تكاليف مدرسة، فكرت في سرها، ”الأشياء الوحيدة التي أجيدها، روري، هي الطهو. لذا، أنا أؤدي أعمال طهو مؤقتة، وكما اكتشفت أنت، المضاجعة“.

قال روري معترضاً: ”ممارسة الحب“.

”لا، روري، ليس ممارسة الحب، إنها ليست ممارسة للحب، إنها...“، توقفت هيبي لبرهة، تبحث عن كلمة تكون مناسبة له.

– ”ما هو، إذا لم يكن ممارسة للحب؟ لقد جعلتني أحبك“.

”نحن لسنا في الثلاثين والتسعمئة وألف“، صبت له القهوة، ”هل تريد حليباً أو سكراً؟“.

– ”الاثنان من فضلك. ماذا كانت الليلة الماضية، إذاً؟“.

”عينة مجانية. إذا استمتعت بها وأردت أن تكررها سيكون عليك أن تدفع“، هذا أفضل بكثير، فكرت هيبي، أن نناقش الجزء المالي بسرعة، ثم يمكن للمرء أن يسترخي ويستمتع، ”تلك هي شروطي“، قالت برفق، ”لا مال، لا مضاجعة“.

”لا تسمي الأمر هكذا!“، انتفض روري.

”رائع!“، ضحكت هيبي، لكن سخريتها لم تكن جارحة، ”أشعر بالود جداً“، قالت وهي تنظر إلى شفة روري العلوية الطويلة وإلى عينيه اللتين كعيني أرنب بري من فوق حافة فنجانها.

– ”هل هناك آخرون... امم... رجال آخرون؟“.

– ”نعم“.

– ”كثر؟“.

– ”ذلك عملي. من غير المحتمل أن تلتقيهم، وما نفعله، أنا وأنت، لا يخصهم، صحيح؟“.

”صحيح“، قال روري بشجاعة، ”إذاً ماذا... اممم... ماذا يحدث؟“.

– ”أوافيك عندما أستطيع“.

– ”مثل موعد طبيب الأسنان“.

– ”تقريباً“.

كانا يضحكان عندما دخلت لويزا المطبخ. ”مرحباً، روري“، قبلته وهو يقف، ”لقد استيقظت باكراً هذا الصباح. هل حالفك الحظ في النهر؟ أوه، أرى أنك قد وُفّقت بصباح جيد“. نظرت إلى السمك الذي كانت هيبي تعدّه في المقلاة. ”كم هو لذيذ السلمون على الإفطار. أرى أنك التقيت هيبي، ألست محظوظة أن أحصل على هيبي لأسبوعين؟ هيبي تعني الحصول على كل أنواع الطعام الرائعة دون عناء السفر إلى فرنسا“. تفحصت عيناها وجه روري غير الحليق بسرعة، ”متى أتيت إلى هنا؟ لم تنبح الكلاب عند قدومك“.

”لا، لم تفعل“، بدا محرجاً.

”قهوة؟“، رفعت هيبي إبريق القهوة عالياً.

”نعم، من فضلك“، أجابت لويزا، ”أظن أن هناك أحداً عند الباب“، بدأ روفوس والكلبان الآخران النباح بقوة.

”هدوء!“، صاحت لويزا، ”هدوء أيها الوحوش“.

اتجهت هيبي نحو الباب الخلفي لتجد شرطياً بزي رسمي يقف خارجاً.

”هل هناك أحد يملك سيارة فولفو برقم...“، سأل وهو ينظر إلى دفتر ملاحظاته.

”نعم، أنا“، قال روري وهو ينهض.

”ركنتها في مكان غير آمن نوعاً ما، إذا كان يمكن أن أقول ذلك. صباحك سعيد سيدة فوكس“، قال الشرطي ملقياً التحية على لويزا.

– ”صباح الخير أيها الشرطي، ما رأيك في فنجان من القهوة؟“.

– ”لا، شكراً لك في كل الأحوال“.

”سأحركها“، قال روري وهو يخرج وراء الشرطي.

”هناك الكثير من الازدحام على طول تلك الطريق، يذهب الناس إلى العمل. تركت النوافذ مفتوحة، لن يكون تأثير الندى الليلي جيداً فيها“.

”ولن يضرها، كذلك“، قال روري.

"عد لإكمال فطورك عندما تغير مكانها"، نادت لويزا من الخلف، "إلى اللقاء، أيها الشرطي". راقبت ظهره ثم عادت إلى المطبخ، "حسناً، الآن يمكننا أن نتناول الفطور في سلام". ابتسمت لهيبي التي تطهو السلمون. لم تتوقع رداً من هيبي التي التزمت الصمت بلطف الأمر الذي زاد احترام لويزا لها وهي تتذكر قولاً كان زوجها الحبيب يردده: "أبداً لا تفسر، أبداً لا تعتذر".

١٤

''كنت أتساءل''، قالت لويزا وهي تضع منديلها جانباً، ''إذا كنت أستطيع أن أطلب منك أن تشتري بعض الأشياء لي، هيبي، أنا حقاً أكره ساليسبري عندما تكون مزدحمة بالسياح. هل سيكون أنانية كبيرة مني أن أطلب منك هذا؟''.

''بالطبع لا''، قالت هيبي التي كانت قد احتفظت بصمتها خلال الفطور وهي تتساءل هل كانت علاقتها مع قريب لويزا قد يعرض عملها للخطر. التقت نظراتهما، فسألت هيبي: ''هل هناك أشياء كثيرة؟''.

''شيء أو اثنان سجلتهما، وأريد تبديل مجموعة الكتب من المكتبة''، أجابت لويزا.

– ''هل يمكنني فعل ذلك؟ أنا أكاد لا أعرف ذوقك في القراءة''.

''أحب القصص المثيرة''، قالت لويزا، ''الجرائم، وكلما كانت معقدة، كان أفضل. أنا لا أفهم الحبكات أبداً، لكنني أجدها وسيلة ممتازة للنوم، أفضل من المنوم، ستكونين أكثر من قادرة على اختيارهم لي، كما أنني لا أفضل الأميركية''.

''ولا لحم الخنزير والبيض''، قال روري الذي استنتج خطأ أن عمته ظنت أنه استيقظ باكراً، متحدثاً بخبرة سنوات، فقد كانت لويزا تعترض على الكتب التي عليها آثار من الفطور، قطع البيض، بقع شاي، فتات... كانت عيناه تنتقلان بين هيبي ولويزا.

''أنا أعترض أيضاً على الذين يتصنعون الحياء فيشطبون الكلمات المؤلفة من أربعة حروف مثل: غائط وضاجع''، قالت لويزا بتكلف، ''كذلك هؤلاء الذين يصححون الأخطاء القواعدية ويكتبون في الهوامش''.

''أخبرك شيئاً''، صاح روري، ''بإمكاني...''.

''ماذا بإمكانك؟''، راقبت لويزا بدهشة روري يندفع متهوراً ليعرض اصطحاب هيبي.

– ''أستطيع أن أصحب... هيبي و... أعيدها عندما أرجع إلى الصيد''.

''هل ستصطاد هذا المساء؟''، قالت تحت تأثير المفاجأة.

''نعم''، قال روري، ''الطقس... ملائم''.

– ''رائع، كم أنا سعيدة أن لدي مجمدة كبيرة، هل يناسبك هذا الترتيب، هيبي؟''.

أومأت هيبي موافقة، ''ربما أجد شيئاً خاصاً للعشاء''، قالت.

"إذاً وافقت"، نهضت لويزا، "سأقضي يوماً كاملاً في الحديقة دون انقطاع. استمتعا بوقتكما، ولا داعي للعجلة"، غادرت المطبخ تتبعها كلابها.

– "يمكنني أن أدعوك...".

– "ماذا؟".

"إلى الغداء"، لفظ روري الكلمة كأنها كانت خطيرة.

– "إذاً قل غداء لا تتركها معلقة في الهواء. أراهن أن والدك الجنرال كان ينهي جمله. لو لم يكن يفعل، لكانت الحروب أصبحت أسوأ".

"وربما أفضل"، فكر روري في والده، "ما زال حيّاً. هل لديك أب؟".

"سأنظف المطبخ وأجهز نفسي"، تجاهلت هيبي سؤاله. ليس مرجحاً أن يكونا في ساليسبري، هما يذهبان إلى هناك مرة في الشهر فقط، وأنا، فكَّرَت، تغيرت كثيراً، لن يتمكنا من معرفتي. "هل يمكنك وأنا أحضر نفسي أن تجد كتب السيدة فوكس وتعد قائمة بما تريده؟ دعنا نستفد منك"، أنهت كلامها بطريقة قاسية قليلاً لأنها شعرت بالانزعاج عندما انتبهت إلى أنها ما زالت غير متأكدة من روري نوعاً ما. فقط، لو لم يكن قريب لويزا، فإنه كان سيكون مناسباً تماماً ليملأ الفراغ الذي تركه تيري.

راقبت لويزا روري وهيبي يبتعدان بالسيارة، وراحت تستمع بالتجول في حديقتها وكلابها تمشي خلفها، تتوقف لتخدش شيئاً ما في الجوار، تلاحق الحشرات، غارقة في اللهو، مستمتعة وهي في منتصف العمر بالأمان الذي تؤمنه لمالكتها، مغدقة في حبها لأنها تستحقه، مستعدة لإسقاط الغرباء من أجلها رغم أنها نادراً ما تعض. استمتعت لويزا في خيالها وهي تزيل الورود القديمة من بين النباتات بمحادثتها التالية مع برنارد عندما ستسليه باجتماع منافسيه القديمين: كريستوفر روتر وغرانت. قاطع إحساسها بالسلام نباح الكلاب لوجود رجل غريب قادم نحو المنزل. لم يلقِ الرجل بالاً للكلاب التي تبعته وتدافعت عند ساقيه. شاهدت لويزا شفتيه تتحركان. "هدوء!"، صاحت، واستجابت الكلاب لها بسرعة، فاتجه الرجل نحوها.

– "السيدة فوكس؟ أحمل لك أمانة من برنارد كويجلي العجوز. اسمي جيم هوكستابل".

صافحته لويزا، "هل هو عجوز جداً؟".

– "إذا جاز التعبير. فكرت أن أمر في طريقي لأنني ربما أكون أسرع من البريد"، تناول مغلفاً سميكاً من جيبه وسلمه للويزا. "ألن تعدّيها؟".

"لا أظن أني بحاجة إلى ذلك"، أحبت لويزا هيئة رسول برنارد.

– ''تعال ندخل إلى المطبخ، سأقدم إليك شراباً''.

''شكراً لك''، مشى إلى جانبها.

– ''... أو وجبة خفيفة. يمكننا تناول وجبة خفيفة قبل أن تتابع طريقك، هل مشوارك بعيد؟''.

– ''كرونول''.

''إلى برنارد؟''، أشرق وجهها.

– ''نعم''.

– ''يجب أن تخبرني كيف حاله. مضى وقت منذ رأيته آخر مرة، عمر''.

''أظن أنه بخير''، قال وهو يسير قربها، ''هل تعرفينه منذ وقت طويل؟''.

– ''أكثر من خمسين عاماً''.

– ''إنه حقاً وقت طويل''.

''هذا يتوقف على الطريقة التي تراه فيها''، عادت لويزا في ذكرياتها إلى ذاك الوقت الذي رأت فيه نفسها وبرنارد شابين، هي في العشرين وهو أكبر منها بقليل. ''كيف يعيش؟ هل تراه كثيراً؟''.

– ''عندما أكون في كرونول أبقى عنده. هل تعرفين منزله؟''.

– ''لا، حدثني عنه''.

– ''إنه منعزل جداً، يعيش فيه مع قطته وكلبه''.

– ''فيذرز''.

''نعم، كلبه يدعى فيذرز''، نظر جيم باهتمام إلى صديقة برنارد العجوز.

''لديه مجموعة رائعة في بيته، أحياناً يشتري مني أشياء، وقليلاً ما يبيع''، كانت جميلة في يوم ما، فكر جيم.

– ''إذاً ما زال تاجراً نشيطاً؟''.

– ''يمكنك قول ذلك، يطلب مني أحياناً أن أبيع له أشياء''.

''إذاً، هو يثق بك''، نظرت لويزا إلى جيم باهتمام.

''آمل ذلك''، انتبه جيم إلى نظراتها.

دخلا المنزل، ''دعنا نرى ماذا يمكن لنا أن نأكل. هل الوقت مبكر جداً على تناول طعام الغداء بالنسبة إليك؟ طاهيتي في ساليسبري''، لم تنتظر لويزا جواباً وإنما بحثت في المطبخ عن الأشياء اللذيذة.

– ’’أوه! خبز. إنها تصنع خبزاً... لذيذاً. آه، فطائر اللحم، ها هي، هي تعدها أيضاً. ونبيذ، هذه زجاجة نبيذ وسلطة، إنها تعد مزيجاً رائعاً، ها هي، وإذا كان لدينا متسع يمكننا تناول الفاكهة والكعك. كيف ترى ذلك؟ هل أنت جائع؟‘‘.

’’بدأت أشعر بالجوع‘‘، قال جيم مقدراً معاملة لويزا.

’’إذاً، اجلس‘‘، وضعت لويزا الأطباق والكؤوس، وسكبت لجيم كأساً من النبيذ، ’’يمكننا أن نختتم مع القهوة، مع أنني لا أجيد إعدادها كما تفعل طاهيتي‘‘.

’’ربما يمكنك أن تدعيني أفعل ذلك. لقد تعلمت كيف أعد القهوة في حانة في إيطاليا‘‘، قال جيم.

’’بالتأكيد، سيكون ذلك ختاماً لوجبتنا الخفيفة. حدثني أكثر عن برنارد. كيف يبدو في هذا العمر؟‘‘، سألت لويزا.

– ’’إنه يخادع الزمن فيبقي أثره بعيداً عنه‘‘.

’’يقطع البلدة سيراً على الأقدام ليجري اتصالاً، هذا يبقيه رشيقاً‘‘، قالت لويزا.

– ’’إنها مسافة طويلة، طويلة جداً في الطقس السيئ. توسلت إليه لكي يركّب هاتفاً في منزله‘‘.

’’لن يفعل‘‘، قالت لويزا، وهي تضع الزبدة على الخبز.

– ’’برنارد هو مبتكر تعبير: لا تتصل بي، سوف أتصل بك، كان دوماً عنيفاً في الحفاظ على خصوصيته‘‘.

’’إنه شخص متعِب‘‘، تذكر جيم بغضب الأوقات التي كان فيها العثور على برنارد مستحيلاً، وتطلب الأمر منه رحلة طويلة إلى بنزانسي، ’’لا يرد على الرسائل. هل كتب لك مرة؟‘‘، سأل جيم، ثم تمنى أنه لم يفعل، فلا يحرك آلامها.

’’لا‘‘، لم يظهر على لويزا أي تعبير، ’’هل تريد المزيد من فطائر اللحم، لا؟ فاكهة، إذاً‘‘.

– ’’كانت الفطائر ممتازة، لذيذة، طاهيتك موهوبة‘‘.

– ’’سأخبرها ذلك. إنها هنا لأسبوعين فقط. أنا أرفّه نفسي بالحصول عليها مرة أو مرتين في العام. لنكن صريحين: السفر لمن هم في مثل سني أمر شاق، لم أعد أهتم به. لذا لدي هذه الفتاة الرائعة. إنها تطبخ على نحو رائع، وعندما تكون هنا تملأ لي المجمدة. لذلك، يكون لدي كل تلك الأشياء اللذيذة لمدة طويلة، ألا تظن أن هذه فكرة جيدة؟‘‘.

’’رائعة‘‘، حاول جيم أن يتخيل هذه المرأة مع برنارد في شبابهما.

’’هناك اعتبارات أخرى‘‘، قالت لويزا، ’’لا يمكنني أن أترك حديقتي ولا كلابي‘‘. نظرت لويزا إلى الكلاب المستلقية قرب الموقد، ’’وإذا رن الهاتف، أكون هنا لأرد عليه‘‘.

لا تزال تحب برنارد، فكر جيم مفتوناً. كيف يكون الأمر في هذه السن المتقدمة؟ هل هو حب عقلي محض؟ ''هل أعد القهوة؟'' سأل، ''أنا متأكد أنني لا أستطيع منافسة طاهيتك لكنني سأجرب''.

''شكراً لك. لقد ذهبت إلى ساليسبري مع ابن أخي. كان هنا للصيد. تناولنا السلمون على الفطور''، ابتسمت لويزا وهي تتذكر مظهر روري غير الحليق، ''لا بد أنه استيقظ باكراً جداً. سوف يعود إلى الصيد مرة ثانية الليلة''. ضحكت وهي تفكر في روري، ''آسفة أنك لم تتمكن من رؤيتهم''. قالت وهي تراقب جيم يعد القهوة، ''ربما يمكنك أن تبقى، هل ترغب في البقاء الليلة؟ لن يكون هناك مشكلة بما أن طاهيتي هنا. ستحضر بعض الأشياء اللذيذة من ساليسبري من أجل العشاء''.

– ''للأسف، لا أستطيع، علي أن أتابع طريقي''.

''هل تأخذ شيئاً أو اثنين إلى برنارد من أجلي، بما أنك ستمر به؟''، أستطيع أن أثق بهذا الرجل، فكرت لويزا، وهو جذاب ظريف.

– ''بالطبع''.

– ''يبيع برنارد أشياءً لي. عندما ننهي قهوتنا، دعني أرى ما الذي أستطيع أن أتخلى عنه. إنها مسألة توازن، الطهو مقابل الأشياء''.

''أفهم''، شعر جيم بالحزن.

''الطهاة مكلفون''، قالت لويزا، قد يكون هذا الرجل أفضل بكثير بالنسبة إلى هيبي من روري، فكرت، أتساءل إذا كان متزوجاً.

– ''نعم''.

''لكنها تقدم إلي الكثير من الأشياء الممتعة''، راقبته وهو يعد القهوة التي بدت لذيذة، ''أفضل حتى من الطعام''. استغربت من نفسها أنها كانت تشير إلى هيبي بـ''الطاهية'' طوال الوقت. قادته عبر المنزل، وبينما هو يشاهد أثاثها بإعجاب، فتحت درجاً وصاحت: ''آه، هذا''، ثم مرة ثانية: ''آه، هذا وهذا''، أعطته قطعاً من المجوهرات وصندوق عطاس وساعة يد، وضعتها في يده، ''ضعهم في جيبك حتى لا أراها''، ولأنها رأت دهشته فسرت له: ''إذا خبأت تلك الأشياء ربما أبيعها وأنساها، فيكون ألمي أقل لفراقها، أظن أن ذلك ينطبق على الهدية''.

''سأعطيك إيصالاً بها''، قال جيم.

''لا، لا، برنارد يثق بك، هذا كافٍ''، لكن جيم كتب الإيصال وهي تراقبه.

عندما وقفت قرب سيارة جيم لتودعه، قالت: ''استمتعت برؤيتك، قل له أن يتصل بي''.

''سأفعل''، هذا مهم، برنارد ليس عجوزاً تافهاً بالنسبة إليها.

– ''أتمنى لو كان بإمكانك البقاء للقاء طاهيتي''.

– ''اشكريها على غدائي. سأقول له أن يتصل بك''.

عجوز وحيدة، فكر جيم، وهو يبتعد بسيارته، لماذا قد أريد أن ألتقي طاهيتها؟ أدار مذياع سيارته واسترخى معدّاً نفسه لقيادة طويلة إلى كرونول، وهو يحسب بينما كان يستمع لموسيقا ما بعد الظهر قيمة الأشياء التي أعطتها له لويزا. مهما كانت كلفة الطاهية، سيكون بإمكان لويزا أن تدفع لها عدة مرات.

بينما هي تقتلع الأعشاب من على أطراف حديقتها، والشمس تدفئ ظهرها، مع صوت النحل بين الأزهار، فكرت لويزا أن صديق برنارد رجل وسيم طويل، كانت على الدوام تحب الرجال طويلي القامة، شعره لطيف، لا بد أنه قبل أن يغزوه الشيب كان بلون نادر تحبه، عيناه جميلتان، وفمه ظريف. كان من النوع الذي يعجبها، من النوع الذي كانت لتتزوجه. إذاً، لماذا اهتز قلبها بشدة عندما تحدث عن برنارد، لماذا بعد نحو خمسين عاماً كان برنارد، برنارد الذي كان صغيراً ولم يكن يوماً وسيماً أو مميزاً.

''آه''، تأوهت لويزا وهي ترتاح على كعبيها، وترد شعرها عن جبينها، ''لقد جعلني أضحك''. هزت الكلاب ذيولها سعيدة لأن لويزا كانت سعيدة. ابتسمت لويزا وهي تتذكر السرير الكبير في فندق إنكلترا في باريس، قبل سنوات عدة، مع ضوء الشمس المتسرب من ستائر القطيفة الحمراء، ووجبات الفطور المؤلف من القهوة مع الكرواسون. ''كان وغداً''، قالت للكلب روفوس المفضل لديها، ''وغد، لكنه لا يزال يجعلني أضحك''. ركع روفوس أمامها يدعوها إلى اللعب وهو يلوح بذيله الريشي، ''لكنني لم أستطع أن أكون جزءاً من فريق؟''، مصرحة بالشك الذي حاذرت على الدوام، بألا يتأكد أنها لم تكن الفتاة الأولى في حياة برنارد، التي اصطحبها إلى تلك الغرفة في الفندق في تلك الأيام البعيدة جداً، التي تبدو في بعدها أوضح من الأمس، حقيقية أكثر بكثير من الحاضر.

١٥

كانت جنيفر ريفز تعتقد بثقافتها الذكورية، وهي تفكر في زوجها، أن ابنها وأصدقاءه يجب أن يبدؤوا نهارهم بفطور جيد. تناول سيلاس ما وضع أمامه، حساء الشعير، تلاه طبق البيض مع لحم الخنزير مع الشاي، واستمع إلى مايكل يتجادل مع جوليان حول ميزات المركب الذي كان لديهم في العام السابق، وهم يقارنونها بالمركب الذي كانوا سيبحرون فيه اليوم. بينما هما يتحدثان، عرف أن مضيفيه لا يجدان صعوبة في الإبحار إلى فرنسا أو هولندا وأن جوليان وجنيفر قد وصلا إلى الساحل منطلقين من ساسكس خلال الصيف، وأن الأمر استغرق منهما عدداً من عطل نهايات الأسبوع كي يصلوا بالمركب إلى سيلي، والعودة إلى لندن بعد كل رحلة. كان متأثراً بالجهد الكبير جداً. فهم من الحديث أن السيدة ريفز كانت تعطيه مكانها في المركب في رحلة اليوم، وعندما اعترض بأدب على ذلك، قالت جنيفر: ''لا، لا، سيلاس، أنا لا أمانع على الإطلاق، لدي الكثير لأفعله هنا وأنت لم تذهب أبداً إلى صخرة بيشوب، يجب أن تذهب، ستحبها، لقد زرتها كثيراً، ألم أفعل؟''. وجهت السؤال إلى زوجها وابنها، وهي تظهر أسنانها الجيدة ولثتها السليمة.

''أمي بحارة رائعة''، قال مايكل وفمه مليء بالطعام، ''أعطني المربى، أبي''. دفع جوليان المربى نحو ابنه.

– ''هل سنأخذ غداءنا؟''.

''السيدة شيء أعدت الشطائر، إنها رائعة في البحر''، قالت جنيفر.

تساءل سيلاس ماذا قد يكون اسم السيدة شيء.

''البسوا جيداً وخذوا ستراتكم جميعاً، قد يصبح الجو بارداً في الخارج. هل أعار أحدكم حذاءً طويل الساقين لسيلاس؟''، سألت جنيفر.

قال مايكل: ''يمكنه أن ينتعل حذائي، لدي زوج إضافي''.

''متى الانطلاق؟''، سأل إيان.

''بعد نصف ساعة''، علا صوت جوليان وهو يعلن، ''إذا لم تكونوا جاهزين سأنطلق دونكم''.

''حان وقت إفراغ أحشائنا''، قال أليستر، الأخ الأصغر، وهو يغادر المائدة، ''حجزت المرحاض الذي في الطابق العلوي''. لم يعلق أحد.

كان سيلاس ينتعل حذاء مايكل الاحتياطي الذي كان كبيراً جداً، ما جعل السير به صعباً، ويرتدي سترته المفضلة، فيما حمل سترة هيبي الجرنسي في يده من أجل الحاجة. وقف سيلاس ينتظر الآخرين، لاحظ أن الرياح لم تهدأ خلال الليل وأن البحر بين تريسكو وميناء سانت ماري كان متلاطم الأمواج. عندما حضر جوليان والفتية انطلق الجميع معاً يحملون سلال الطعام، ومجموعة من الأدوات التي كانت غريبة بالنسبة إلى سيلاس، لكنه عرف أنها ستكون ضرورية على المركب. أعطاه جوليان سترة نجاة، وعلمه أليستر بتصلف كيف يرتديها. استقلوا زورقاً قابلاً للنفخ عند رصيف الانطلاق، وانطلقوا عبر المياه إلى ميناء سانت ماري حيث كان قارب ريفز راسياً. لم يكن سيلاس قد استقل مركباً قابلاً للنفخ من قبل. استمتع بالتجربة، وقد جعلت الريح عينيه تدمعان. عندما وصلوا إلى المركب في المكان الذي سيبحرون منه، تسلق وراء مايكل وجلس في المكان الذي أشار إليه جوليان ليجلس فيه بعيداً عن طريق الأذى. شغل مايكل وأليستر وإيان أنفسهم حول المركب منفذين أوامر جوليان. ارتدى سيلاس خفية سترة هيبي فوق سترته وثنى أصابع قدميه في الحذاء الكبير جداً ليحافظ على الدفء وهو يعيد تعديل سترة نجاته.

تبادل جوليان والفتية التحيات بالصراخ مع الناس الموجودين على الشاطئ. جلس سيلاس وهو يأمل أن جهله بالإبحار لن يظهر، متسائلاً هل قد يتعلم يوماً ما دور كل حبل من هذه الحبال. تساءل متأخراً هل كانت لديه الجرأة ليقول إنه يفضل البقاء على الشاطئ ومراقبة الطيور، وبينما هو يفكر في ذلك، كان مايكل قد رمى الحبال وانطلقوا في المياه المفتوحة.

كان جوليان من وقت إلى آخر يصرخ في سيلاس وهو يشير: "ذاك سانت إيغنيس، شق بين جزيرتين، انظر هناك طيور الغاق، هل تعرف الفرق بين الغاق وغراب البحر؟".

– "نعم".

– "أنت مهتم بالطيور؟".

– "تماماً".

– "تحب أن تستلم المقود؟".

"أوه! شكراً لك". شعر سيلاس برعشة سعادة، هل أصبح الآن مسؤولاً عن حياتهم جميعاً؟ لكن السعادة كان يفوقها القلق. لنفترض أن أحداً ما صرخ: "استدر لليسار" أو "استدر لليمين"، ماذا كان يفترض به أن يفعل؟ "الميناء يكون إلى اليمين وليس أبداً إلى اليسار"، تذكر. نزل جوليان إلى الأسفل، وكان بإمكان سيلاس أن يراه يرتدي سترة أخرى، موازناً نفسه بمباعدة ساقيه. كان أليستر ومايكل في أعلى المركب قرب الصاري، وكان إيان تماماً في المقدمة. كان المركب يميل إلى جانبه.

صرخ إيان بشيء ما وأشار. نظر سيلاس إلى الأعلى. كانت سفينة سيلونيا قادمة من بنزانسي. رسا هذا الصديق المألوف في ميناء بنزانسي لكن السفينة كانت الآن تؤدي حركة التفاف، مسببة موجة قوسية عند مقدمتها، على نحو مهدد. راقبها سيلاس باهتمام وهي تقترب. ''انتبه، أبله، معتوه!''، انتزع جوليان المقود دافعاً سيلاس بقوة إلى الخلف ما تسبب في فقدان توازنه وسقوطه. بدّل جوليان وهو عابس ومكفهر المسار متجاهلاً الصرخات الغاضبة من السفينة.

''لماذا أعطيته المقود؟ هو لم يبحر في حياته''، صاح مايكل، ''ستصاب أمي بنوبة قلبية''، خاطب أباه بغضب. صرخ جوليان: ''اخرس!''، وضرب ابنه، لكن مايكل تخلص من الضربة بحركة مراوغة. بدأت السماء تمطر بشدة، وازداد الجو برودة وقسوة. تساءل سيلاس، الذي وقف على قدميه من جديد، أين يمكنه أن يجلس مختفياً؟ شعر بأنه عديم الفائدة، وبالعار وبأنه صغير.

''لماذا لا تذهب إلى الأسفل؟''، اقترح عليه مايكل، لكن سيلاس هز رأسه. كان يفترض به أن يكون مستمتعاً بهذا. لن يسأل كم هي بعيدة صخرة بيشوب، كم يحتاجون من الوقت ليصلوا إليها. نظر إلى البحر وثبّت نفسه من حركة المركب وهو يأمل أن لا تزيد برودة قدميه في الحذاء الكبير. عندما وصلوا، كانت صخرة بيشوب مخيفة في وحدتها الجريئة. جوليان الذي كان قد بقي صامتاً بعد مشاحنته مع ابنه ضحك وهو يقود المركب. أدرك سيلاس وهو يراقب مايكل أنهم كانوا في خطر حقيقي، وأن جوليان كان يعاقب مايكل كأنه هو من قاد المركب إلى الخطر ليصطدم بالصخور السوداء.

اقترح إيان أن يتناولوا الغداء وأحضر سلال الطعام. كانوا الآن قد بدؤوا طريق العودة. رأى سيلاس المراكب تستدير في خليج ماونت لكنه لم يفهم أبداً كم يتطلب ذلك من جهد. بدا من الجنون بالنسبة إلى جوليان ومايكل وأليستر وإيان أن يحاولوا تناول الشطائر وهم يعملون على المركب ويتنقلون في كل اتجاه. زادت سرعة الرياح، وصاح جوليان أنهم يجب أن يلفوا الشراع. سمع سيلاس بعض الكلمات الغريبة عنه وشعر بالإعجاب نحو الفتية الذين أذعنوا للأوامر بخفة وبراعة. كانوا يبدون جديين، ورأى سيلاس جوليان وهو ينظر عابساً إلى السماء.

كانت الغيوم الداكنة المحملة بالمطر تندفع من الغرب. وفجأة وصلت كتلة سوداء هائلة وبدأ المطر يهطل بغزارة كبيرة. تذكر أنه رأى مثلها في لوحة لرامبرانت في كتاب من كتب هيبي. ضربت العاصفة المركب مبللة إياهم خلال الدقائق القليلة التي استغرقتها لتعبر. التهم سيلاس شطائر وهو يشعر بالرعب فقط، منتبهاً في إحدى خلايا دماغه أن الشطائر كانت كثيرة الدهن وقد أعدت

بلحم دسم، ولا تمكن مقارنتها بأي حال بالشطائر التي تعدها له أمه عندما يخرج للتنزه مع جيلز، كما أن السيدة شيء لم تضع فيها لفتاً أبداً.

داهم سيلاس فجأة إحساس أن لديه حجر في معدته، وأنه لن يشعر بالدفء مرة ثانية في حياته أبداً، وأنه كان يصاب بالصمم. كان الإحساس مفاجئاً حتى لم يكد يكن لدى سيلاس الوقت ليصل إلى جانب المركب ليصاب بالغثيان. ولزيادة بؤسه، أعادت الرياح القيء إلى صدره مبعثراً فوق سترة هيبي، وإلى الأسفل إلى حذاء مايكل: الشطائر، حساء الشعير، لحم الخنزير، البيض والشاي... في اندفاع دهني مقزز، أوه يا إلهي! أتمنى أن أموت.

"إنه يتقيأ في حذائي"، صاح مايكل، وانفجر إيان، الذي لن يصبح صديقاً أبداً، بالضحك.

١٦

مستفيداً من الشجاعة التي يكتسبها عدد من الرجال الجبناء خلف مقود السيارة، وجد روري نفسه قادراً على التحدث إلى هيبي الجالسة قربه في ثوب قطني أزرق، وشعرها الذي يصل إلى كتفيها يطير بفعل الهواء القادم من النافذة المفتوحة. كانت ساقاها طويلتين وعاريتين. لاحظ بارتياح أنها لم تطل أظفار قدميها، وأن قدميها الكبيرتن نوعاً ما كانتا جميلتين.

''عندما دخلت غرفتك الليلة الماضية''، بدأ حديثه.

''نعم؟''، قالت وهي تنظر إلى الطريق أمامهما.

– ''عندما دخلت غرفتك، هل فوجئت؟''.

– ''بالطبع''.

– ''ما يحيرني أنك لم تصرخي''.

– ''وماذا قد يفيد ذلك؟''

– ''لم تغط نفسك''.

''لم يكن لدي ما أخفيه''، نظرت هيبي إلى الطريق، قريباً سوف يتمكنان من رؤية برج كاتدرائية ساليسبري الأطول في إنكلترا.

– ''أنت... اممم... الكلمات التي تستخدمينها... أنا...''.

– ''هل الحري بي أن أقول أنني رأيت شيئاً مستثاراً تحت سروالك؟ هكذا؟''.

– ''لا، الأمر فقط...''.

– ''أنك حسن التربية؟ ماذا عن عمتك وكتبها؟ المكتبة؟ هي لا تخاف من استخدام كلمات من أربعة حروف''.

– ''إنها تصعق أبي وأمي''.

– ''أنت غير ملزم''، استدارت هيبي لتنظر إليه،'' لست مضطراً إذا كنت أصعقك، وإذا كان لديك شيء آخر لتفعله، فأنا لا أهتم''.

– ''هيبي، أنت تعلمين أ.نا..''.

– ''ماذا؟''.

– ''أريد أن... أريد... أنا...''.

– ''ألا تنهي جملةً أبداً؟''.

– ''فقط القصيرة''.

– ''أخبرني ما الذي تريده، إذاً؟''.

''أنت. هل تلك جملة قصيرة بما يكفي؟''، قال روري وهو يشعر بارتفاع معنوياته.

– ''تريد أن تنضم إلى الرابطة؟''.

– ''هل هذا ما تسميه؟''.

– ''هل يحتاج إلى كلمة أفضل؟''.

كان روري صامتاً، كان منفعلاً ومذعوراً في آن، ثم قال: ''هذا يبدو قاسياً جداً''.

تنفست هيبي وقالت: ''مجرد عمل''.

''كيف يمكنك؟''، اعترض روري بألم.

''انظر''، كانت قد بدأت تضيق ذرعاً به، ''جسدي هو عملي، العمل بيع وشراء، صحيح؟ أنت تبيع القبعات''.

''ليس الكثير''، تنهد.

– ''لا تقاطع. أنا أبيع، إذا أردت أن تشتري، اشتر. ليس هناك إلزام''.

– ''أوه... أنا...''.

– ''أنا أستمتع بعملي. بالتأكيد أنت لاحظت ذلك الليلة الماضية''.

''أوه! لاحظت''، كان صوت روري نابعاً من القلب.

''حسناً، إذاً''، قالت وهي تبتسم.

''كيف أبدأ؟ كيف أنضم؟''، قال روري مستسلماً وهو ينظر إلى هيبي نظرة جانبية، محاولاً أن يرى العينين اللتين استيقظ ليجدهما تراقبانه عن قرب في ذاك الصباح.

– ''أبق عينك على الطريق، حبيبي، أنت على وشك أن تسقطنا في القناة''.

''أوه!''، عاد ينظر إلى الطريق، ''آسف''.

''هكذا سيجري العمل''، كان صوتها جافاً، وقد انكمشت روحها، فهي تكره هذا الجزء من الصفقة، ''أخبرك عندما يكون بإمكاني أن ألتقيك، نتفق على مكان للقاء وألتقيك فيه خلال عطلة نهاية أسبوع أو لأسبوع مثلاً''.

– ''أليس من الممكن أن تكون المدة أطول؟''.

– ''لا. نقرر مقدماً كم ستدفع، تعطيني شيكاً أو نقداً إذا أردت، ويعود إليّ أن أخبرك متى سآتي''.

– ''أنت تقررين ذلك، لماذا لا أستطيع أنا أن أفعل ذلك؟''.

– ''أظن السبب واضحاً تماماً''.

''ستنسقين المواعيد مع بقية الأعضاء في الرابطة''، ارتجف روري وهو يشعر بالغيرة.

– ''نعم''.

– ''لماذا لا تطردينهم وتتزوجيني؟''.

– ''الزواج ليس على قائمتي، ذاك هو الشيء الوحيد الذي عليك أن تضعه في عقلك''.

''هل تزوجت قبلاً؟''، كان روري مذعوراً من الفكرة. تزوجت هيبي برجل عنيف، أجبرها على الحصول على المال من العمل طاهية... آه، أنا، تأوهت روحه، وعاهرة.

– ''لا''.

شعر روري أن المحادثة انتهت، فهيبي التي كانت تجلس قربه كانت نوعاً من أنثى محارة مغلقة. اختلطت الصور في عقله المشوش.

''هل لي أن أختار المكان؟''، سأل.

''نعم، بإمكانك ذلك''، كانت قد سلمت بالأمر مسبقاً.

تساءل روري وهو يقود الأميال الثلاثة الأخيرة إلى المدينة هل سيلتقي هيبي في منزله الواقع خلف متجره، حيث كان سعيداً هناك ولديه حديقة جميلة وغير مكشوفة، أو أنه سيجرؤ أن يأخذها إلى مزرعة عمة أبيه كاليبسو التي تعيره إياها أحياناً، والواقعة في وسط غابتها الشهيرة بأشجار الكرز المزهرة، المنثور البري ونبات الجريس. قاد وهو يفكر، ويعبر متاهة الشوارع مع نظام السير، في اتجاه واحد، المثير للغضب، إلى أن وجد مكاناً ركن فيه السيارة، وانتبه بغيظ وارتباك إلى أن هيبي كانت تتفحص قائمة التسوق التي أعدّتها بهدوء.

لم يجد روري أبداً من قبل التسوق أمراً ممتعاً. ذهبا أولاً إلى بائعي اللحوم، حيث اكتشفت هيبي وجود طائر الطيهوج القادم من اسكتلندا، فقالت: ''لم لا نشتري الطيهوج؟''، تلمست صدور الطيور الميتة، وهي تهمس: ''مسكينة كانت حياتها قصيرة على نحو يرثى له''. اندفع روري ليدفع ثمنها، فقد شعر أن هذا قد يكون نوعاً من رد الجميل للويزا. وقفا يناقشان الأمر، مسببين الغضب للبائع، لأنهما أعاقا طابور الناس المنتظرين. كانت هيبي تفسر وجهة نظرها بأنها دوماً تشتري كميات إضافية لتملأ ثلاجة لويزا، فهي تعد الكثير من الفطائر والمربيات. وضعت الطيور في سلة التسوق، واتجها إلى قسم الأطعمة المعلبة حيث تجادلا حول الجبن واشتريا الخردل الألماني وزجاجة من زيت الزيتون اليوناني. حملا مشترياتهما وعادا إلى متجر روري قبل أن يرجعا إلى السوق لشراء

الخضار والفاكهة. راقب روري هيبي وهي تختار الثمار وتضع الأشياء غير الناضجة جانباً بغض النظر عن غضب البائعين من تصرفها.

– ”في فرنسا لا يحترمونك إذا أخذت ما يعطى لك فقط، انظر إلى تلك الإجاصة، مهترئة من الداخل، وقشور الموز تلك...“.

عندما أنهت تسوقها، عادت إلى روري: ”هل نذهب إلى المكتبة قبل الغداء؟“. أحضَرا كتب لويزا من السيارة.

تولّى روري الأمر في المكتبة، حيث أنزل ملء ذراعيه من كتب الجريمة من على الرفوف، ووضعها على المنضدة ليتفحصها بتمعن. ”ساعديني“، قال لهيبي، ”اعتادت أن تصل إلى المنزل لتكتشف أنها أخذت كتاباً قرأته سابقاً، لذلك هي تضع إشارة صغيرة... انظري هذه واحدة، نقطة في دائرة، استبعدي هذه... ابحثي عن الكتب الأميركية المحضة، فهي لا تستطيع قراءة اللغة، وأخيراً تلك التي عليها بقايا من فطور الآخرين“.

– ”ماذا عن الكلمات الوقحة المشطوبة؟“.

”تلك أيضاً“، ضحك روري.

أشار الموظف في المكتبة من وراء مكتبه إلى الإشارة التي تقول: ”صمت“. همست هيبي لروري: ”أنا أستمتع بيومي“. ما ملأه بالسعادة. اختارا أربعة كتب وعادا ليضيفاها إلى كومة المواد التي تسوقوها.

– ”لماذا لا نتناول الغداء هنا؟ ماذا لديك في ثلاجتك؟“.

”ألا تريدين الذهاب إلى مطعم؟“.

– ”لا أهتم لذلك، يوجد هنا نبيذ لذيذ“، حملت زجاجة من النبيذ الفرنسي، ”لم لا تسرع إلى متجر السمك وتحضر قريدس أو شيئاً ما، يوجد خبز أسمر وزبدة هنا“.

عاد روري بسرطان البحر والخس، وبينما هو يراقب هيبي تعد المايونيز، عرف أنه لم يكن أبداً أسعد مما هو عليه. أخبر هيبي عن حياته، بينما كانا يتناولان الغداء، وعن أبويه، ومدارسه، واعتراضه على الالتحاق بالجيش، كما كان والده يتمنى. وتصريحه المفاجئ أن كل ما يريده هو متجر للقبعات بإلهام معتمد على الشبه بينه وبين الأرنب البري الأمر الذي كان حديث العائلة.

– ”أراهن أنك أربكتهم“.

– ”لقد فعلت، ثم كان علي أن أكون وحيداً. هكذا بدأت، ولم أكن أبداً أفكر في شيء كهذا“.

– ”وعمتك لويزا دعمتك؟“.

– ''نعم. هي لا تحب أبي، وعمة أبي ساعدتني أيضاً''.

– ''العمة التي أعطتك قبعتي؟ صحيح؟''.

– ''نعم. زوجها هو من زرع الغابة حيث أريد أن آخذك عندما... امم... عندما يكون دوري. هناك مزرعة''.

– ''يا لها من جملة طويلة، روري. أنهيتها هي وبضع جملٍ أخرى''.

– ''أنت تسخرين''.

– ''قليلاً فقط. دعنا نذهب إلى السرير وتخبرني عن غابة عمة أبيك''.

''أوه! سأفعل''، نهض روري عن المائدة. وبينما هما يصعدان إلى الطابق العلوي، قال: ''أتمنى أن تجدي... امم... تجدي السرير...''.

– ''مريحاً؟''.

– ''نعم و... امم...''.

– ''ويمكنك أن تخبرني عن فتياتك الأخريات''.

– ''أنا لست جيداً جداً مع الفتيات؛ إنهن... امم...''.

– ''لا يعلمن ماذا يفوتن''، أمسكت هيبي ثوبها من التنورة وخلعته من الأعلى بحركة بدت لروري أنها حركة تلويح. ''هيا''، قالت، وهي تصعد إلى سريره، ''دعنا نمتع أنفسنا''.

هل عليه أن يمتع نفسه؟ هل عليه أن ألا يشعر بالعار البيوريتاني[25] الذي غرسه والداه فيه؟

[25] مصطلح يدل على التزمت واعتبار الحياة قائمة على العمل والتحكم بالنفس واعتبار المتعة أمر خطأ وغير ضروري.

''لنفتح شهيتنا من أجل العشاء''، حثته هيبي بسعادة.

''أنت جداً...''، قال، ''... جداً...''.

– ''عملية''.

''تماماً''، كان سعيداً.

– ''لست كذلك''.

أسرته فجأة. لمس فيها خوفاً، وشعر أنها حساسة جداً الأمر الذي جعلها قريبة جداً منه. عندما جلس يراقبها حتى استيقظت.

– ''علينا أن نعود إذا كنت سأحضر العشاء، كان هذا يوم عطلة طويلاً جداً والقيلولة كانت رائعة''.

أراد روري أن يسألها كيف حدث أن أصبحت عاهرة مخمناً أنها لن تخبره. وبينما هو يراقب ثوبها من خلال باب الحمام المفتوح وهو يستحم، أدرك أنها لن تخبره أي شيء عن حياتها.

''روري''، نادت هيبي، ''لم تحلق بعد. ماذا ستظن عمتك؟''.

''عمتي''، قالها روري مفكراً، ''ربما لا... امم... ربما...''.

''ماذا ربما لن؟''، جاءت هيبي لتجلس على حافة الحمام لتراقبه وهو يحلق.

– ''ربما لن تتوقع مني البقاء''.

– ''يجب ألا تبقى''.

– ''لكن الليلة الماضية... امم...''.

– ''الليلة الماضية كانت استثناءً. حقيقة، روري، كانت كذلك. أنا لا أخلط أبداً علاقات الطهو مع عملي عاهرة''.

– ''لا تقولي...''.

– ''حسناً، لكن هذه حقيقة، أنا لا أخلط الاثنين أبداً. اليوم هو يوم عطلة''.

''تقصدين أن عليّ الانتظار؟''، بدا روري، ووجهه مغطى بالرغوة، مجنوناً بعض الشيء.

– ''عليّ أن أرى متى أستطيع لقاءك''.

– ''متى تغادرين لويزا؟''.

– ''في الحادي والعشرين''.

– ''يمكننا عندئذ...''.

''لدي التزامات أخرى''، قالت هيبي ذلك وفي ذهنها صورة سيلاس عائداً يحييها وهو ينزل من القطار. فقط، هذه المرة سينزل من المروحية بعدما أنهى زيارته الرائعة. ''آسفة''، قالت بلطف، ''أنا حقاً لدي أشياء أخرى علي فعلها''.

حلق روري ذقنه وهو يشعر بخيبة الأمل، فيما حاول بعينيه القلقتين أن يلتقط صورة هيبي في المرآة.

– ''أستطيع أن أقلك بالسيارة''.

– ''لدي سيارتي''.

– ''أين تعيشين؟''.

– ''أنا لا أخبر أحداً أبداً أين أعيش''.

''اللعنة''، صرخ روري، ''عليك اللعنة''.

– "تلك هي الطريقة. تلك هي الطريقة الوحيدة التي يمكنني أن أدير أموري بها. عليك أن تتلاءم معها".

"أنت تعطين، ثم تأخذين كل شيء"، قال وهو على وشك البكاء.

– "إذا كان هذا يريحك، فلا أحد من زبائني يعرف أين أعيش، عمتك لا تعرف".

– "حتى هي؟".

– "حتى هي، أنا أتصل بها وأقترح المواعيد، عليك فقط أن تثق بي، وإذا وجدت أحداً أفضل، سيكون ذلك جيداً".

– "لكنني أريد أن أكون قادراً على الاتصال هاتفياً... امم... التحدث إليك... أن أكتب لك".

– "آسفة، روري، لا يمكنك ذلك. لدي عنوان في لندن يعيد توجيه البريد إلي، سأعطيك إياه، لا أمانع أن تكتب".

"لا أستطيع احتمال ذلك!"، صرخ روري من خلال الرغوة، "أنا حقاً لا أستطيع...". نظف وجهه بأسلوب أخرق.

"إذاً، توقف الآن. لا داعي للاستمرار. انس الفكرة برمتها"، ما أغباني، فكرت هيبي، لكي أظن أن هذا الرجل يمكنه أن يأخذ مكان تيري. هذا دبق.

"لكن أنا... أنا... أريد..."، قال روري كطفل محروم، "أنا حقاً أريد جداً".

– "فكر في الأمر. لا حاجة إلى التسرع. أنا لا ألومك إن لم ترغب في الاستمرار. أفهم وجهة نظرك. الأمر فقط أنني أهتم أكثر بوجهة نظري".

جمعا الأشياء بصمت، وعادا إلى منزل لويزا، خيم الصمت عليهما خلال الطريق وكان روري متجهماً وفظّاً تقريباً، بينما شعرت هيبي بالاضطهاد، وانتهى إحساس السعادة الذي كانت تشعر به. كانت تلوم نفسها على تشجيعه، وعلى إقناع نفسها بهذه العلاقة، وعلى قبول القبعة، ودعوته إلى سريرها؛ شعرت بالحزن.

حيتهم كلاب لويزا بالنباح قافزة على هيبي التي وقفت وذراعاها مليئتان بأغراض التسوق. قفز روفوس إلى وجهها يلامسها بأنفه الرطب.

"اهدئي!"، صاحت لويزا، وهي تخرج من المنزل، "اهدئي، أيتها الحيوانات!"، قالت وهي تتناول إحدى السلال من هيبي، "أنت فتاة ذكية، طيهوج، هل سنتناول الطيهوج على العشاء؟ رائع!". تبعت هيبي إلى داخل المطبخ وهي تضع الأشياء على المنضدة، "ما هذه الـ...". تنشقت

هيبي الهواء، ''هناك...''. نظرت لويزا إلى هيبي التي بدا شكلها غريباً، وانتبه روري إلى أنها كانت تبدو كما رآها أول مرة في متجره وتساءل هل كانت على وشك أن يغمى عليها.

''هنا''، قدم إليها كرسياً، ''سأحضر كأساً من... ضعي رأسك بين...''.

''أنا بخير''، أمسكت هيبي يده، ''لن يغمى علي، خُيِّل إلي للحظة أنني أشم شيئاً ما كـ...''، دفنت وجهها في أكمامه، ''ذكرتني''.

''رائحة ماذا؟''، همس روري.

أوه، عزيزي، لقد وقع في حبها، فكرت لويزا وهي تراقبهما. روري العزيز المسكين.

''لا أعرف، لا أعرف بماذا تذكرني، هذا ما يقلقني''، حاولت هيبي أن تضحك، ''أنا أشعر أنني مجرد سخيفة. إنها مثل القهوة، الدخان، الخشب، شيء من هذا القبيل''، تركت روري، ''أبدو حمقاء، يبدو الأمر كما حين تعجز عن تذكر كلمة تعرفها جيداً''.

''أنا غالباً ما أضيع الكلمات''، قال روري محاولاً التخفيف عنها.

''كان لدي زائر اليوم، وقد أعد القهوة بعد الغداء، ربما تكون تلك هي الرائحة''، قالت لويزا، ''صديق صديقٍ لي حمل لي أمانة كنت أنتظرها، ولقد أعد القهوة، ولقد كانت أفضل تقريباً من تلك التي تعدينها، هيبي''.

''لا بد أن هذه هي الرائحة''، بدت هيبي مرتاحة، ولو أنها كانت لا تزال مرتبكة، ''كثيراً ما تستدعي الروائح الذاكرة''.

راقبت لويزا هيبي بقلق، ''وكم يكون الأمر مزعجاً عندما لا يمكنك معرفة بماذا تذكرك''، كانت تكثر الكلام، فيما تحاول هيبي تمالك نفسها.

كان الحديث خلال العشاء متوتراً رغم أن العشاء كان لذيذاً. ولم تفاجأ لويزا عندما قرر روري رغم كل شيء أنه كان مساءً مناسباً للصيد، فقد فهمت أنها كانت كذبة صغيرة ابتدعها ليخفي أمراً ما.

فكرت لويزا في برنارد وهو في منزله الصغير المعزول، بينما هم يتابعون الأخبار في التلفاز، عندما قال مقدم النشرة الجوية إن هناك عواصف قادمة من المحيط الأطلسي، وهي تعلم أنه عندما تهب الريح ويهطل المطر يكون برنارد مجبراً على مغامرة عبور القرية نحو كشك الهاتف. ستنتظر لتسأله عن جيم هوكستابل، تنتظر لتخبره عن لقاء هيبي بروري. لقد كان دوماً مهتماً بزيارات هيبي، وقد حل هذا الموضوع في الغالب محل حديثهما عن حدائقهما. أخذتها أفكارها بعيداً عن الشابين الذين كانا قد أخرجا الكلاب للتنزه. حاولت أن تتخيل برنارد عجوزاً يتسكع في حديقته لكنها

فشلت، فهي لا تستطيع أن تراه إلا شاباً لا يهتم بالأزهار إلا ليطلبها بكميات من بائع الزهور ويرسلها مع بطاقة: "لويزا، حبي، برنارد".

كانا قد سارا قرب النهر وعادا إلى سيارة روري. "إلى اللقاء"، مدت هيبي يدها، انحنى روري ليقبلها، "متى سوف...؟".

– "لقد كتبت لك عنواني في لندن، ها هو. سأتصل بك، أعد، هل أنت متأكد أنك تريد ذلك؟".

– "بالطبع أنا...".

– "لا أريد أن أجعلك تعيساً".

"سأتحمل المخاطرة"، سار بسيارته وهيبي تراقبه يبتعد.

نظرت إلى السماء وهي تأمل ألا تفسد العواصف المهددة سعادة سيلاس، ونسيت روري وهي تحاول تخيل سيلاس برفقة غرباء. تمنت وهي تتنشق رائحة الياسمين والتبغ، وتراقب حشرات العث تطير حول الأزهار أنها تبتعد عن روري، الذي كان من السهل جداً أن يتأذى، كما كانت هي نفسها مع ذاك العالم الذي ولدت فيه، وهربت منه معاً في آن. ورغم ذلك، فكرت، جزء مني يتمناه لسيلاس، إذاً، لماذا أرسله إلى تلك المدرسة وأشجعه على البقاء مع أولئك الناس؟ هل ما زلت أظن أنه يجب أن يحظى بتلك الفرصة؟ هل أؤمن بذاك النمط الذي حاربت للهرب منه؟ ألست منافقة كما كانوا؟ لقد تربيت لأصبح مثلهم، لأتزوج رجلاً ثرياً كما فعلت شقيقاتي، أمارس العهر، أنام مع مونغو وروري كي أدفع لسيلاس ليحصل على ما رفضته؟ هل أسيء استخدام مال الرابطة؟ استلقت في السرير وهي تقرأ نسخة روري من مجلة **نيوستاتسمان** لتجد تسلية في عمود استشر قلبك: "مثقف جذاب– هرم– ذكر/ أنثى مصاب بعمى ألوان غير تقليدي– عاطفي– هزيل– سعيد– قصير النظر– نيجيري– لا جنسي– طويل إلى حد ما– خلفيته من الطبقة العاملة– ميال إلى الجاز– متعلم– مطلق– أكاديمي". أي منها لا يقدم اقتراحات. لقد لبت مرة نداء من هامبستيد لرجل وحيد كان يحتاج فتاة تسير بجانبه عبر المرج. علي أن أزوره في وقت ما عندما أكون مع مونغو. لقد كانت تلك مرحلة فاصلة مريحة بلا جنس. بعد السير كانا يتناولان شطائر الشوكولا، ويشربان البابونج. كان يعطيها عشرة جنيهات في كل مرة. قلبت الصفحة، آه، ها هنا! قرأت إعلاناً: "ملابس داخلية للحب، القمة في الثياب الداخلية، منسوجة من الحرير الخالص، مصممة لإثارة الأميركي كحد أدنى". أظهرت الصورة المرافقة فتاة تخفي فرجها بحقيبة من النوع الذي حملته ليني ريفنسال[26] عند تصوير فريق الرياضيين النازيين في الألعاب الأولمبية. يجب أن أرسل واحداً منها إلى تيري. هدية

وداع. سيناسب عضوه الصغير اللطيف تلك الصناعة الحريرية الصافية بصورة رائعة. مسلية نفسها بالذكريات السعيدة عن تيري، أطفأت النور.

26 ليني ريفنسال: مخرجة سينمائية ألمانية كانت مقربة من هتلر.

زادت شدة العاصفة، التي جعلت سيلاس مريضاً في مراحلها الأولى لتصبح أسوأ خلال الليل على نحو غير معهود حتى في الجنوب الغربي. هبت العاصفة من المحيط الأطلسي، وحملت الأمطار التي أغرقت الشوارع، واندفعت إلى قنوات التصريف. تجاوزت موجات المد العالية الشاطئ وبعثرت الحجارة وأعشاب البحر فوق قوارب التنزه التي التجأت إلى خليج ماونتس، وانطلقت زوارق النجاة من ميناء سانت إيغنيس وسانين في محاولة لإنقاذ سفينة صيد فرنسية. كانت سرعة المياه تزداد كلما زادت المسافة التي تقطعها وهي تجرف في طريقها أعقاب السجائر والعيدان الخشبية وأوراق التغليف باتجاه المجاري التي كانت مسدودة مسبقاً، فلم تتمكن من تصريفها، ما جعل المياه تتجمع وتزداد قوة في الشارع الواقع خلف المنازل، إلى أن وجدت نقطة ضعف في أحد الجدران فتسربت بقوة من خلالها لتصل إلى حديقة إيمي ترايماين، وتنتقل عبر الباب الخلفي لتنتشر في المنزل وتبلل السجاد الموجود في غرفة الجلوس حتى الغرق، ثم تتجمع من جديد وتجد طريقها إلى الشارع.

نهضت إيمي من السرير لتغلق النافذة وهي تشعر بالقلق من شراسة العاصفة، لكنها ما إن مدت نفسها لتمسك إطار النافذة حتى هاجمتها نوبة ألم عنيفة في صدرها، فانهارت في كرسي قريب تشعر بالدوار والألم الشديد. أخفقت محاولاتها في الوصول إلى أقراص الدواء التي تأخذها عادة لأنها كانت على المنضدة قرب السرير والهاتف كان في الطابق الأرضي. كم من المرات توسلت هيبي إليها أن تمد وصلة هاتف إضافية إلى غرفتها. حاولت أن تتنفس وهي ترغب في إزالة الألم، كانت تتمنى أن يمر الوقت بسرعة لعلّ ضوء النهار يأتي لها بالمساعدة. بلّل المطر الواصل عبر النافذة ركبتيها. إذا وجدتني هيبي ميتة، فإنها ستصاب بالاضطراب. لا يمكنني أن أموت الآن. أرادت أن تحيا وبقيت مكومة في الكرسي قرب النافذة، إلى أن غفت مع مرور الوقت، ناسية أن هيبي كانت تعمل بعيداً لدى لويزا فوكس.

كان تيري في طريقه لإطعام تريب. يسرع عند الفجر صاعداً الشارع وقد دس ذقنه في ياقته المرفوعة. يتلفت حوله مذهولاً من شدة سوء الطقس. عندما وصل إلى مستوى بيت هيبي، لاحظ المياه الموحلة في الشارع، وبينما وقف ليتحقق من الأمر، نظر إلى الأعلى نحو نافذة إيمي، فوجد

النافذة مفتوحة. نظر بتمعن أكثر فرأى تمثالاً مكوماً في كرسي. جرب الباب الأمامي، لكنه كان مقفلاً والماء يرشح منه.

نادى للأعلى: ''مرحباً، أنسة ترايماين، منزلك غارق''.

انتفضت المرأة العجوز مستيقظة، فرأى تيري وجهها، ''أيها المسيح، إنها تموت''. قفز فوق الجدار المنخفض الذي يفصل شريط الأزهار عن الشارع. استجمع قوته واندفع عالياً ليمسك حافة النافذة ساحباً نفسه ليسقط رأسه أولاً داخل الغرفة عند قدمي إيمي. ''لا تخافي''، قال وهو ينهض، ''دعيني أعدك إلى السرير''. حمل المرأة العجوز بين ذراعيه، ''أنت باردة''. وضعها على السرير ودعمها بالوسائد، وضع فوقها الأغطية جيداً، ''هل لديك أقراص دواء؟ هل هو قلبك؟''.

''نعم''، صفرت بصعوبة.

– ''هذه هي الأقراص؟''.

– ''نعم''.

فتح غطاء العلبة وسألها: ''حبة واحدة؟ اثنتان؟''.

''واحدة''، همست.

وضع الدواء في فمها وقرب الكأس حتى تمكنت أن ترشف الماء.

''أنت انتقام هيبي الأسود''، كان لا يكاد قادراً على سماعها.

– ''ماذا؟''.

– ''انتقام هيبي...''.

– ''أنت بحاجة إلى شيء ساخن. لا تتحركي، سأرى ماذا يمكنني أن أفعل. هل ستكونين بخير إذا تركتك للحظة؟''.

أسرع إلى الطابق السفلي، مبللاً بمياه الفيضان، ''أيها المسيح!''. أسرع إلى المطبخ، وضع الإبريق فوق النار، فتش عن البراندي، فوجد نصف زجاجة من الويسكي، رأى قربة الماء الساخن معلقة خلف الباب، ملأها، ثم أعد الشاي، صب فيه قليلاً من الويسكي، وحمل الأشياء إلى الأعلى.

''لا تجهدي نفسك بالكلام''، دس القربة الساخنة قرب قدميها، ''ستشعرين بالدفء في الحال، اشربي هذا''. جلس قربها وبدأ يعطيها الشاي الساخن بالملعقة وهي تستجيب بإذعان. ''هل هذا أفضل؟''، أرادها أن تعيش.

''نعم''، شعرت بالتحسن عندما شربت الشاي، وكانت القربة الدافئة بدأت تدفئ قدميها. وضع تيري الكوب الفارغ جانباً وبدأ يفرك يديها بين يديه.

– ’’يجب أن أتصل بطبيبك‘‘.

– ’’لا‘‘.

– ’’بالتأكيد...‘‘.

– ’’لا أريد طبيباً‘‘.

’’حسناً‘‘، استمر يفرك يديها. هل عليه أن يخبرها أن الطابق السفلي من منزلها كان غارقاً بالماء؟ هل سيسبب لها نوبة قلبية جديدة؟

’’هل قلت فيضان؟‘‘، كان صوتها أقوى.

– ’’نعم، إنه يأتي من الخلف...‘‘.

’’ابق معي‘‘، أمسكت يديه، ’’انتقام هيبي الأسود‘‘، حدقت في وجهه بقلق معجبة بأنفه اللطيف العالي وفمه المنحوت.

’’لم أكن معك‘‘، لم يكن يفهم ما تقوله.

’’مزحتها السوداء‘‘، أي مخرز وضعت هيبي في عين كريستوفر. لم تكن قد رأت تيري عن قرب أبداً من قبل. كانت فقط قد لمحته مصادفة من مسافة، ’’لم تخبرني هيبي أنك جميل جداً‘‘.

بدا تيري محرجاً، ’’ما زلنا أصدقاء، الأمر الآخر انتهى‘‘.

– ’’أعرف‘‘.

– ’’كنت في طريقي لأطعم هرتها. ماذا تقصدين بالانتقام الأسود؟ المزحة السوداء؟‘‘.

بدأت إيمي تضحك.

’’لا تضحكي، انتبهي إلى قلبك‘‘، صاح تيري، لكنها بدت أفضل، أفضل بكثير.

ابتسمت إيمي وهي تفكر في كريستوفر روتر، كم كان سيغضب حين يعلم أن أسوأ اتهاماته بات حقيقة. لماذا لم يكن لديها أبداً القدرة على خوض المغامرة التي عاشتها هيبي؟

– ’’من أين أتيت؟ ماذا تعمل؟‘‘.

’’التقيت هيبي بعيداً في الريف. أنا أصنع كمائن للصوص. أعمل في المهن الحرة. تبنتني حركة البيض التحرريون. هربت من المدرسة الثرية التي أرسلوني إليها. إنه ابتكاري الخاص‘‘، فكر أنه إذا استمر في التحدث، فإنها قد تغرق في النوم، ويكون بإمكانه عندئذ أن يحضر الطبيب، ’’ابتكرت بدعة مثل العدادِ ذي الكرات، توضع تحت قطعة سجادة مرتبطة بالغرفة، عندما يدوس اللص فوقها، فإنها تعطي إحساساً بغياب الأمان، وتعيقه عن السير‘‘.

’’هل تبيع الكثير؟‘‘، فكرت في نفسها أنها ستحاول أن تبقيه معها لأطول مدة.

– ''الكثير جداً. أعطاني صديق لهيبي قوائم أسماء لأشخاص كثيرين، هو صديق عجوز يدعى كويجلي''.

– ''أوه، هو''.

– ''هل تعرفينه؟ صنع قائمة بأسماء الناس في جميع أنحاء البلاد. بعضهم اشترى''.

– ''أخبرني إلى من أرسلك؟''.

ذكر تيري قائمة طويلة من الأسماء، هدهدها صوته اللطيف حتى انتبهت فجأة أن بين الأسماء ذكر: روبرت، ديليان، ماركوس. هل عرفت هيبي بهذا؟

''هل أرسلك إلى أحد ما يدعى روتر؟''، سألته بوضوح.

– ''نعم رجل عجوز يدعى كريستوفر روتر. اسم عائلة هيبي نفسها. يقول السيد كويجلي إن الجميع مترابطون. هو اسم شائع، هكذا يقول''.

– ''هل أخبرت هيبي؟''.

– ''لا أظن أنني فعلت''.

– ''كيف جرى الأمر معه، كريستوفر العجوز؟ هل اشترى؟''.

– ''لقد فعل، قال إن سعري كان أرخص من الغالبية''.

بدأت إيمي تضحك.

– ''هيه، لا تضحكي، هذا ليس الوقت المناسب لذلك''.

Ce n’est pas le moment[27] جال في عقلها.

27 هذا ليس الوقت المناسب.

– ''ماذا؟''.

''في فندق إنكلترا قال''، تذكرت إيمي نبرة الصوت، ''هو لا يريد أبداً أن يعرف، ظن أنه قد يبدو الأمر أسهل في فرنسا، غادر، وأنا غادرت بعده بقليل. برنارد اللعين''.

قطّب تيري حاجبيه، ما الذي كانت تتحدث عنه؟ شعر أنه واقع في فخ. كانت متعلقة بيده، وعليه أن يطلب الطبيب مباشرة، أو ابنة أختها الشقراء التي تسكن في الطرف المقابل من الشارع. لم تقل هيبي إن إيمي فقدت عقلها.

جال بعينيه في الغرفة بحثاً عن مهرب، فرأى ثياب إيمي. ''هيه! هل ترتدين هذه الأشياء؟''، تبعت إيمي نظرته. ''تبقي البرد بعيداً''، قالت مشيرة إلى سراويلها الداخلية، ''إنها من ذوقي''، حولت

نظرها إليه، ''والتي لك مختلفة''.

إذاً، أخبرتها هيبي، ''نعم''، قال وهو ينظر إليها مباشرة، ''نعم،'' كرر، ''السراويل الداخلية للراحة، التنانير للهو''.

''فتى جيد''، قالت فجأة، ''فتى جيد، أنت وهي تقرآن الشعر''.

''هي تحكي لك الكثير''، بدا مرتاباً.

– ''يجب أن تتحدث إلى أحد ما. اتل علي شيئاً قبل أن تذهب''.

– ''سأحاول، ماذا تحبين؟''.

– ''تلك القصيدة عن شجرة الكستناء، تعرفها؟ فيها شيء عن التأصل العظيم''.

– ''نعم، شجرة الكستناء المزهرة؟''.

– ''تلك، ثم أحضر حنة، هل تعرفها؟''.

– ''أود ذلك''.

''قصيدة الكستناء أولاً''، أصرت إيمي.

سعل تيري، وبدأ. انتبه وهو يتلو القصيدة أن المطر توقف وأن الشمس بدأت بالظهور. ''يا شجرة الكستناء المزهرة ذات الجذور العظيمة''، حملت إيمي يده وقربتها من عينيها. عندما وصل إلى: ''كيف يمكن أن نعرف الراقص من الرقص''، استلقت إيمي هادئة ويدها في يده. نظر تيري إلى وجهها، لم يعد متغضناً من الألم. فكر وهو يجلس قربها متفحصاً وجهها، لماذا أحبت هيبي هذه المرأة العجوز. حل الهدوء في الغرفة. عليه أن يسرع لطلب المساعدة، لكنه لم يكن يرغب في كسر الهدوء بينه وبين إيمي. فتحت عينيها.

– ''أفضل الآن''.

نهض تيري، ''هل ستكونين بخير إذا تركتك وذهبت لإيقاظ ابنة أختك؟''.

– ''نعم''.

– ''يجب أن أحضر الطبيب''.

''لا، أنا أكره الهرج والمرج. سأكون بخير''، صار صوتها غاضباً فجأة، ''تريد أن تذهب، شكراً لقدومك. أحضر حنة فقط''، كانت منزعجة من نفسها، لقد خانت هيبي، ''أنا ممتنة جداً لك''، قالت بعنف.

ترك تيري يدها حائراً ومجروحاً، ونهض بصعوبة، ''سأذهب''. غادر الغرفة ونزل الدرج بسرعة مبللاً بالمياه، كان قد نسي أمر المياه التي أغرقت المنزل مركزاً على إيمي. والآن حين

صار غارقاً في الماء حتى الكاحل، نسيها. كان الفيضان أمراً طارئاً. سحب الباب الأمامي بقوة وترك الماء يخرج إلى الشارع، ثم ركض إلى منزل حنة وطرق الباب.

فتحت حنة الباب وهي في ثياب النوم، حدقت إلى تيري، كان عقلها مشوشاً بفعل النوم، لكنها شعرت بانتعاش غريب مبهج غير متوقع. ''واو!''، تحدث تيري بصعوبة، وبصوت لاهث، كان منفعلاً جداً، ''منزل خالتك غارق بالمياه العكرة، إنها تدخل من الخلف''. هذا ما سمعته حنة لكن عينا تيري أوصلتا رسالة أخرى. دفعها إلى الداخل ومد نفسه فوقها، فكان للحظة كل ما تمكنت من رؤيته رقبته وحنجرته. صاحت حنة، وهي ترجع إلى الوراء، ''من أنت؟ ماذا تريد؟''، قالت وهي تحدق إلى الشاب الأسود.

''اسمي تيري، صديق هيبي، ارتدي بعض الثياب بحق المسيح، أنت أنثى حمقاء. الفتاة العجوز تغرق''، كان انفعاله معدياً.

''ماذا هناك، إيمي؟''، نادى جيلز من أعلى الدرج.

شرح تيري الوضع لجيلز بصوت عالٍ. وخلال دقائق كانوا في منزل إيمي. اتصل جيلز بالطوارئ من هاتف إيمي. ذهب تيري إلى الخلف ليجد مصدر الفيضان. وصلت حنة ترتدي حذاء أصفر وسروالاً من الجينز وسترة خضراء. ''ماذا عن الوضع في الخارج هناك؟''، سألت.

– ''هذا عمل مجلس البلدية، اتصلنا بهم. هل هناك مجرفة حتى يمكننا أن نحول طريق الماء؟''.

– ''لا، ليس لدينا''.

''سأحضر واحدة من منزل هيبي، أنا ذاهب لأطعم الهرة بكل الأحوال''، اندفع خارجاً تحت المطر.

''من ذاك؟ إنه متسلط جداً؟''، قالت حنة لجيلز.

– ''صديق لهيبي، من حسن الحظ أنه وجد الفيضان. أسرعي أمي، كفاك تحديقاً''.

''هذه أنت، حنة؟''، جاء صوت إيمي من الطابق العلوي.

''أنا قادمة''، صعدت حنة وهي تتوقع أن إيمي ستسبب ضجة كبرى.

''هل أنت بخير، خالتي؟''، وقفت قرب سرير إيمي.

كانت تشعر بالمرض لكنها لا ترغب في إظهار ذلك، قالت إيمي على نحو غير مقنع، ''متعبة قليلاً فقط''.

''لا تبدين بخير''، كانت حنة قلقة.

– ''سأبقى هنا حتى تنتهي الفوضى. ذاك الفتى يمكنه أن يساعدك. لقد كان يتلو علي الشعر''.

نظرت حنة من النافذة الخلفية إلى تيري الذي كان عاري الخصر يفتح خندقاً ليحول مجرى المياه.
''ألا تعرفه هيبي؟''، سألت.
– ''رائع، أليس كذلك؟''.
''رائع؟''، نظرت حنة إلى إيمي، ''كيف وصلت إلى هنا؟''، سألت بصورة مريبة.
– ''قفز. إنه قافز''.
– ''تمزحين...''.

أغمضت إيمي عينيها. نظرت حنة بتمعن أكبر إلى تيري. كان رائعاً، وكان يجعل جيلز يضحك أيضاً. ارتفعت معنويات حنة. اممم، فكرت، لم لا؟، ''من الأفضل أن أذهب وأشرف على العمل إذا أردت أن ترتاحي،'' قالت.

''أنا مرتاحة''. حالما غادرت حنة الغرفة، ضحكت إيمي، كانت سعيدة لإمكانية أن ينوب عنها أحد ما في العمل، ولأن الوقت قد حان حتى تتحرر حنة من أفكارها، ومن أفضل من مزحة هيبي ليفعل ذلك. عرفت أن معيار هيبي لا بد كان عالياً، لكن هذا الشخص كان رائعاً. لذا، فهمت الآن تماماً لماذا نقضت هيبي عهدها غير المكتوب بألا تتورط أبداً في علاقة محلية.

مع نهاية الصباح كان تيري وجيلز قد أوقفا الماء، وكانت أرضية المنزل جاهزة للتنظيف، ونظّف عمال البلدية المجاري. كانت حنة تشعر بالأسف نوعاً ما وهي تملأ الإبريق لتعد الشاي، لأن انتقادها كان قوياً. عندما قدمت إلى تيري فنجان الشاي، نظرت إليه بتقدير، هو الذي أيقظها في الصباح ونظف خلفية منزل إيمي مع جيلز. فكرت أنه لا يبدو أكبر من جيلز بكثير. النظرة التي كانت على وجهه الآن مختلفة تماماً. اتسعت عيناها عندما تقدم نحوها وأحاط خصرها، فجعل الفناجين التي تحملها تهتز. ''سوف تسكب الشاي''، ابتسمت لتظهر أسنانها المنتظمة فيما دفع وجهه قرب وجهها.

''ما رأيك ببرغي صغير سريع قبل أن تبدأ الجلبة؟''، اقترح عليها.

دفعته بعيداً، وهي تضحك، ''يجب أن أعتني بخالتي''، جربت أن تبدو رافضة.

''في ما بعد، إذاً''، قال بإصرار.

''وأعتني بجيلز. اتركني، تيري''.

''سأنتظر''، تركها، ''سأريك شيئاً يمتعك''.

''قليل الحياء''، لم تستطع أن تمنع نفسها من الضحك، ''هذا يكفي''، قالت بعصبية نوعاً ما وهي تحاول أن تصده.

"هلا يحضر شخص ما كنوزي إلي؟"، قالت إيمي بصوت مرتعش من الطابق العلوي.

"لقد نسيتها. أي كنوز لديها؟ أراهن أنه ليس لديها شيء مما عندك"، وضع يديه فوق صدرها.

– "هيه، أبعد يديك".

"الكنوز"، صاحت إيمي، "كنوزي"، بصوتٍ أعلى.

"قادمة"، صاحت حنة، مبتعدة عن تيري، "قف هناك"، فتحت الخزانة وبدأت ترتب محتوياتها على الصينية.

"هل هي حقيقية؟"، نظر تيري مدهوشاً.

– "هي تظن أنها كذلك".

"باكارات، سانت لويس، كليشي، يا إلهي!"، حدق مذهولاً.

– "لا توقعها. خذها إليها. أعطيك شيئاً لتفعله بيديك".

– "هذه تستحق ثروة، إنها أصلية تماماً".

– "ماذا؟".

"حبي، ثدييك"، كان يتعذر كبحه.

– "سأتصل بجورج وأخبره بما حدث".

"من هو؟"، كانت عينا تيري اللتان تعكسان الألوان المتعددة لثقالات الورق تنمان عن الغيرة.

"جورج سكوب، إنه طبيب أسنان، جراح أسنان"، صححت لنفسها.

"يجرف التكلس عن أسنانك؟ يجرفها لك في السرير، أليس كذلك؟"، قرب وجهه من وجه حنة، وتابع ساخراً، "أي اسم لطبيب أسنان[28]!"، مال فوق الصينية التي يحملها بين يديه ليقبل حنة، وأدخل لسانه عبر أسنانها.

28 كلمة scoop تعني مجرفة.

"ابق بعيداً"، دفعته بقوة فمالت الصينية وبدأت ثقالات الورق بالانزلاق، "انتبه إليها!"، صاحت، "سوف تتحطم".

صحح تيري وضع الصينية، "سآخذها إليها، اتصلي بحبيبك".

راقبته حنة يغادر. لديه ظهر جميل، وبينما هي تتصل بجورج، قارنت نسخة تيري بنسخة جورج البيضاء المنمقة.

"هل يمكنني أن أتحدث إلى السيد سكوب؟"، سألت حنة موظفة الاستقبال التي تدعى جين.

''هل تريدين موعداً؟''، عرفت جين صوت حنة.

– ''أنا السيدة سوميرتون. أريد أن أتحدث إليه''.

''إنه مشغول، سيدة سوميرتون، هل يمكنني أن أنقل إليه رسالة؟''، قالت جين ضاحكة.

– ''فقط، انظري إن كان بإمكانه أن يرد''.

''حسناً، سيدة سوميرتون...''، سبب صوت جين الوقح القلق لحنة.

''فقط جربي، يا فتاة''، استخدمت القسوة، ''إنه أمر مهم''.

''لحظة فقط، سيدة سوميرتون''، سمعت حنة صوت الموظفة وهي تقول، ''إيفي، أخبري السيد سكوب أن حنة سوميرتون تريد أن تتحدث إليه، تقول إن الأمر مهم... لها''.

''مرحباً؟''، جاء صوت جورج عبر الخط بشيء من الريبة، ''من معي؟''.

– ''جورج، غرق منزل خالتي في المياه، أوه! جورج، غطت المياه أرض المنزل بالكامل''.

– ''هل اتصلت بالبلدية؟''.

– ''نعم، لكن أنا...''.

– ''هل أتوا؟''.

– ''نعم، لكن إن...''.

– ''سوف يهتمون بالأمور، انظري، أنا مشغول، حنة''.

– ''اعتقدت أنك قد تساعد، اعتقدت أنك سترغب في أن تعلم بالأمر''.

– ''لكنك حصلت على المساعدة، حبي، ماذا بإمكاني أن أفعل؟''.

''ظننت''، قالت حنة، ''أنك...''.

''أنا طبيب أسنان، حنة، لست عاملاً. ألا يمكن للجيران أن يساعدوا؟ شارعك مليء بالمتعطلين عن العمل''.

– ''فقط، لأنهم لا يستطيعون إيجاد عمل''.

– ''لكن أنا أستطيع، حنة، لدي عملية قلع صعبة أجريها. لا أستطيع أن أضيع الوقت بالثرثرة معك''.

''أنا لا أثرثر''، صاحت حنة.

''نعم، أنت تفعلين. أنا مشغول. لا أحب مقاطعتي عندما أكون في عملية جراحية. سأتصل بك في وقت ما''.

''وقت ما!''، صرخت حنة

– "انظري، حبي، أنا آسف، إنه ضرس عقل متجذر...".

لكن حنة كانت قد أغلقت الهاتف.

"لم يسرع إلى مساعدتك، سكوب؟"، كان تيري يقف خلفها، "تقول خالتك إنها تريد بعض الشطائر، هيه، أنت تبكين". لفها بذراعيه. ألقت رأسها على كتفه، شمت رائحة اللحم الدافئ والعرق الطري. شعرت فجأة أنها تكره عطور جورج وجسده المعقم. أرجع تيري رأسها إلى الخلف وارتشف دموعها بشفتيه.

١٨

ترك جيم هوكستابل سيارته في مرآب الحانة ودخل. طلب زجاجة جعة ووقف يشربها سعيداً بتمديد ساقيه بعد القيادة الطويلة. "هل لديك شطائر؟"، توجه بالسؤال إلى صاحب الحانة.

– "خبز أسمر مع سرطان البحر، خبز أسمر مع لحم عجل، خبز أسمر مع ديك رومي".

استمع وهو يتناول الطعام إلى حديث الناس عن العاصفة. ضرب الفيضان الشارع الواقع في أعلى التل، انتبه أكثر إلى الحديث. إذاً، كانت صديقة برنارد، صاحبة ثقالات الورق، في مشكلة. بينما هو ينهي طعامه، شاهد شاباً أسود مع فتى أبيض يتجادلان مع الساقي.

"نعم، نعم، هو تحت السن القانوني. لكن الجعة ليست له، إنها للمساعدين"، قال الشاب معترضاً على حديث الساقي، "رجال البلدية الذين ساعدوا في تنظيف منزل الآنسة ترايماين، تريد أمه أن تقدم إليهم الجعة".

– "كما تعلم لا يمكن تلبية طلبات من هم تحت الثماني عشرة".

انفجر الشاب بالضحك، مال باتجاه جيم، "إنه تاجر، ليس شرطياً، هيا جيلز"، حمّل جيلز علب الجعة، "أراك".

"عليك أن تكون حذراً"، قال الساقي دون أن يوجه حديثه إلى أحد محدد.

صعد جيم الشارع، كانت الرياح تجفف الطريق، نزل غراب من حديقة مجاورة إلى قناة التصريف على أمل أن يجد فيها طعاماً شهياً ثم طار جانباً. وقف جيم أمام بيت هيبي، تردد، ثم دق الجرس، إذا أتت إلى الباب، فإنه سيصاب بألم الإحباط بسبب خيبة الأمل التي ستصيبه بسبب توقعاته. ضغط إبهامه على الجرس، رأى ستارة تتحرك. هل كانت قلقة؟ ما الذي كانت تخاف منه؟ أدار رأسه. تحركت الستارة مرة ثانية. أطلت من خلالها هرة سيامية، نظرت إليه بعينيها الخضراوين. استسلم جيم.

عبر الشارع إلى منزل صاحبة ثقالات الورق، حيث كان الباب مفتوحاً، طرق الباب فأجابه صوت ضعيف من الطابق العلوي: "من هذا؟".

– "جيم هوكستابل، أتيت لرؤيتك منذ مدة. من أصدقاء برنارد".

– "اصعد".

كانت إيمي في السرير، وثقالات الورق على المنضدة بجانبها. بدت ضعيفة.

– ''أرى أنك غرقت في الفيضان''.

– ''تدبر الفتية وحنة الأمر. أنا أنتظر شيئاً ما لآكله. اجلس''.

جلس جيم قرب السرير، ''أما تزال ليست للبيع؟''، قال مشيراً إلى ثقالات الورق.

''هي ليست للبيع''، ابتسمت وهي تتابع نظراته.

''أعلميني في المرة المقبلة''، قال، ''هل أنت مريضة؟''، بدا غريباً أن يكون الطابق السفلي من منزلها غارقاً في الفوضى وهي تستلقي بكل هذا الهدوء في السرير.

– ''قليلاً فقط. أنا أفضل الآن. تسلق الفتى الأسود وأنقذني، كنت أعاني مشكلة قلبية صغيرة فقط، هذا كل شيء''.

– ''هل أتى الطبيب؟''

– ''لا أريده، ابنة أختي...''.

– ''الفتاة السمراء؟''.

''لا، حنة، الفتاة الشقراء. هل تعرف هيبي، إذاً؟''، صار صوت إيمي حادّاً فجأة.

– ''لا، لا أعرفها. أتساءل فقط هل لديها قطع أثرية للبيع. لقد مررت على جميع المنازل الأخرى. ظننت أنني...''.

''هيبي لا تملك أثريات. لن تبيع أثريات، ليس الآن''، كانت إيمي عدوانية.

– ''هل فعلت ذات مرة؟''.

''الشطائر قادمة، خالتي''، كان هناك صوت أقدام على الدرج، ثم دخل جيلز الغرفة مسرعاً، ''إيمي تسأل هل تريدين شيئاً آخر''. نظر جيلز إلى جيم. ''مرحباً، رأيتك في الحانة''. وضع جيلز الطبق قرب إيمي، ''سوف تنهي العمل قريباً، هل هذا كافٍ؟''.

''إذاً هي تدعى هيبي''، قال جيم محاولاً تنبيه إيمي، متجاهلاً جيلز.

أجابت إيمي جيلز: ''نعم، حبيبي، هذا كثير، أخبرها واشكرها''.

وقف جيلز مستعداً للمغادرة، ''هل أنت بخير، إذاً؟''، قال وهو ينظر إلى جيم بريبة.

''نعم، حبيبي''، أجابته إيمي.

– ''نحن ذاهبون إلى الشاطئ لجمع الأخشاب الطافية، المد منخفض''.

– ''استمتع''.

''إلى اللقاء إذاً''، اندفع جيلز خارجاً وحذاؤه الرياضي يصدر وقعاً قوياً على الدرج.

''إذاً هيبي كانت تبيع أشياء في وقت ما''، حاول جيم من جديد أن يعيدها إلى الحديث، هل كانت تبيع شيئاً في سوق بورتوبيللو، في متجر أثريات في المدينة؟ في سوق كامدن؟

قضمت إيمي شطائرها، ''باعت بعض الأشياء لوغد عجوز، ذلك كل شيء''، لماذا كانت تخبره بهذا، تساءلت في سرها وهي تتناول الطعام، لأنني أحب نظراته، هذا هو السبب، ''ولكن لنقل الحق، لقد أعطاها سعراً جيداً''.

''هل باعتهم لبرنارد؟''، خاطر جيم بالسؤال، ''هل تعرفين لمن باعتهم؟''.

''هيبي طاهية''، تجاهلت إيمي سؤال جيم، ''طاهية محترفة، كوردون بلو. حنة، التي أعدت هذه الشطائر ليست كوردون بلو، لكنها أيضاً طاهية جيدة جداً. رأيتك تتحدث إليها''.

– ''نعم، جميلة جداً، عيناها خضراوان''.

''صحيح، حنة سوميرتون. كان اسمها كرول لكنها غيرته، غيرت أسنانها أيضاً''، قالت إيمي.

''أسنان جميلة، أذكر''. كان جيم مؤدباً. كيف يمكن أن يعود المرء بالحديث إلى الفتاة السمراء.

''كانوا''، مالت إيمي باتجاه جيم وهي تقول، '' كانوا في جميع الاتجاهات''.

– ''أوه''.

– ''لكن هذا لم يمنعها من اصطياد كرول. هو ثري، وهي تريد واحداً آخر الآن، مع ذلك''.

''أنا لست غنياً''، ابتعد جيم عن العجوز التي تطلق الفتات من فمها.

''أنت بأمان، إذاً''، خذ هذه الصينية إلى الأسفل عندما تذهب، ''إنها هناك، عزيزي، سآخذ قيلولة''. بدت عجوزاً ومريضة وأرادته أن يغادر.

أخذ جيم الصينية، ''ضعها في المطبخ الخلفي. لطف منك أن تتصل، إلى اللقاء''. سحبت الغطاء فوق رأسها وهي تزم شفتيها متجاهلة إياه.

أخذ جيم الصينية إلى الأسفل. كان بإمكانه أن يخبر برنارد أن ثقالات الورق بأمان، وإذا كان مهتماً يمكنه عندها أن يرجع مرة ثانية. تساءل وهو يعبر الشارع هل يريد أن يجدد معرفته بحنة، نظر إلي بيتها، لكنه قرر أنه لا يريد وعاد إلى سيارته. سدت المرأة العجوز الطريق في وجهه، لماذا؟

''الآن''، أسدل تيري الستائر في غرفة نوم حنة، ''دعينا نبدأ العمل''. سعل بهدوء دافعاً حنة إلى الخلف بلطف إلى السرير. ''هل تحبين ذلك تحت الغطاء أم فوقه؟''، كان صوته أجشاً، سعل مرة ثانية، ''لنفترض أنك خلعت سروالك الداخلي، سأخلع أنا سروالي''.

''سروالك؟''، شهقت حنة، ''هل ترتدي...''.

''لطيف، أليس كذلك، وهذا''، كان فوقها، ''لطيف أيضاً''.

''لم أكن أعلم أن الرجال يلبسونها''، كانت مهتمة بالأمر.

– ''حرير طبيعي. سأشتري لك زوجاً. الآن انتبهي''.

كانت مستمتعة تماماً، وهي تشعر بالنعومة، ''هل هو من الساتان؟''، هذا غير عادي، مثير.

– ''أنا''.

''أنت''. لمسته. كان هناك رجل شاب. نسيت ما كانت على وشك التفكير فيه بخصوص جورج.

– ''أنا عادة لا...''.

– ''هس، هيا، لنبدأ بسرعة، يحتاج الأمر إلى اثنين''.

تذكرت حنة وهي تراقب تيري بينما هو غارق في النوم، ويتنفس بصمت من أنفه، تذكرت جورج الذي كان معروفاً بشخيره. جورج كان لديه مال. هزت تيري بلطف.

''ماذا تعمل؟''، سألته.

– ''مهن حرة''.

''مهن ماذا؟''، لكن تيري أراد أن ينام. تذكرت أنه كان عليها أن تنظف أرضية منزل إيمي. استلقت لبضع دقائق أخرى، وهي تفكر هل سيأتي جورج لمساعدتها أم لا؟ بالتأكيد لن يفعل، سيقول إن يديه ثمينتان، نفايات، فكرت باستياء، كان بإمكانه أن يرتدي قفازات، التهب في ذهنها تعبير ''ثرثرة''، استدارت لتصل إلى يد تيري الناعمة، القوية، مع أظفار جميلة. جورج يعض أظفاره حين يكون متوتراً.

– ''تيري؟''.

''نعم''، استيقظ تيري، ونظر إليها بعينين داكنتين لامعيتن، ''مرحباً، يا وزتي''.

– ''قل ريغاتا''.

''ريغاته''، كان يبتسم، ''هل يناسبك اللفظ؟ أنا ريغاته، أنت ريغاته، هي أنجبتها، هل تتناولين حبوب منع الحمل؟''، قال بصوت يشوبه القلق.

''نعم''، احمرت خجلاً من الاعتراف. كان جورج يصرّ على تناولها الحبوب.

''آه، آه...''، ضرب وجهها بلطف.

– ''علي أن أنظف أرض منزل خالتي''.

''سأساعدك''، نهض مندفعاً، ''أين سروالي الداخلي، إذاً''.

– ''على الأرض''.

راقبته يرتدي سرواله النسائي، إنه حقاً يناسبه، أجمل بكثير من سراويل جورج الفضفاضة.

شعرت هيبي أنها سعيدة في الحياة وهي تنزه كلاب لويزا على طرف النهر بعد العشاء. كانت تستمع بعملها لدى لويزا. المتعة في الريف كانت مختلفة جداً عنها في شارع الآجر الداكن الذي عاشت فيه. فقط لو كان سيلاس معها، لكان الوضع ممتازاً، فكرت، لكن لو أنه كان هنا، ما كان من الممكن ترتيب إضافة روري إلى مجموعتها. فكرت في روري، كان محبباً إليها، لكنه في المقابل كان ابن أخ لويزا، وهذه علاقة من الممكن أن تسبب إحراجاً حقيقياً. كانت تريد أن يبقى عملها في الطهو وممارسة الجنس منفصلين عن بعضهما بعضاً تماماً، وهذا قد يكون صعباً بما أن روري يعيش قريباً جداً من لويزا، لكن لم لا، شجعت نفسها. منزلي القديم ليس بعيداً جداً وهم، جداي مع كلبهم الجديد، لا يعرفان أنني هنا. ستوافق إيمي على روري، ابتسمت هيبي. كان روري عازباً، وينتمي إلى طبقة المجتمع التي تتخيلها إيمي طبقة مناسبة لهيبي. إيمي رومانسية، وقد ترى في روري السيد ''ملائم'' الذي تمنته سراً لنفسها. شعرت هيبي، وهي تفكر في إيمي، بموجة حب وعرفان بالجميل. لقد كان قلة اعتراف بالجميل أن تكره الشارع القبيح، حيث أمنت إيمي لها منزلاً لطيفاً. في ذاك الشارع، وجدت ملجأ لها عندما شعرت بالقلق وهي تنتظر ولادة سيلاس. وهناك اختبرت المتعة الفائضة عندما ولد. أعادت صياغة حياتها، وتخلصت من الشخصية التي تربت لتكون عليها، متدبرة بقاءها، مخططة لعملها طاهية. هناك وجدت الصداقة مع برنارد الذي تعرفت منه إلى هيبولايت، وإلى صيغة العيش التي خططتها بحذر. توقفت خلال جولتها قرب النهر لترمي عيداناً للكلاب، أو لتسمع صوت فأر حقل يغطس في المياه، وتراقبه يسبح قرب الضفة ثم يختفي. اعتبرت هيبي نفسها محظوظة. باركت لنفسها المهنة المربحة التي بتخطيط متوازن كانت طريقة فعالة جداً للحفاظ على حياة ممتعة جداً إلى جانب تأمين التعليم لسيلاس. طردت غيمة صغيرة من الشك كانت تهاجمها أحياناً وتجعلها تفكر هل كانت قد اختارت فعلاً التعليم الصحيح لطفلها.

نظرت هيبي إلى انعكاس صورتها هي وروفوس في المياه المتموجة الداكنة. هيبولايت الفرد المؤسس للنقابة هو من شجعها أن تضع ثمناً غالياً لنفسها. علمها عن السرير. كان ذلك بعد تعلم ''نظام المعجنات''، إذ إنها وسعت أفقها عندما جاءت الفرصة وأصبحت عاهرة إضافة إلى كونها طاهية. كان مونغو أكثر من ربحت منه بين عشاقها. هيبولايت كان عاشقاً وصديقاً على الدوام. وأخيراً كان هناك تيري، الطريف المسلي، والآن روري. مسدت رأس رورفوس الرطب. ''كل

شيء بخير''، قالت للكلب الذي كان انعكاس صورته في المياه يظهر اهتزاز ذيله. ''أحب عملي. أنا أعطي سيلاس الفرصة ليصبح ما يريد. بضع سنوات أخرى من العمل الممتع، روفوس، أيها الكلب العجوز، وسيكون بإمكاني التقاعد''. مالت إلى الأمام لتشاهد سمكة سلمون تنزلق تحت العشب. كانت حركتها جميلة جداً. حبست أنفاسها وهي تراقبها. ''إنه مساء رائع''، قالت للكلاب، ''اركضوا، انطلقوا، يجب أن تجفوا، اركضوا''. ركضت هيبي مع الكلاب بجوار النهر. كانت رشيقة وسعيدة لأنها ستكون قريباً في المنزل مع سيلاس لبقية العطلة.

كانت الشمس قد غابت، ومن النوافذ الفرنسية للصالة في منزل لويزا، تسرب ضوء أصفر إلى الحديقة. كان المشهد مليئاً بالحياة بوجود حشرات العث في الجو، وصوت الأخبار المنبعث من التلفاز مع عطر الياسمين والتبغ الذي ملأ الهواء.

''أي مساء رائع''، قالت هيبي وهي تدخل الصالة من الحديقة حاملة أزهاراً برفقة الكلاب. نظرت لويزا التي كانت تجلس على كنبتها قبالة الموقد الذي تشتعل فيه قطعة من الحطب، رغم أنه كان مساء من ليالي آب، نظرت إليها مبتسمة.

''نحن نستمع إلى الأخبار فقط''، قالت بهدوء. كان مونغو جالساً يسارها وروري إلى يمينها، وكلاهما ينظر إلى هيبي بترقب.

كان مذيع الأخبار يقول: ''... لتفتح صاحبة الجلالة الستارة... المطر بسعادة... بشكل غير رسمي مختلط بالعظمة... أنزلت المظلات... أجيال حاضرة هنا اليوم... الملكة الآن... قد يقول أحدهم... نبض التاريخ... وفد من غوتا... الإلهام... الكبرياء... جولة الملكة... الرجل العظيم... أمير وأميرة ويلز... عظيم... ''.

''زير نساء كبير، لديه الكثير من العلاقات، هكذا يقولون، لكنني لا أظن أن الأمر يتعدى وجود الكثير ممن يشبهونه''. على الشاشة كانت جلالتها تسحب الشريط ليظهر تمثال لرجل دولة مصنوع من البرونز. تابعت لويزا حديثها: ''لقد التقيت روري، بالطبع، وأظن أنك تعرفين مونغو''. كانت لويزا مستمتعة بالوضع.

''نعم، بالطبع، كيف حالكما، هاي!''، قالت هيبي التي لم تقل أبداً في حياتها ''هاي''، ''هل تريدون أي شيء؟''، وجهت حديثها إلى لويزا، ''أنا في طريقي إلى السرير''.

– ''لا، شكراً لك، عزيزتي''.

كان مونغو وروري قد نهضا.

''أظن أن بإمكاني أن آخذ روفوس لينام في غرفتي الليلة''، قالت هيبي وهي تنظر مباشرة إلى عيني لويزا، ''كان مزعجاً جداً الليلة الماضية''، انقطعت أنفاس روري.

''لقد كان كذلك حقاً، فكرة جيدة أن تأخذيه معك، تصبحين على خير، عزيزتي''، قالت لويزا مبالغة بابتهاجها.

''تصبحون على خير، إذاً، تعالي معي أيتها الكلاب''، غادرت هيبي الغرفة تتبعها الكلاب.

''أطفئ التلفاز، مونغو. هلّا تسدل الستائر، روري، بما أنكما واقفان؟''، استدارت لويزا إلى مونغو: ''أخبرني الآن كيف هي العزيزة لوسي، أمك، مونغو، انتبه''.

كان مونغو واقفاً يحدق في الباب الذي أغلقته هيبي وراءها، ''إيمي بخير''، تمتم.

– ''وأليسون، كيف هي العزيزة أليسون، ألم تذهب إلى أميركا أو شيء كهذا؟''.

''أو شيء كهذا''، قال مونغو بحدة، ''هربت لتشكل ثلاثياً''.

''يا إلهي!''، صاحت لويزا، ''لكنك ستعيدها؟''، قالت ساخرة.

''لسوء الحظ نعم''، قال مونغو، ''أمي...''، حدق إلى الباب. لماذا بحق الجحيم غادرت هيبي بهذا الأسلوب مصطحبة جوقة الكلاب معها كأنها كانت بحاجة إلى حماية؟ لقد عرف الكلب روفوس؛ عضّه ذات مرة. هل تتخيل أنه قد يندفع إلى الأعلى ويغتصبها أمام هؤلاء الناس؟ بالطبع، هو أراد أن يغتصبها، ألم يكن هذا ما جاء من أجله؟ ماذا بحق الجحيم يفعل روري الأحمق هذا هنا، على أي حال؟ لماذا كانت لويزا تتصرف بهذا الأسلوب المضحك؟

''أمك، كنت تقول؟''، نظرت لويزا إليه.

''قالت شيئاً ما، لمّحت إلى شيء ما. أوه! لا أعرف لكن أليسون عائدة''، كان مونغو في غمرة ألمه وغضبه يصرخ تقريباً، ''عائدة على متن أول طائرة تتمكن من الحجز فيها''.

– ''ماذا قالت لها أمك؟''.

''لا أعرف''، قال مونغو بصوت ضعيف.

– ''أتوقع أنها أخبرتها أن الرجل مصاب بالإيدز. وأليسون لن تحب ذلك''.

''بحق المسيح! هل تعتقدين أنه مصاب إيدز؟''، كان مونغو مصدوماً.

''يجب أن أكون مصدومة لو أنه كان كذلك، لكنني لا أستطيع أن أرى أمك تتدبر الأمور من دون أليسون. هي تعتمد عليها كلياً''، ابتسمت لويزا، دون أن تضيف، ''وأنت كذلك''.

روري الذي كان قد وصل إلى منزل لويزا بالتزامن مع وصول مونغو، وكان يغلي بغضب مكبوت لقدوم قريبه، أطلق ضحكة عالية. لم يكن يحب مونغو أبداً. كان هذا الأخير يكبره بعشر

سنوات، ويتميز أنه من خلفية أكثر ثراء منه، وأنه كبر ليكون صورة عن أبيه، "مونغو يتلاءم مع العائلة، يتبع خطا أبيه، لم لا يمكنك أن تنضم إلى الجيش؟ سيكون مرحباً بك في النظام القديم". ارتبط تردّد روري في الانضمام إلى الجيش بقوة مع إصرار مونغو ورغبته في العمل في شركة أبيه، ولو لم يكن يحقد على مونغو بهذا الكمّ، لكان قد شعر بالامتنان لهذا التأثير السلبي. بينما كان روري يراقب سلوك مونغو منذ وصوله إلى منزل لويزا، الطريقة التي جالت فيها عيناه على المنزل، حجته الضعيفة التي تذرع بها للدخول إلى المطبخ وإحضار كوب من الماء، سهوه القلق أثناء حديثه مع لويزا، خمّن أن مونغو كان فرداً في رابطة هيبي، وعندما دخلت هيبي من باب الحديقة محاطة بالكلاب، حاملة الأزهار وهي تبدو في ثوبها القطني الخفيف مثل الأميرة ديانا في أيامها الأخيرة، قفز قلب روري من مكانه، وكان واضحاً أن قلب مونغو فعل الشيء نفسه. ما كادت هيبي أن نظرت إلى أي منهما، لكن بكذبة مكشوفة ادعت فيها إحساسها بالتعب، غادرت لتقفل على نفسها بلا شك في غرفة النوم التي يعتبرها له، والتي نام فيها حديثاً جداً بين ذراعيها، هي السمراء، الناعمة، الدافئة... أغمض روري عينيه محاولاً أن يبعد من خياله المشهد المتطفل لهيبي بين ذراعي مونغو. أوه! يا إلهي! أوه! يا إلهي! توسل روري إلى خالقه، لا أستطيع احتمال ذلك. تحوّل غضبه من مونغو لينصب على لويزا، التي كانت تزعج مونغو بأسئلتها عن أليسون وأمه وولديه اللذين في المدرسة: إيان وأليستر. دقت سمع روري مصادفة كلمات غريبة، لم تحرك أحاسيسه لكنها أجبرته على الانتباه إلى ما يجري.

"ليس فعلاً، مونغو، ليس هناك أي سرير مجهز"، بدا الأمر أن مونغو يدعو نفسه إلى البقاء، "لا أستطيع أن أطلب من هيبي تنفيذ أعمال المنزل، إنها تأتي إلى هنا كي تطبخ، لا لشيء آخر. وهي متعبة، كما رأيت دون شك".

فكر روري بصورة الحيوية والنشاط التي بدت عليها هيبي.

"أقترح..."، كانت لويزا تذرع الغرفة، "أن تطلب من روري استضافتك هذه الليلة. أنت ستفعل ذلك بسعادة، روري، أليس كذلك؟".

"ماذا؟"، يمكن للمرء فعلاً أن يغرق في العاطفة، فكر روري مدهوشاً.

"ستستضيف قريبك مونغو هذه الليلة. عليه أن يغادر باكراً ليكون في المنزل عندما تتصل أليسون لتخبره بموعد وصولها من كاليفورنيا، الساحل الغربي لأميركا"، أضافت لويزا، كأن روري كان طفلاً أبله نوعاً ما ولا يعرف الجغرافيا.

"لا أظن..."، بدأ روري الحديث.

– ''فرصة جيدة لتتعرفا إلى بعضكما بعضاً، أنتما، بعد كل شيء، أولاد عمومة. رغم أنكما ربما ليس لديكما الكثير من الأشياء المشتركة''.

– ''أنا...''.

''ربما لديكما أشياء مشتركة أكثر مما تظنان''، هل كانت تتعمد أن تكون خبيثة؟، ''أنتما من الجيل نفسه. أنا متأكدة أنكما ستجدان اهتمامات متبادلة''.

''كنت آمل...''، بدأ مونغو نوعاً من العتاب.

نهضت لويزا وهي تفكر أن لا حاجة لمونغو إلى أن يعبر عن آماله، ''كان لطفاً منك أن تمر بي وأنت في طريقك، وأنت أيضاً، روري، تعال للصيد متى تحب. الآن عليكما أن تعذراني، أشعر بعمري هذا بعد المبالغة في العمل في الحديقة، ومع أن هيبي هنا، مثل هذه الطاهية ومثل هذا الطعام! أنا آسفة لا أستطيع أن أطلب منكما البقاء. لكن بالطبع أليسون طاهية رائعة، أيضاً، كما هي مديرة جيدة. عندما تأتي في المرة...''، كانت لويزا تتحرك باتجاه الباب، ما أجبر مونغو وروري على اللحاق بها، ''... المقبلة، اتصل بي وأعلمني بقدومك. سيكون ذلك لطيفاً جداً''، كان ذلك ممكناً، فكر روري باحترام، لكن لم يكن لطيفاً أن يسأل الآن.

''أنا أستمتع دوماً برؤية الشباب''، كانت قد فتحت باب الصالة وسارت أمامه عبر الرواق، ''يجب أن تحضر أولادك لرؤيتي، مونغو، جميل جداً أن يكون لدى لوسي أحفاد''. هل كان ذلك خبثاً في صوتها؟ أمسكت ذراع مونغو، هل كانت تظن أنه سيندفع عبر الدرج وراء هيبي؟ تساءل روري: ''هل أحضرت معك شيئاً؟''، سألت لويزا.

''لا''، قال مونغو، الذي كانت حقيبته في سيارته. اعتدت أن أحب العمة لويزا، فكر بمرارة، العجوز الخبيثة.

''إذاً، تصبح على خير. ليباركك الله''، مدت لويزا وجهها كي يقبلها، ''وتصبح على خير، روري، جميل أن أراك، جميل''.

سار مونغو وروري إلى سيارتيهما.

''سوف أستضيفك الليلة''، قال روري برفق غير متوقع.

''أوه! اذهب إلى الجحيم''، استقل مونغو سيارته الجاكوار وأغلق الباب بعنف.

ركب روري سيارته الفولفو وأغلق الباب بهدوء قبل أن يدير المحرك.

راقبت لويزا السيارتين تنطلقان إلى الطريق الرئيسي.

''يا لها من مسرحية!''، انفجرت بالضحك.

ابتسمت هيبي وهي تميل بنفسها عبر النافذة، والكلب روفوس إلى جانبها، تشاهد ما حدث. بقيت لويزا عند الباب إلى أن اختفى صوت السيارتين بعيداً، ثم دخلت مغلقة الباب الأمامي. رأت هيبي ضوء الرواق يطفأ. أصغت إلى الأصوات الناعمة لليلة آب الهادئة: صوت طائر جاثم يأخذ استراحة، صوت سيارات قادم من بعيد، وصوت بقرة تخور في المرج. "تعال، روفوس"، صعدت إلى السرير، وتبعها الكلب، "سيدتك رائعة". لفت ذراعها حول الكلب الذي همهم بسعادة، "لن أقلق بشأن هذه الليلة"، قالت للكلب واستلقت آملة أن تغفو دون أحلام أو... أصوات الترنيم، الأظفار القذرة، شيوعيون، أقراط، إجهاض، أقدام عارية. حوّلت عقلها إلى لحظات أخرى، عندما لم تكن الأشياء صحيحة تماماً: قصة الإحراج في فندق الكلارنس في إكسيتِر، دخول روري عليها وهي تجرب القبعة، هيبولايت الذي فوجئ بعودة زوجته غير المتوقعة من السوق فقفز من السرير ليرتدي سرواله، صائحاً: "Il faut sauver les convenances"[29] قبل أن ينزلق خارج النافذة، "أنت لا تهتم بالأسلوب اللائق"، قالت هيبي للكلب المستلقي قربها. ثبت روفوس قدميه بالجدار ودفع ظهره مقابل هيبي، "أنت تأخذ مكاناً أكثر من أي عاشق"، قالت وهي ترفض التفكير في المشكلة التي واجهتها. غفت جيداً فجأة.

29 على المرء أن ينجو بنفسه بأسلوب لائق.

"لا تكن مثل هذا الأحمق، مايكل، اغسلهم خارجاً، هناك صنبور قرب الباب الخلفي... نعم، هناك، استخدم عينيك، أنت أحمق... سأعطيك قليلاً من سائل التنظيف، سيزيل منهم الرائحة... نعم، سيفعل. كلما أسرعت بذلك، كان أفضل... لا تبلل نفسك... كيف تجرؤ أن تتحدث بهذا الشكل؟"، تبع الحديث صوت صفعة، وصوت مايكل يبكي بألم واستياء، "لم أعرف أبداً أحداً يسبب كل هذا الهرج والمرج، يصاب الجميع بدوار البحر في وقت ما...".

"ليس في حذائي"، قال مايكل مع أنين.

"توقف عن الحديث عن حذائك اللعين، توقف عن التذمر"، تبع ذلك صوت صفعة أخرى.

"ذاك مؤلم!"، صاح مايكل.

"لقد تعمدت أن يكون كذلك"، كان صوت جنيفر ريفز يقطر سمّاً، "إنه ضيفك، أنت أصررت على دعوته"، كان هناك صوت صفعة أخرى، وجنيفر تقول شيئاً ما لم يتمكن سيلاس من سماعه.

نظر سيلاس خارج النافذة وهو يبدل ثيابه المبللة. كان مايكل يحمل الحذاء الذي تقيأ سيلاس فيه. اقترب من الصنبور الواقع تحت النافذة. سكب سائل التنظيف داخل كل حذاء وفتح الماء. رأى سيلاس أن خدّ مايكل كان محمراً وأنه كان يبكي. شعر سيلاس وهو يرتدي جوارب جافة بالأسف من أجل مايكل، رغم أنه كان فظاً وغير متعاطف على المركب. ضحك إيان وأليستر عالياً وهما ينظران إلى جوليان ليعرفا ها كان هو الآخر يجد الأمر مسلياً، لكنهما هدآ فجأة مدركين أن هناك شيئاً ما يحدث أهم من مرض سيلاس. كان جوليان غاضباً من تهوره، فالطقس الذي كان أسوأ بكثير مما توقع عندما انطلقوا من ميناء سانت ماري، أضر بالمركب، وكان جوليان بحاجة إلى كل خبرته ليرجع إلى البيت، وليس بحاجة إلى إزعاج آخر بهذا الطفل المصاب بدوار البحر.

"انزل إلى لأسفل"، صاح بسيلاس، "ابتعد".

نزل سيلاس قلقاً إلى الأسفل وزحف إلى زاوية الحجرة. بدا أن صوت الارتطام، الاهتزاز والضجيج سيستمر إلى الأبد. كان يستمع إلى صراخ جوليان وهو يوجه الأوامر إلى مايكل وأليستر وإيان. كان سعيداً؛ إذا كان هذا ما يكون عليه الآباء، فهو سعيد لأنه ليس لديه واحد، والآن ها هي السيدة ريفز (كان يشعر بقدرة أقل بكثير من أي وقت مضى أنه يمكن أن يناديها جنيفر)، كانت تشتعل غضباً.

كان سيلاس قد ارتدى قميصاً جافاً، ووقف بقميصه وجوربه ينظر إلى مايكل في الأسفل. كان الحذاء مليئاً بماء أبيض مزرق حركه مايكل بعصا وأفرغه في البالوعة. مد سيلاس نفسه للخارج ليرى هل هناك بقايا يمكن تمييزها من الفطائر، ثم بدأ يبحث عن سروال جاف، وارتدى سترته الخاصة.

''أحضر ثيابك المبللة معك إلى الأسفل عندما تنتهي سيلاس، سأغسلها''، نادت جنيفر عبر الدرج.

رد سيلاس: ''شكراً جزيلاً لك''، وعاد إلى النافذة. كان قد وضع ذراعاً واحدة في كم السترة، ساحباً إياها عبر رأسه، ''هل فسد الحذاء إلى الأبد؟''، قال وهو يميل بنفسه خارج النافذة.

نظر مايكل إلى الأعلى، ''هو فقط مبلل بشكل غير عادي''، قال متذمراً وهو يشعر بالحقد.

''سأحشوهما بأوراق الصحف''، اقترح سيلاس، ''ذاك ما تفعله أمي''.

– ''فكرة جيدة''.

– ''أنا آسف جداً''.

''انس الأمر''، كان لون خد مايكل قد بدأ يبهت.

– ''لأمك...''.

''لديها مزاج قذر''، تمتم مايكل، ''كلاهما لديه''.

''شاي ساخن''، صاحت جنيفر بسرور مصطنع، ''شاي ساخن، سيلاس''، ثم بنبرة مختلفة، ''بحق السماء، اذهب وبدّل ملابسك، مايكل، لا تتسكع هكذا، ستصاب بالبرد، قل لأليستر وإيان أن يبدلا ملابسهما أيضاً. أنت كبير جداً لتحتاج إلى مربية''.

''المربية لا تضربني أبداً''، صعد مايكل الدرج راكضاً. بدا كأنه تفادى صفعة أخرى، ''خذ ملابسك المبللة إليها''، قال لسيلاس، ''أعطها شيئاً ما لتفعله، يمكنها أن تضعها في آلة الغسيل''.

''شكراً''، جمع سيلاس ثيابه. كانت رائحة القيء تفوح من سترة هيبي البيضاء، ''لم أكن أقصد...''.

''لا أحد يقصد أن يكون مريضاً''، كان مايكل قد بدأ بخلع سترته من فوق رأسه، ''هل أمك من النوع الذي يغضب؟''.

''لا''، بدت هيبي بعيدة جداً عن جزر سيلي، ''لا، لا تفعل''. جرّب أن يتخيل هيبي تصرخ مثل السيدة ريفز. كانت الفكرة سخيفة.

''أمنا تفعل''، كان إيان وأليستر قد انضما إليهما. كانا أيضاً يخلعان سترتيهما فوق رأسيهما الأشعثين، ''أمنا تغضب، أبونا ينزعج''.

''جميعهم يفعلون''، قال أليستر متفلسفاً.

''اليوم بأكمله هو خطأ والدي''، قال مايكل وهو يبحث عن ملابس جافة، ''عرف أن الإبحار حول صخرة بيشوب سيقلقه، لكنه كان يتباهى''.

''أوه!''، وقف سيلاس في الممر يحمل ملابسه المبللة.

''شاي''، نادت جنيفر عبر الدرج. نزل سيلاس إلى المطبخ. أخذت جنيفر الملابس منه، ''يا للقرف!''، حملتها وذراعها ممدودة إلى أقصى حد وهي تعبر الغرفة إلى المطبخ الخارجي، سمعها سيلاس تفتح آلة الغسيل وتقول ''يا للقرف!'' مرة ثانية.

جلس جوليان الذي كان قد بدل ثيابه قبل ذلك إلى مائدة المطبخ.

''شاي؟''، قال لسيلاس.

''شكراً لك''، راقب سيلاس جوليان وهو يصب الشاي في فنجان كبير. كان لديه خدّان مليئان، وكان عابساً.

– ''حليب؟ سكر؟''.

– ''نعم، من فضلك''.

صبّ جوليان الحليب وأضاف قطع السكر، ثم أخرج زجاجة من جيبه وأضاف جرعة ويسكي إلى الكأس، ''سيهدئ هذا معدتك''، قال وهو يغمز سيلاس، ''اشربها وستشعر بالتحسن''.

شرب سيلاس وهو يفكر أن المزيج مقرف. كره أن يكون جوليان قد غمزه، وتساءل بكآبة هل سيتقيأ مرة أخرى. كان واضحاً أن جوليان يتمناه أن يفعل، لكنه بدلاً من ذلك شعر بوهج الانتعاش، فمد الكأس التي فرغت وطلب المزيد.

''أوليفر تويتستنغ[30]''، توقف جوليان عن التجهم، عادت جنيفر إلى الغرفة كاتمة صوت آلة الغسيل بإغلاق الباب، وقالت: ''حقاً، جوليان''، بطريقة ساخرة، ثم جلست إلى المائدة لتشرب الشاي وتتناول الكعك. أدار جوليان المذياع وهو يتمتم: ''أريد أن أسمع نشرة الطقس''.

30 تعبير يستخدم للتحرش الجنسي بالأطفال.

''كان عليك أن تسمعها الليلة الماضية''، قالت جنيفر بطريقة تهكمية. رفع زوجها حاجبيه باستسلام زائف. كان أحدهم يجري لقاءً مع سياسي في المذياع.

– ''كلمات غير واضحة، كلمات غير واضحة''.

''ذاك سؤال جيد جداً''، قال السياسي.

''اللعنة. الساعة اللعينة توقفت مجدداً، لقد انتهت النشرة''، أطفأ جوليان المذياع، ضرب ساعته ونهض. كانت معدته تتدلى فوق حزامه، ''في أي ساعة العشاء؟''.

''الموعد المعتاد نفسه''، أجابت جنيفر دون أن ترفع نظرها.

''اليخنة القديمة نفسها؟''، سأل جوليان بخبث.

''السيدة شيء لا تملك الكثير من الخيارات''، قالت جنيفر بسخرية.

''هناك وقت لتناول كأس من الشراب، سأسألهم في الحانة هل سمعوا نشرة الطقس. هل ستأتين؟''.

– ''أحضر لي بعض السجائر، إنها على وشك النفاد. لا، لن آتي. لو أنك استمعت إلى النشرة في الليلة الماضية بدلاً من محاولتك جذب تلك الفتاة في الحانة، ما كان...''.

''أوه، بحق المسيح!''، صاح جوليان.

''ها قد بدأنا''، همس مايكل.

''كان من الصعب جداً أن تنتظر إليك، إنها في شهر العسل''، علا صوت جنيفر.

''أنت بقرة غبية، اخرسي''، غادر جوليان وضرب الباب خلفه. بدأت جنيفر تنظيف المائدة. ''ارتدوا المعاطف إذا كنتم ستخرجون''، قالت، وكان هذا أمراً.

''سأساعدك في نشر الغسيل''، كان سيلاس قد انتبه إلى أن صوت آلة الغسيل توقف.

''شكراً لك، سيلاس''، قالت جنيفر.

ارتدى مايكل وإيان وأليستر معاطفهم وانتعلوا أحذيتهم في الشرفة، وخرجوا تاركين سيلاس مع جنيفر.

''هيا، إذاً''، بدت مضحية.

كان المطر قد توقف تقريباً. وضع سيلاس الثياب الرطبة في السلة وأخذها إلى المنشر. نفضت جنيفر كل قطعة من الملابس وعلقتها. ساعدها سيلاس وهو يلاحظ أنها وهي تمد نفسها إلى الأعلى كان ثدياها الكبيران يتمايلان، وفي المكان الذي انفصلت فيه بلوزتها عن التنورة، ظهر هناك خط من البشرة البيضاء المتغضنة. قارن جسدها بجسد أمه الأسمر المشدود. انحلت كعكة شعرها الأشقر وغطى شعرها رقبتها، ففكر سيلاس بشعر هيبي البني.

– ''سأذهب لأرتاح قبل العشاء. هل ستخرج لتتمشى؟''.

– ''نعم''.

خلع سيلاس حذاءه وانطلق يصعد التل حافياً، وهو يأمل أن تقوده قدماه إلى الطريق الذي سار فيه في اليوم الأول. ربما يمكنه أن يرى حيوانات الفقمة مرة ثانية، وأن يجد الشاطئ الصغير.

تابع سيره حتى صار بإمكانه أن يرى جزيرة بريهر عبر المياه. كانت الرياح قد هدأت والمد انحسر. كان الماء بين الجزر هادئاً بلون البيوتر[31] في ضوء المساء. راقب سيلاس الغروب وهو يبدأ عرضه المثير، إذ أعطى تسرب الضوء الأصفر تحت غيوم العاصفة انطباعاً كأنه سائل سكري دافئ ينتشر فوق البحر بين الجزر، قبل أن تبدأ الألوان بالتبدل من الذهبي إلى الزهري. كان نبات الخلنج تحت قدميه معزولاً مع شبكة عنكبوت، وبضع قطرات من الماء تعكس اللون الأرجواني المحمر للخلنج يتخلله لون أزرق متقطع. لم يكن هناك صوت سوى أنين الريح، وطيور النورس ترفرف على الصخور. شعر سيلاس بالراحة بعيداً عن أصوات مضيفيه. بدأ ارتفاع معنوياته بفعل الويسكي الذي وضعه جوليان له في الشاي. كان يوماً رهيباً. كره الإبحار، واشمأزّ من عائلة ريفز. كان إيان وأليستر رهيبين أيضاً، لكنه وعد نفسه أن يشتري بطاقة بريدية ويرسلها إلى هيبي، ''أقضي وقتاً رائعاً، أتمنى لو أنك هنا''. كان هناك في الأسفل شخصان يسيران ويتحدثان بأصوات هادئة. عرف أنهما كانا الزوج الذي رآه على المركب في اليوم الأول. شعر سيلاس بالحسد لسعادتهما: أصوات هادئة، خطوات لطيفة. كانا مختلفين جداً عن عائلة ريفز العدائية ذات الأصوات الحادة. راقبهما وهما يغيبان عن نظره، وعاد يتابع الغروب. افتقد الشاطئ الذي رأى فيه حيوانات الفقمة حيث سبح ورأى بعدها أفعواناً، لكن هنا كان الغروب رائعاً. راقب الغيوم تلتف بعيداً والسماء تتوهج. سيكون الغد جيداً. كانت قدماه باردتين. نهض. هل تأخر عن موعد العشاء؟

31 البيوتر: شائبة معدنية من القصدير والرصاص لونها رمادي يميل إلى الزرقة.

ركض سيلاس، وحين وصل كان يلهث بأنفاس متقطعة، ''آسف أنني تأخرت''.

– ''لا مشكلة، بدأنا من دونك''.

''هل تريد كأساً من الخمر''، سكب جوليان لسيلاس كأساً من النبيذ ودفعه نحوه. زمت جنيفر شفتيها وقدمت إلى سيلاس صحناً من اليخنة. نظر مايكل إلى أمه بقلق، فيما ابتسم إيان وأليستر بتصنع، كانت اليخنة هي نفسها من اليوم السابق.

''هذا الطعام ممل لعين''، قال جوليان بعدائية وهو يلتهم اليخنة منحنياً فوق الصحن، وأكتافه الضخمة بارزة في سترته المفتوحة المبطنة بالأخضر.

''إنها يخنة جيدة جداً''، خاطر سيلاس بقول ذلك.

رفع جوليان رأسه وحدق في سيلاس. اجترع سيلاس بعض النبيذ بخجل ونظر إلى الصحن أمامه.

"لم أقل إنها سيئة. قلت إنها مملة"، قال جوليان.

"نعم"، ابتلع سيلاس مزيداً من النبيذ.

– "مملة. تأتي من اللغة اليونانية. تعني الافتقاد إلى التنوع، الشيء نفسه، رتابة. ألا تتعلمون اليونانية في مدرستكم؟".

"لا"، شعر سيلاس بالارتباك.

– "لا يعلمون اليونانية؟ أي نوع من المدارس هي، إذاً؟".

"نحن لا نتعلم اليونانية"، قال مايكل.

"ولا اللاتينية كذلك"، انضم إيان إلى الحديث.

"أنت تعرف أنهم لا يدرسون اللاتينية"، قالت جنيفر، "إنهم يتعلمون لغات حديثة".

تجاهل جوليان زوجته.

"اخترنا الألمانية"، قال أليستر.

"ماذا يفعل ذلك مع اليخنة؟ لماذا لا يمكنك أن تطلبي من السيدة شيء أن تعطينا قليلاً من التنوع؟"، نظر جوليان إلى جنيفر.

– "سأفعل. هذا لا يشكل فرقاً".

تناولت جنيفر الخبز. أشاح جوليان بنظره عن زوجته ونظر حول المائدة إلى الفتية الذين يتأملون أطباقهم. قرر سيلاس ألا يطلب المزيد فتناول خبزه وشرب نبيذاً أكثر.

"هل تأكل اليخنة في المنزل؟"، كان جوليان ينظر إلى سيلاس وهو يمضغ وفمه مفتوح.

– "أحياناً".

"ليست جيدة مثل يخنة السيدة شيء، لا أتوقع. السيدة شيء فنانة يخنة. تناول المزيد، أعد ملء صحنك، أنت تحتاجها بعد هذا اليوم"، انفجر جوليان بالضحك.

"لا، شكراً لك، سيدي"، لفظ سيلاس كلمة "سيد" كأنه كان في المدرسة، فقد كان المناخ يذكر جداً بجو المدرسة.

"الفتى يدعوني سيد الآن. تناول المزيد من اليخنة، أقول، أعطي الفتى المزيد من اليخنة، جنيفر، أعطينا كلنا المزيد"، مد جوليان طبقه، وضعت جنيفر اليخنة فيه، "لا تتوقع أن تحصل على يخنة كهذه في المنزل. تناول أقصى ما يمكنك منها. يخنة السيدة شيء الرائعة، هاه!".

"والدة سيلاس طاهية"، قال مايكل.

كان هناك مدة صمت: سيلاس يرتشف النبيذ، جوليان يمضغ طعامه، وإيان وأليستر قدما صحنيهما طلباً لمزيد من اليخنة متبادلين نظرات ذات مغزى. قالت جنيفر ريفز، وهي تصب اليخنة في الأطباق الممدودة إليها، ''أحد أعمامي تزوج طاهيته''.

''لطخ شرفه، أليس كذلك؟ ألم تكن حاملاً، بكل الأحوال، أظن أنه وقّر الأجور. فكرة جيدة تماماً، عندما تفكرين فيها. الزواج بطاهية، فكرة جيدة، فكرة جيدة''، تناول جوليان الطعام.

''أليس عليك أن تستخدم الملعقة؟''، صاحت جنيفر.

''نعم، عليّ. الشوكة والسكين جيدان، لكن ليخنة السيدة شيء الملعقة هي الشيء''، كانت عدائية جوليان ملموسة تماماً.

''أنت ثمل''، تحدثت جنيفر من خلال أسنان مطبقة.

– ''ليس كثيراً. يخنة السيدة شيء سوف تمتص الكحول الزائدة. إذاً، أم سيلاس طاهية، هل هي كذلك حقاً؟ حسناً، أنا أبداً. كيف، آه، كيف حدث هذا؟ أقصد في هذه الأيام من النادر جداً أن تجد طاهية. هذا نوع مهدد بالانقراض، كان ذكاءً من والدك أن يجدها''.

نظر جوليان إلى سيلاس. أنهى سيلاس كأسه ومد نفسه ليصل بنفسه إلى الزجاجة ويصب المزيد.

''دعني''، أخذ جوليان الزجاجة وسكب النبيذ في كأس سيلاس. تنهد جوليان. جلس مايكل وأليستر وإيان متيقظين.

– ''إذاً هذه، النوع المهدد بالانقراض تزوجت بوالدك. ماذا يعمل والدك؟''.

– ''جوليان''.

– ''كل ما أسأله هو ماذا يعمل والده. لا حاجة أن تقولي جوليان بتلك النبرة من الصوت''.

– ''أم سيلاس جميلة جداً''، أعطى صوت مايكل أولى علامات البلوغ.

''جميلة، هل هي كذلك؟ هاه، نوع مهدد بالانقراض جميل، لا بد أنها كانت شيئاً ما قبل أن تصبح طاهية''. انقض جوليان على فريسته بالعناد الذي يسببه الإكثار من الشرب.

''أمي هيرمافروديت''، قال سيلاس بفخر، ''وأنت مقرف''. رمى نبيذه في وجه جوليان. نهض. رمى منديله وغادر الشاليه.

انتبه مونغو عندما نظر إلى الساعة في لوحة المؤشرات في السيارة أن الوقت تأخر جداً. تأخر جداً لإيجاد سرير لقضاء الليلة. كان قد أمضى وقتاً طويلاً يقود بعشوائية وهو يشعر بالغضب والإحباط منذ غادر منزل لويزا. تحطمت أحلامي، فكر باستياء، في أي جحيم أنا؟ كان يعبر بسرعة في طرقات لا يعرفها. انخفض مؤشر الوقود في السيارة على نحو خطير. "هذا كل ما أحتاجه"، تمتم وهو يخفف سرعة السيارة. كانت اللوحة على طرف الطريق تقول: "ساليسبري ٥ أميال". لا بد أن يكون هناك مرآب ليلي. وصل مؤشر الوقود إلى الخط الأحمر وبدا أن عمراً قد مر قبل أن يجد نفسه في ضواحي المدينة يعبر محطات الوقود المغلقة واحدة بعد الأخرى. سيصل قريباً إلى نظام الطريق ذي الاتجاه الواحد الذي صممه مستشارون أذكياء بهدف خداع السياح. انطفأ محرك السيارة قريباً من مركز المدينة، فسحبها مونغو إلى جانب الرصيف، كان متعباً، ضجراً، وبعيداً عن المنزل. خرج من السيارة. أقفلها وبدأ السير. عند إحدى الزوايا رأى نافذة ناتئة في منزل جورجي[32] صغير، بابه الأمامي أبيض وفوقه ضوء، وفوق النافذة كان هناك كلمات: روري غرانت، صانع قبعات... "فقط لو كان لدي قطعة من الطوب لأرمي به هذه النافذة اللعينة"، استخدم مونغو الأداة المعدنية لقرع الباب... دق، دق، دق.

32 الطراز الجورجي شيء يعود إلى حكم الملوك جورج الأول والثاني والثالث في بريطانيا تحديداً بين ١٧١٤–١٨١١.

"انتظر، أنا قادم... ما هي...". فتح روري الباب، "أوه! هذا أنت". تراجع روري إلى الخلف.

أجبر مونغو نفسه على تحمل روري: "نفد مني الوقود".

"ادخل، إذاً". نظر روري إلى مونغو بقلق، "ربما عندي...".

– "هل لديك أي شيء يشرب؟ أنا متعب للغاية".

"... زجاجة في المرآب. نعم، بالطبع، قهوة؟ ويسكي؟ ادخل إلى الـ..."، لكن مونغو كان قد صار في المطبخ واسترخى إلى المائدة.

"تستيقظ بسرعة"، قال مونغو بفظاظة.

– "لم أكن قد نمت بعد، كنت جداً...".

– "منزعجاً، أنا أيضاً، كنت أقود في حلقات".

''هناك بعض...''، أحضر روري زجاجة ويسكي. سكب نصف كأس ودفعها عبر المائدة باتجاه مونغو، ثم صب لنفسه. تناول مونغو الشراب وهو ينظر إلى روري الذي بدا نوعاً ما على وشك أن يثمل.

''أنت ثمل؟''، سأل.

– ''ليس بعد؟ هل ترغب في بعض الحساء؟''.

''أوه، يا إلهي''، قال مونغو، ''حساء!''.

''تبدو جائعاً''، شغل روري نفسه بوضع الخبز والزبدة، وتسخين الحساء.

''لم آتِ للبقاء''، وضع مونغو كأسه بقوة بطريقة عدوانية فوق المنضدة.

''بالطبع لا''، دفع روري طبق الحساء باتجاه مونغو، أعطاه ملعقة، ''يمكن أن نكره بعضنا بعضاً ونحن نأكل''.

تناول مونغو حساءه، دهن خبزته بالزبدة، ''هل لديك جبن؟''.

''نعم، أنا، نعم، عندي''، نهض روري مترنحاً واتجه إلى الخزانة. أحضر إناء من جبن ستيلتون. حفر مونغو الجبن بسكّينه بحركات عنيفة، شعر روري بالقرف من تناول مونغو الجبن مع الحساء.

''إنها عاهرة لعينة، كنت ذاهباً لأتزوجها، سأتزوجها. هذا يأتي من متاجر فورتنوم؟''، سأل مشيراً إلى الجبن.

''كذلك أنا''، قال روري وهو يدفع طبق حسائه بحركة مفاجئة، ''نعم، من هناك''.

''أنا كنت الأول''، هدر مونغو.

''أنت متزوج بأليسون''، نظر روري إلى مونغو بحكمة، ''بينما أنت... امم... لنبدأ من جديد... بينما أنت تتحرر من أليسون الرهيبة، سأتزوج هيبي، أنا الأول''.

''لا تقل عن زوجتي رهيبة''، زأر مونغو.

''ها قد وصلنا''، قهقه روري ضاحكاً، ''أليسون رهيبة و...'' نظر إلى مونغو باستخفاف، ''ولديك ولدان صغيران رهيبان''.

''صحيح''، تناول مونغو الحساء بالملعقة، كان لذيذاً، منعشاً، على الأرجح هو أيضاً كان من فورتنوم. يمكن للعازبين أن يدفعوا ثمن هذه الرفاهيات.

''عليك أن تفكر فيهم''، نهض روري بفعل الويسكي.

''لا أستطيع تحمل الأمر. لا تنجب أبداً''، نصح مونغو روري، ''إنهم مسؤولية من الصعب تحملها كما أنها تسبب المشكلات''، حدق مونغو في روري، ''ماذا ترى فيك؟ وأنت بهذا الشكل

المضحك؟''.

''جيد في السرير''، أجاب روري بغرور، ''وهي، أوه مونغو، هي جداً جداً جداً...''، بدأ كلاهما بالحديث.

''رائعة جداً''، قال مونغو وهو يتحرك أيضاً، ''ناعمة جداً، دافئة جداً، ليست مترهلة أبداً، طرية جداً، الوزن الصحيح تماماً، أستطيع أكلها''.

''تتحدث كأنها شريحة لحم''، قال روري ساخطاً على وشك البكاء.

''سأفعل ما أريد، إنها عشيقتي''، حاول مونغو أن يشعل غضبه.

– ''نحن مجرد عضوان في رابطتها''.

''في ماذا؟''، نظر إلى روري بغضب.

– ''رابطة، هذا ما تسميه''.

''أوه! أيها المسيح المقدس، أوه! البقرة، إنها بقرة حقيقية''، صاح مونغو.

اتكأ روري إلى المنضدة وصفع ابن عمه، ''أردت أن أفعل ذلك منذ سنوات، منذ...''.

''متى؟''، نظر مونغو باهتمام.

– ''منذ قلت إنني أبدو مثل الأرنب الأبيض''.

''فقط تعبيرك. لا أظن أن أنفي سينزف، هل سينزف؟''، تلمس أنفه بأصابعه.

– ''أخشى أنه لن يفعل. هل تريد مزيداً من الويسكي؟''.

''لم لا، من الأفضل أن ننهي الزجاجة وإلا ستشعر بالوحدة''، دفع مونغو كأسه نحو الزجاجة. صب روري وهو يفتح عينيه على آخرهما. شعر مونغو بإحساس غير محتمل من الصداقة.

''ماذا سنفعل؟''، قال روري الذي شعر بنوع من التحالف.

''لو كنت تعرف تلك الفتاة جيداً كما أعرفها كنت ستقول إنها هي من سيفعل''، قال مونغو بكآبة، ''هل هناك مزيد من الحساء؟ إنه لذيذ، ما هو؟''.

''طيهوج، هي أعدّته. وجدنا طيهوجاً في المتجر. أعطتني العمة لويزا القليل منه في حافظة طعام''، صب روري بقية الحساء في طبق مونغو.

''علينا ألا نحتسي الويسكي مع هذا، هل لديك نبيذ؟''، سأل مونغو بعدائية.

''يا إلهي''، نهض روري واختفى في الممر. سمع مونغو وقع خطواته المترنحة على الدرج وتمتمة غير مفهومة في القبو. عاد يحمل زجاجة، ''كنت أخبئها من أجل... أحتفظ بها من أجل..''.

''هيبي''، أخذ مونغو الزجاجة. فتش في الدرج ووجد لولب الفلين، ففتح الزجاجة. ''أرغب في خنقها''، وضع الزجاجة على المائدة بينهما.

شعر روري بالرعب، ''ما الذي فعلته لتستحق هذا؟''.

– ''خدعت''.

– ''لا، لا، إنها تماماً...''.

''أمينة''، صاح مونغو، ''لماذا لا تنهي جملك اللعينة؟''. اختطف الزجاجة وصب النبيذ في كأسه الفارغ الذي كان فيه ويسكي.

''ذاك ما تقوله هيبي. أوه! هيبي، يا للجحيم''، صب روري النبيذ في كأسه، ''لم آخذ وقتاً لـ...''.

''التنفس''، كان مونغو كئيباً، يجلس مهموماً، ويشعر أنهما يتقاسمان شيئاً يشبه الصداقة.

''منذ متى؟''، سأل روري.

''ست سنوات''، قال مونغو، ''ست سنوات، ستة أسابيع في العام، ليست سنوات. ثلاث مرات كل مرة أسبوعان، دوماً في الوقت الذي يناسبها. لدي شقة للعمل في لندن هي تأتي إليها. أصحبها إلى المسرح وإلى السينما لحضور الأفلام الثقافية اللعينة، وإلى المعارض. أدعها تتسوق ما تريد. ترسلني إلى مكتبي أو إلى النادي عندما تمل... نلعب النرد''.

– ''أنت تجعلها تبدو امرأة متسلطة''.

– ''هي عاهرة بلا قواد، منفردة، حاولت أن أؤمن لها الراحة وأشتري لها شقة، لكن لا، لم ترض بذلك، لعينة مستقلة جداً. لستّ سنوات كنت أحاول أن أعرف أين تعيش. هل تعلم أنك إذا أردت أن تتصل بها عليك أن تكتب إلى متجر صغير في لندن في منطقة إيرل وهو يعيد توجيه الرسائل إليها''.

– ''وهم ألا...''.

''يصمتون، إنهم عائلة باكستانية، هم فقط يضحكون''.

– ''أنت أين... اممم... أين...''.

– ''التقيتها؟ في مطبخ أمي. هي تذهب وتطبخ لها عندما تكون مدبرة المنزل في عطلة. الأمر من ترتيب أليسون. هل يمكنك أن تتوقع ذلك؟''.

– ''أمك، العمة لوسي، الصديقة المفضلة للعم.ة..''.

– ''لويزا، نعم''.

– ''هل أمك، هل العمة...''.

''ولا أحد منهم يعلم''، كان مونغو فخوراً على نحو فاسق، ''أين تعيش''.

– ''لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً''.

''اللعنة إنه صحيح''، قال مونغو مضيفاً، ''أتمنى''.

جلس أبناء العمومة يشربان النبيذ البارد، وقد وضعا صحونهما جانباً. حفر مونغو بسكينه في إناء الجبنة فكان يتناول كسرات الخبز، ثم يتناول الجبن بالسكين وينقله برصانة إلى فمه. كان روري كئيباً جداً، إذ لا يمكنه الاعتراض لكنه قرر أن يضع بقايا الجبن للعصافير، فهو لم يكن مولعاً بلعاب مونغو.

''ما الترتيب الذي جهزّت له؟''، سأل مونغو بنبرة مهددة.

''سآخذها إلى مزرعة العمة كاليبسو في الغابة عندما يزهر الكرز''، لم يكن روري متحضراً للاعتراف بأنه لم يعدّ ترتيباً بعد.

– ''بالطبع ستكون سعيدة جداً... امم... سعيدة...''.

''سعيدة؟''، كان السكين المحمل بالجبن في منتصف الطريق إلى فمه، كرر مونغو، ''سعيدة؟''.

''سعيدة هنا''، تحدث روري بشجاعة، راقب ابن عمه وهو مستعد للقفز بعيداً لتفادي هجوم محتمل.

''إنها غالية''، وضع مونغو الجبن في فمه، ''إنها مكلفة''.

– ''أستطيع أن أدفع لها... أنا؟..''.

''عازب غني''، كان مونغو يتحدث باحتقار وبحسد، ''توقعت أنك لوطي''.

''لا بد أنها بالوعة لمواردك. ماذا بشأن أليسون والأولاد؟''، قال روري بخبث، ''تماماً...''.

– ''أنا أتحملهم بفضل هذه النفقات''.

– ''يا لها من فكرة جيدة، أستطيع القول إنها...''.

''ماذا؟''، تيقظ مونغو للتو.

– ''عارضة لقبعاتي''.

بدأ الرجلان بالضحك. أعاد روري ملء كأسيهما.

''هل تعرف من هم الأعضاء الآخرون في الرابطة؟''، قال مونغو بعناية.

رد روري: ''لا، لا أستطيع التحمل''.

''ولا أنا، لا أستطيع تحمل التفكير في الأمر''، رمى مونغو سكينه على المائدة دون انتباه، ''ماذا تقول حول فكرة أن نحتفظ بها في العائلة؟ نتقاسمها''، كان روري مذهولاً.

"نعم. دعنا نذهب ونضع الأمر بين يديها. أنت نصف، وأنا نصف، هذا عادل، إيه؟"، شعر بالود فجأة تجاه ابن عمه الشاب مع عينيه الشبيهتين بعيني الأرنب، "وعندما يكبر الصبيان يمكنهما أن ينضما إلى الرابطة، نسجل أسماءهما الآن كما نفعل مع كلية إيتون. هذا ما سنفعله".

"مقزز!"، صاح روري.

"هل تظن هذا؟"، كان مونغو ما زال لطيفاً، "ظننت الرابطة العائلية... امم... مثل عائلة روتشيلد أو شيء ما، شركاء صغار، ماركس وسبنسر".

"بالتأكيد لا"، قال روري، مصدوماً.

– "حسناً إذاً، فقط أنت وأنا".

"أنا سأتزوجها"، قال روري بعناية.

– "ليس ذلك مؤكداً. اسمع، إذا كان هناك شيء واحد أعرفه عن هيبي هو أنها لن تتزوجنا".

– "ليس أنت، ربما".

– "ولا أنت".

– "إذاً، لماذا قلت...".

"ما يريده المرء وما يحصل عليه أشياء مختلفة تماماً"، قال مونغو متفلسفاً.

"آه"، التقط روري الزجاجة، "فارغة".

"أخبرك ماذا"، نهض وبدأ الترنح حول المطبخ، "أخبرك ماذا، من الأفضل أن نعود إلى المجابهة، في منزل العمة لويزا؟ لأي سبب؟".

"لنتصافى"، قال مونغو، "ما الساعة؟".

– "الخامسة".

"من الأفضل أن نحْلق أولاً"، بدأ مونغو بصعود الدرج، "هل لديك حمام؟"، استولى على الدرج، "هذه غرفة نومك؟"، كان قد وصل الطابق العلوي مترنحاً فوق الدرج.

– "نعم... امم...".

– "سريرك؟ أين أنت وهيبي؟".

"نعم، نحن..."، تبع روري مونغو.

–"ما رأيك أن نأخذ غفوة، أولاً؟ أمسك مونغو ذراع روري وسقطا فوق السرير".

"أقول..."، شعر روري أنه لا يعرف ماذا يريد أن يقول؛ كان عقله مشوشاً.

''فقط غفوة، ثم حمام، حلاقة، نذهب معاً لتثبيت الرابطة، نحتفظ بهيبي. ألا تستطيع البقاء مستلقياً''، خلع مونغو حذاءه.

''لا أحب أن أكون في السرير معك''، تشمم روري رائحة السرير متمنياً أن يحصل على أي ذكرى ضعيفة من رائحة هيبي على الوسادة، لكن عندما تذكر أنه بدّل الشراشف، شعر بأنه بائس، كان أمراً رهيباً أن يكون لديه تلك الكتلة الهائلة لابن عمه على سريره.

كان مستحيلاً أيضاً أن ينهض من السرير، أو أن يقف. استسلم روري للتعب وللكحول ولمونغو المزعج.

بينما بدأ مونغو يشخر، غرق روري في أحلامه. رأى نفسه يتجول مع هيبي في الغابة... أشجار الكرز مزهرة، عند أقدامهما أزهار الجريس، أزهار المنثور البرية المبكرة، الطيور تغني أغاني الربيع، الشمس تميل لتتسرب أشعتها من بين أوراق البلوط الرقيقة، الزان والدردار... في عمق الغابة، كان هناك طائر وقواق، أوه يا إلهي! الوقواق! استدار مبتعداً عن مونغو، مبتعداً عن الضوء الذي بدأ ينتشر الآن في العالم الخارجي. كيف يمكنه أن يهزم مونغو، ما الأدلة التي يمكنه أن يستخدمها؟ بدا أن أليسون وإيان وأليستر ليس لهم وزن، هل كان يمكن للعبارة التي يستخدمها أبواه لردعه: ''ماذا قد تقول العائلة؟''، هل يمكن أن يكون لها الأثر المرجو؟

تدرب سيلاس وهو في الطريق من مهبط المروحيات على ما سيقوله لأمه. حمل سترة هيبي بيديه، وارتدى قبعة سترته الرياضية مخبئاً وجهه من السيارات التي تعبر الطريق والتي من الممكن أن يتعرف ركابها إليه، فيتوقفون ليعرضوا عليه أن يقلوه إلى المنزل، ويسألونه بفضول حنون هل كان قد استمتع بالإبحار.

كان الحد الذي وصل إليه المد العالي على الشاطئ واضحاً من خلال الأعشاب التي سحبها من قاع البحر بفعل العاصفة؟ وعلى طول هذا الخط، كان الأطفال يركضون ويصيحون لبعضهم بعضاً بينما يجمعون الأخشاب الطافية لإحراقها، مشعلين ناراً تحترق في هواء الشاطئ بهلب أزرق ناتج عن بقع النفط المتجمعة عليها، ويضيفون إلى بقايا النار نفايات العلب البلاستيكية المرمية التي تنفجر بفعل الحرارة، مضيفين نوعاً من المغامرة الخطيرة إلى متعهم. سوف يتذمر الناس من الدخان الذي سيسحبه الهواء نحو البر ليلوث ستائر المنازل. راقب سيلاس المشهد. لقد جمع الأخشاب الطافية عدة مرات، وأخذ منها ملء ذراعيه إلى المنزل ليحرقها في موقد غرفة الجلوس. شعر برغبة حادة في أن ينضم إلى الفتية والفتيات، ثم رأى جيلز بينهم، لم يكن يرغب غب رؤية جيلز على الإطلاق.

عاد يفكر في هيبي. كرر سيلاس في نفسه: ''كان الأمر رائعاً. لقد طلبوا مني أن آتي مرة ثانية. عدت باكراً لأن والد السيدة ريفز مريض، جميعهم عائدون، لقد أرسلوا إليك كل أنواع الرسائل، كان الطعام جيداً جداً، الملابس كانت مناسبة تماماً، أخشى أنني سكبت شيئاً على سترتك. أبحرنا حول صخرة بيشوب، لا، ليست خطيرة على الإطلاق، كانت مثيرة... أحببت الصبيين الآخرين، عائلة رائعة، كان الأمر رائعاً''. صيحة ديك كاذبة، قال لنفسه، صيحة ديك كاذبة كان تعبيراً ابتكره أليستر، سوف تعلم عندما تشم رائحتها أنه تقيأ على سترتها. ماذا عليّ أن أقول؟ سأل نفسه للمرة المئة. ربما ستسلم بالأمر، وتعتبر الزيارة جيدة كما كانت تصدق ما أقوله لها عن المدرسة. الشيء الوحيد الذي عاد به من جزر سيلي كان هو استخدام كلمة ''صيحة الديك'' ورؤية الفقمة والأفعوان ولون البحر. هل عليه أن يتخلص من سترة هيبي، يرميها في البحر؟ لن تشم رائحة القيء عندئذ. لن يكون هذا جيداً. تذكر أنها دفعت الكثير ثمناً لتلك السترة وبررت ذلك لنفسها بالقول: ''ستكون قادراً على ارتدائها، ستصبح مفيدة لك عندما تكبر قليلاً''. يا إلهي! كم يكره هذا الوضع، وماذا كان سيقول عن حقيبته القماشية، كيف سيفسر ضياعها؟ شجع سيلاس نفسه بأنها ستكون سعيدة جداً لرؤيته

وستنسى أن تسأله أسئلة. هي أبداً لم تسأله الكثير من الأسئلة. كان ذلك أحد الأشياء الرائعة فيها. بدأ سيلاس الركض وانعطف عند الزاوية ليبدأ صعود الشارع الآجري الكئيب. زاد سرعته وارتفعت معنوياته؛ قريباً سيكون مع هيبي، ستبدو كما كان يراها على رصيف محطة القطار عندما يصل عائداً من المدرسة: عيون كبيرة تحمل تعبيراً من الحماسة نوعاً ما، ستعانقه، سيلف ذراعيه حولها، ويضع رأسه على صدرها، سيضحكان بارتياح لأنهما أصبحا معاً، سيكون بخير، قال سيلاس لنفسه. كان تقريباً قد وصل، ركض، وصل إلى درج الباب في اندفاع من الفرح.

كان الباب مقفلاً، صعق سيلاس، وتريب تحدق من النافذة تفتح فمها دون صوت، وتظهر أسنانها المدببة ولسانها الوردي. ركض سيلاس إلى الفناء الخلفي، لكن الباب الخلفي كان مقفلاً أيضاً، هزّ المقبض. أتت تريب من خلال الفتحة أسفل الباب، وأخذت تموء بين ساقيه، وتدفعه بجسدها كله مع ذيلها كأنها تعانقه. حملها سيلاس بين ذراعيه وقربها إلى وجهه. تذكر أنه كان من المفروض أن يبقى ثلاثة أسابيع في الجزر، وأن هيبي قالت إنها ستذهب للعمل في ويلتشاير لأسبوعين خلال غيابه. جلس سيلاس على عتبة الباب المبللة. ظن سيلاس عندما أخبرته عن العمل الذي ستذهب إليه أنها كانت ذاهبة فقط لأنه يحرمها مقداراً من عطلته. امتنع عن المعرفة. أراد أن يذهب إلى جزر سيلي. لم يهتم. كان يعلم تماماً أن كل ما تفعله هو ملء الوقت في غيابه. شعر سيلاس وهو يحمل الهرة بين ذراعيه بالذنب إلى جانب إحساسه بالعار والإهانة التي كان يعاني منها كثيراً. دمعت عيناه، وسال أنفه، ما جعل الهرة تنفر منه وتقفز لتدخل المنزل من الفتحة أسفل الباب. وضع سيلاس رأسه بين ركبتيه وبكى.

''هل يمكنني مساعدتك؟''، رأى سيلاس قدمين، ساقين في سروال من الجينز، سترة صوفية وفوقها سترة داكنة. في الأعلى، كان هناك وجه لم يره من قبل. كان يشعر بالبرد، وجسده متيبس وهو يجلس القرفصاء عند العتبة. تساقطت حبات المطر من حافة قبعة الرجل القديمة. ''من أنت؟''، سأل سيلاس وهو يشعر بالخجل من صوته الباكي.

''اسمي جيم هوكستابل''، قال الغريب، ''أردت أن أرى الفتاة التي تسكن هنا''.

''ليست هنا''، بدأ سيلاس بالبكاء مجدداً، كان يشعر بالبرد، وبالتعب، وبالجوع، وبالبلل... تمنى أن يذهب الرجل بعيداً، أراد أن يموت، ولأنه فشل في ذلك؛ أراد أمه.

– ''وأنت علقت خارجاً؟''.

– ''إنها بعيدة''.

– ''من لديه المفتاح؟''.

– ''تيري أو حنة أو إيمي، لكن أنا...''.

– ''لا تريد أن تسألهم''.

– ''لا أستطيع''.

– ''من يطعم الهرة؟''

– ''تيري أو حنة''.

''متى ستعود أمك؟''، يا له من طفل قذر.

''ليس قبل أيام وأيام''، ارتفع صوت سيلاس في العويل.

فكر جيم بعناية في الوضع، إذا كان الطفل يعرف الأشخاص الذين لديهم المفتاح يصبح من شأنهم أن يساعدوه، الفعل المنطقي هو أن يأخذه إلى أحدهم ويدعهم يتابعون الأمر.

''هل تعرف شخصاً يدعى برناد كويجلي؟''، سأل بأسلوب مبهم وهو يفكر أن برنارد يمكن أن يساعد لو كان هنا.

– ''نعم''.

لمس شيئاً ما في عيني الفتى: الطريقة التي التمعت بها عيناه.

''أمي تعرفه وأنا أيضاً، لكن هذه صداقة منفصلة، إنه لطيف أن...''، كيف يعبر، كيف يفسر أنه كان يجد من اللطيف أن يرى كويجلي العجوز بنفسه دون أن تكون هيبي هنا.

فكر جيم، حقاً، هؤلاء الأطفال الذين يبقون خارج المنازل، الأهل المستهترون، ''أنا أقيم مع برنارد كويجلي''، قال وهو يراقب وجه الصبي، ''كنت أشتري له بعض الأغراض، هل تحب أن تأتي معي لرؤيته؟ ربما يمكنك أن تروي له مشكلتك''.

''نعم، من فضلك''، ثم أضاف، ''ليس هناك شيء لأرويه له''.

''هيا، إذاً''. سار جيم أمام سيلاس إلى سيارته، وهو يتساءل لماذا كان غاضباً، لماذا كان يتصرف بهذه الطريقة المجنونة، ليس الصبي من شأنه، لكن وبينما قاد السيارة خارجاً من البلدة، وسيلاس قربه، فكر جيم، سيساعدني هذا الأمر في لقاء المرأة، فمن معرفة ابنها سيكون بإمكاني أن أكلمها لاحقاً لأسألها هل كان بخير، ولأراها. وبرؤيتها، كان سيتخلص من الفكرة التي تراوده منذ رآها في المرة الأولى، فهي مجرد واحدة أخرى من النساء اللاتي لسن هي، إذ من الواضح أن هذه عاهرة من الطراز الأول.

لم يتحدثا طوال الطريق، إذ فكر جيم أنه ليس من الضروري إجراء محادثة صغيرة كهذه. كان سيلاس غارقاً تماماً في حزن متوتر. عندما وصلا إلى كشك الهاتف العمومي، طلب جيم من سيلاس

أن يفتح بوابة في سور الحقل، ''يسمح لي المزارع أن أركن سيارتي هنا''. أقفل السيارة، وسارا عبر الحقول خلف بعضهما بعضاً: جيم في المقدمة وهو يحمل أغراض التسوق، يتبعه سيلاس وهو يفكر، إذا ركضت، هناك نصف ميل فقط إلى الجرف، أستطيع أن أقفز، لن يكون هناك حاجة إلى التفسيرات. فكر ملياً في هذه الرؤية الدرامية، لكن فطرته أخبرته أن الرجل الذي يسير أمامه سيركض بسرعة أكبر منه، ويمسكه وسيبدو غبياً بدرجة أكبر، حتى أحمق أكثر. تبع جيم عابساً عبر الحقل الرطب. لاقاهم فيذرز في منتصف الطريق إلى المنزل، واثباً في كل اتجاه، يهز ذيله، ينبح بفرح.

''دعوت صديقاً لك إلى الغداء''، حيّا جيم برنارد الذي كان يقف في الشرفة يراقبهما يسيران تحت المطر، ''وجد نفسه محبوساً خارج المنزل''.

''ادخل وجفف نفسك''، لم يعبر برنارد عن أي مفاجأة. وضع يده على كتف سيلاس، وقاده إلى غرفة الجلوس. كان متأثراً بمظهر سيلاس، أحد ما قد تسبب للفتى بالأذى.

''علينا أن نجد لك ملابس جافة''، قال، ''من الأفضل أن تبدّل ثيابك، لكن تناول شراباً في البدء. فقط ملعقة من البراندي. أنت تكره الخمر. لن تحب هذه كذلك لكنها ستدفئ أحشاءك''، صب برنارد مقداراً صغيراً من البراندي وأعطى الكأس لسيلاس، ''لا تسكبها على السجادة، اشربها''.

احمرّ وجه سيلاس خجلاً، وابتلع البراندي بإذعان. أبقى برنارد يده على كتفه. توقف سيلاس عن الإحساس أنه يجب أن يرمي نفسه من الجرف. انتظر برنارد حتى توقفت عضلات كتف سيلاس عن الارتجاف كأنها جرح ينبض. في المطبخ، كان جيم يرتب أغراض التسوق، ويتحدث إلى فيذرز الذي كان يئن وينبح خاصة أنه من النوع الصوتي الذي يتفاعل بالصوت.

قال برنارد: ''اصعد الآن إلى الأعلى، الباب الأول إلى اليسار، اخلع ثيابك المبللة. جيم''، نادى، ''جد لسيلاس ثياباً يلبسها ريث ما تجف ملابسه''.

أحضر جيم منشفة، ''هذه سوف تدفئك''، أعطى لسيلاس قميصاً قصير الكمّين، وسترة سميكة، ''البسهما، جوارب''، أعطاه جوارب، ''لا نستطيع أن نفعل شيئاً بخصوص السروال، جرب هذا، لفه حولك''، تناول غطاء السرير وأعطاه لسيلاس.

''شكراً''، خلع سيلاس ملابسه المبللة، وارتدى السترة التي وصلت إلى ركبتيه. كانت دافئة ورائحتها لذيذة. لف الغطاء حول خصره مثل سارنغ[33]، وارتدى الجوارب.

33 السارنغ قطعة قماش تلبس ملفوفة حول الخصر.

نادى برنارد عبر الدرج: ''من الأفضل أن تبقى هناك حتى تعود أمك''.

''هل أستطيع؟''، كان سيلاس مذهولاً.

''بالطبع، انزل واجلس قرب النار مع فيذرزعندما تكون جاهزاً''، أشار جيم من المطبخ إلى برنارد كي ينضم إليه.

''هناك شيء خطأ وسيئ يحدث''، همس جيم للرجل العجوز، ''أي نوع من الناس هم؟ لقد سمعت عن أطفال ظلوا محبوسين خارجاً وإلى ماذا يقود هذا''، علا صوته، ''ماذا يفعل والد الطفل؟ يجب أن يحاكم...''، كان يضطرم بالعدل والاستقامة.

– ''ليس هناك أب. أبقِ صوتك منخفضاً''.

''والأم عاهرة على ما أفترض''، قال جيم ساخراً.

– ''نعم، هي كذلك''.

''إذاً هي يجب أن تحاكم. إنها جريمة أن يترك الطفل وحيداً. وجدته يرتجف ويبكي محبوساً في الخارج، خائفاً أن يذهب إلى الجيران، أي نوع من العاهرات هي؟''، كان برنارد يصفر في محاولة لكبت ضحكته العالية، ''ما المضحك بحق الجحيم؟''.

– ''كان يفترض أن يكون سيلاس مع صديق له من المدرسة من عائلة ثرية في جزر سيلي. أمه تسلي نفسها في غيابه بالعمل طاهية لدى صديقتي لويزا''.

– ''السيدة فوكس، التي أرسلتني إليها؟ تلك؟''.

''نعم''، أخرج برنارد منديله، ''الطفل يملك أم رائعة تكدح لـ...''.

''عاهرة، تقصد''، قال جيم بخبث.

– ''إذا أردت، لتعلمه في مدرسة خاصة مكلفة لأثرياء. عندما لا، كما تقول، تمارس العهر، تعمل طاهية لدى السيدات العجائز. أؤكد لك أنه أياً كان ما حدث لسيلاس فقد حدث له في سيلي والمرجح أكثر أنه تحمله بنفسه. منذ متى أنت متزمت؟''.

انكمش جيم، ''هل سيخبرك ما حدث؟''.

– ''أشك في ذلك، وفق معرفتي بأمه التي تشبه المحارة، وسيلاس مثلها''.

– ''ماذا ستفعل؟''.

– ''أبقيه هنا، وأتصل بلويزا في الحال''.

''ها هو يأتي''، سمع جيم صوت سيلاس ينزل الدرج.

''لقد كان أمراً لا يغتفر لي أن أقول ما قلته لك''، رأى جيم برنارد مهموماً بسبب طيشه.

''أنا أيضاً أستطيع أن أكون محاراً''، قال وهو يسمع سيلاس يقترب.

عندما وصل سيلاس أسفل الدرج قفز عليه فيذرز شاعراً بالحدث. وضع قائمتيه على كتفي سيلاس وأرجعه للخلف في وضع جلوس لاعقاً وجهه. ضحك سيلاس فتبادل الرجل العجوز والشاب ابتسامة ارتياح.

قال برنارد وهو ينظر إلى قدمي سيلاس: ''ستقع وتكسر رقبتك بهذه الجوارب، انظر ماذا بإمكانك أن تفعل بهما، جيم، أجلس سيلاس''.

جلس سيلاس قرب النار وعلمه جيم كيف يثني الجوارب إلى الخلف حتى لا يتعثر بهما. وثب فيذرز حوله سعيداً لأن رائحة جيم كانت مختلطة برائحة سيلاس.

''الغداء''، قال برنارد، تبعوه إلى الغرفة التالية، ''اجلس هنا قربي''. جلس سيلاس قرب برنارد، كان جائعاً جداً، وضع جيم طبق الحساء أمامه. ''ابدأ الأكل''، قال برنارد، أذعن سيلاس، ''انتظر دقيقة''، قال له جيم، ''إنه خالٍ من النكهة، دعني أضف لك قطرة من الخمر''.

– ''أنا...''.

''إنه يحسّنه على نحو لا يوصف''، سكب جيم قليلاً من الخمر في طبق سيلاس، ''جربها''، رشف سيلاس.

– ''أعجبتك؟''.

''نعم، شكراً لك''. لم يكن سيلاس قد التقى صديق برنارد من قبل. كان يتخيله وحيداً للأبد. تناول حساءه وهو يشعر بالأمان وذقن فيذرز تضغط على ركبتيه. لوى أصابع قدميه في جوربي جيم. ثم تناول السمك المشوي مع الشمرة. قال برنارد: ''نتناول الطيهوج الذي وجده جيم الذكي في ساليسبري، هل تناولت الطيهوج من قبل؟''، سأل سيلاس.

– ''أبداً''.

– ''كنت سأشتري المزيد، ولكن لم يكن هناك سوى زوج واحد فقط، هناك امرأة جشعة اشترت تقريباً كل الكمية، كانت تملأ مجمدتها، هذا ما قاله البائع، سأعد الحساء من بقاياه''.

''تتفاخر بنفسك كطاهٍ''، قال برنارد مازحاً، ''والدة سيلاس طاهية مثالية، لا يمكنك أن تفاجئه''.

شعر سيلاس بالفخر. كان هناك انخفاض في درجة الحرارة. التقت عينا جيم بعيني برنارد. استغل برنارد كبر سنه ليسأل: ''هل كنت تفكر أن تقتل نفسك عندما وجدك جيم؟'' لم ينتظر ليرد سيلاس، استدار إلى جيم، ''متى كانت آخر مرة تمنيت فيها أن تقتل نفسك، جيم؟ لا أستطيع أن أتذكر متى

كانت آخر مرة اندفعت فيها، إنه شيء ما يخفت مع العمر. لا بد أنه مضى ثلاثون عاماً منذ فكرت في الأمر بجدية. هيا الآن''، كان ينظر مباشرة إلى جيم، ''أخبرنا''.

شعر جيم بتوسل برنارد للحديث (هل كان يأمل أن يداوي جراح سيلاس؟)، فشارك برنارد في سعيه، ''في وقت ما، كنت قد تخيلت نفسي واقعاً في الحب''.

''أنت؟''، ضحك العجوز ساخراً، وقال ليحث جيم على المتابعة، ''في الحب؟''.

''في إيطاليا''، قال جيم، ''دعيت إلى حفلة، كان يوم عيد، تعرف هذا النوع من الأشياء: موكب، تماثيل قديسين محمولة تتهادى، كهنة، خدم المذابح يحملون المباخر، الناس يغنون ويهتفون، رائحة ثوم، نبيذ، بخور، أطفال يصيحون بفعل الحماسة وأمهاتهم يصفعونهم''.

''الإيطاليون لا يصفعون أطفالهم''، قال برنارد مقاطعاً، ''لكن تابع''.

– ''كنت أراقب الموكب، وكان الوقت ليلاً، هل أخبرتك؟ كان هناك فرقة نحاسية''.

''تابع''، قال برنارد وهو يراقب وجه سيلاس المهتم بالحديث.

– ''أضيئت البلدة المظلمة بالشموع، عُلقت الشموع في كل نوافذ البلدة، على حافات النوافذ، كانت البلدة هي لوكا، هل زرتها يوماً؟ كنت أراقب من شرفة، سار الموكب عبر شوارع ضيقة ما جعل المنازل تبدو عالية وهي ليست كذلك في الحقيقة، لكنها في ضوء كل هذه الشموع فعلاً بدت عالية...''.

– ''أين كانت الفتاة؟''.

– ''أي فتاة؟''.

– ''تلك التي وقعت في حبها''.

''كانت في الأسفل في الشارع مع مجموعة من الهبيين. كانت هناك أكشاك تبيع عقوداً من حبات البندق، ورأيت أنها كانت تريد واحداً، فنزلت راكضاً ولحقت بها... مشينا معاً، اشتريت لها عقداً ووضعته حول عنقها''.

– ''كيف كانت تبدو؟''.

– ''شعر بني طويل جداً، فستان طويل، كان يمكنني بصعوبة أن أرى وجهها، أنت تعلم كيف كان الأمر في ذاك الوقت، لم يكن يستطيع الشخص أن يرى وجوه الناس، كان هناك الكثير من الشعر. أنا كان لدي لحية''.

– ''أذكرك، مشهد حزين''.

''كان زمن الشعر الطويل واللحية''، قال جيم مبرراً، ''ريعان الشباب وقوته والكثير من الشعر لكلا الجنسين''.

– ''تابع''.

''قضينا المساء معاً، كانت جميلة''، كان سيلاس غارقاً في الحكاية، يسير مع جيم في لوكا مع موكب الشموع وبإمكانه أن يسمع الناس يغنون والفرقة الموسيقية تعزف، ''كان الأمر رائعاً''.

– ''كانت عيناها بنيتين، مشيتها رائعة، كنا سعيدين، ثم ذهبت على نحو جامح، كان من الصعب جداً اللحاق بها عندها، تحركت بسرعة كبيرة جداً''.

– ''وبعد ذلك؟''.

''بعد ذلك''، تحدث جيم بعصبية، ''ساءت الليلة، حدث قتال من نوع ما، أضعتها، كان الجميع يهرب ليخرج من المشكلة''.

– ''إذاً أنت لم تمارس الحب معها...''.

''لقد فعلت. قبل البلبلة، القتال، الهرب. اختفت. كان الأمر كأنها لم تكن موجودة أبداً. هل تستطيع أن تفهم؟ ربما''، قال جيم، ''كانت خيالاً''.

''نعم''، تنهد برنارد، ''ربما كانت كذلك''.

– ''عندما لم أتمكن من إيجادها، وددت أن أقتل نفسي''.

''آه''، تنهد برنارد، ''لم تعرفها قبل تلك الليلة؟''.

– ''لا، أخبرتك''.

– ''إذاً أنت تبحث عنها منذ ذلك الوقت''.

''أحياناً أظن أنني أراها''، قال جيم، ''ألمحها''.

''ولا تكون هي أبداً''، فرقع برنارد أصابعه، ''لم أكن أعتقد أنك قادر على مثل هذه الرحلات من الهوى، هل نشرب القهوة قرب النار؟''.

''كل شيء جيد للسخرية''، نهض جيم ليعد القهوة، ''بعضنا، بالتأكيد ليس أنت، رومنسيون''.

''كانت لدي لحظاتي''، كان برنارد وقوراً.

انفجر سيلاس بالضحك. بدت له فكرة أن يكون برنارد في وضع رومانسي مرحة.

بدا برنارد راضياً، ''لم أكن غبياً أبداً كي أضيعها''، قال وهو ينحني ليضع قطع الخشب في النار، ''وعندما كنت أفقد إحساسي بالحب تجاه فتاة ما، كنت أرتب الأمور حتى يتحول الحب إلى صداقة. بتلك الطريقة، احتفظت بعلاقاتي مع جميع عشيقاتي تقريباً''.

– ''وكيف تتدبر ذلك؟''.

''عندما... امم... تتراجع مشاعرك، تجعل الأمر يبدو أنها هي من تفكر أنها لم تعد تريد الأمر، هي تحتفظ بعلاقاتها وأنت تحتفظ بعلاقاتك وتبقيان صديقين. هذا ينفع''، قال برنارد معجباً بنفسه. ''في كل الحالات باستثناء واحدة، وحتى تلك الواحدة... حسناً، كنا نتحدث عنك، ماذا كانت تدعى فتاتك؟''.

– ''لا أعرف، سألت الناس الذين كانت معهم. قالوا إنها لم تكن من مجموعتهم. لم أكن متفاجئاً، لم يكونوا من نوع الفتاة... كانوا متعاطي مخدرات، على ما أظن''.

– ''إذاً، لم يكن لها اسم، ما جنسيتها؟''.

– ''تحدثنا الفرنسية. لغتها الإيطالية كانت ضعيفة، قالت: هل تتحدث الفرنسية؟ أذكر ذلك، ربما كانت فرنسية''.

كان برنارد يضحك، ''فتاة بلا اسم أو جنسية. أنت تبتكرها''.

''ما كنت لأتمنى أن أقتل نفسي من أجل وهم''، قال جيم بعنف.

– ''أنت لم تصف شكلها حتى''.

''أخبرتك. كان لديها شعر طويل، عينان بنيتان، بشرة سمراء، لو رأيتها الآن كما كانت عند ذلك الوقت، ربما أعرفها، لكن الآن ربما لن أتعرف عليها. التقينا في الليل على ضوء الشموع. مارست الحب معها في الظلام. كان الجو هادئاً قرب الكنيسة، وضجيج الموكب قد هدأ، كان هناك مسيح أسود في الكنيسة''، كان جيم قد عاد إلى لوكا.

نظر سيلاس إلى وجه جيم الذي أضاء ببريق مفاجئ بفعل القطع الخشبية الجديدة التي وضعها برنارد في النار، ''ماذا حدث؟''، همس.

– ''بحثت عنها لأيام، كنت أعمل في حانة، لم يعترف أحد برؤيتها، وصفتها كفتاة تجري، قالوا كان هناك الكثير من الناس يركضون في تلك الليلة، كان هناك إحساس بالعار لحدوث قتال في يوم عيد القديسين. كان خطأ هيبيين أجانب. أتوقع أنها غادرت البلدة''.

سكب جيم القهوة في الفناجين وأعطى فنجاناً لبرنارد وآخر لسيلاس، ''سيلاس؟''، كانت المرة الأولى التي ناداه فيها جيم باسمه. قبل سيلاس القهوة، وأضاف إلى نفسه الحليب والسكر. عطس برنارد، ''إنه لأمر منعش حقاً أن تجد أن الناس ما زالوا يقعون في الحب. ماذا حدث؟''.

''قررت عكس الانتحار، أقمت علاقة مع شقراء أميركية، أصبحت زير نساء''، تحدث جيم بصراحة.

''لكنك ما زلت تبحث عنها''، قال سيلاس مفترضاً.

''تماماً''، نظر جيم إلى الصبي؛ إنه يتعافى، فكر، يشعر أنه بأمان أكثر الآن، ليس أماناً كافياً لنا لنسأله عما حدث. على الأرجح أنه لن يخبر حتى أمه العاهرة، ربما لن يخبر أحداً حتى تأتي مناسبة ما مثل اليوم. أخبرته عن حبي في لوكا لأشغله عما فيه، ''أحياناً أرى امرأة تذكرني بالفتاة، ولا تكون هي أبداً''.

''لا بد أن هذا مثير''، كان برنارد متعاطفاً نوعاً ما.

''هذا يبقيني شاباً''، وعازباً، فكر جيم، متفاجئاً.

''ربما هي ما زالت تبحث عنك''، قال سيلاس مقترحاً ومعجباً بالفكرة.

''أشك في هذا، حين رأيتها تهرب''، قال جيم، ''كانت تتحرك بسرعة''.

جلسوا يشربون قهوتهم: برنارد قرب النار، جيم قبالته، سيلاس وفيذرز والهرة عند قدميهما. كان المطر يهطل في الخارج بقسوة مغرقاً شبه الجزيرة بأمطار الغيوم الأطلسية. لعق فيذرز قطع اللحم أمامه غير مهتم بما يجري حوله. وضع جيم فنجانه في الصحن مصدراً صوتاً، ''لم أخبر أحداً من قبل أبداً عن الفتاة''، لفت انتباه العجوز.

يفترض بي أن أصدق أن هذا لم يحدث أبداً، فكر برنارد، إنه حسّاس كالصبي، ''كان كرماً منك أن تخبرنا''، قال وهو يفكر، عليّ أن أتعثر عبر الحقول حتى أتصل وأخبر لويزا عن سيلاس، وهي ستخبر هيبي. يجب أن أنتظر قدر الإمكان؛ لا أملك القوة أن أتعثر عبر الحقول مرتين، وعلينا أن نتأكد أن هيبي لن تجزع وتقود سيارتها بتهور عائدة إلى المنزل.

٢٣

طلب برنارد رقم لويزا من الهاتف العمومي قرب موقف الحافلات، ووقف يصغي إلى صوت الرنين في الهاتف في منزل لويزا في ويلتشاير.

قبل عدة سنوات، عرف أنها في لندن مع زوجها، فذهب لزيارة منزلها، وطاف بجولة حوله. اكتشف الحديقة آخذاً هيئة الرجل الذي يتصلون به من أجل التأمين ضد الحرائق. طلب من الخادمة أن ترافقه في جولته حول المنزل حتى لا يثير أي شكوك. وهكذا، صار بإمكانه عندما يتحدث إلى لويزا أن يتخيلها في محيطها عندما كانت حزينة على وفاة زوجها (مصدومة تماماً)، وعندما تبدل حالها لتصبح أرملة بحاجة إلى المال لكن مستمتعة بحديقتها وكلابها، ومتعتها الكبرى بزيارات هيبي لتطهو لها. كان بإمكانه أن يتخيلها في غرفة الجلوس ومشهد الحديقة يظهر من خلال النوافذ الفرنسية. عندما اتصل بها ليلاً، تخيلها في السرير وإلى جانبها: الكتب التي تستعيرها من المكتبة، الساعة، أقراص الدواء، النظارات على المنضدة قرب السرير. أحياناً كان ينسى أنها صارت عجوزاً، ويتخيل الفتاة التي تشارك معها السرير والفطور في فندق إنكلترا بمثل هذا السحر.

''مرحباً؟''، جاء صوت لويزا صافياً، ''برنارد؟''.

''نعم''، كانت دوماً تنجح في معرفته.

''عزيزي برنارد، لدي الكثير لأخبرك به، شيء سيجعلك تضحك''، كان صوتها يفيض بالسعادة.

''هيبي لديك؟''، قطع لها موجزها.

– ''بالطبع لدي، ما الأمر؟''.

– ''ابنها، أنت تعرفين أن لديها صبي؟''.

– ''هي لا تعرف أنني أعرف، أنت تعرف أني كتومة''.

– ''لويزا، الفتى هنا معي''.

– ''معك؟ لماذا؟ هذا غريب''.

– ''تركته هيبي يذهب مع أصدقاء له من المدرسة في رحلة إلى سيلي''.

– ''أعلم، أخبرتني أن هذا كان السبب في قدومها إلي، ماذا حدث؟''.

– ''جيم هوكستابل، وسيطنا...''.

''نعم؟ أحببته، أحببت مظهره، وهو لطيف أيضاً''، كانت ترغب في الحديث عن جيم.

– ”وجد الصبي على عتبة منزل أمه، أنت تفهمين، وجده عالقاً خارج المنزل، ينتحب. لم يعرف الرجل ماذا عليه أن يتصرف، والصبي لن يخبره المشكلة، فأحضره إليّ، وهو هنا في منزلي“.

– ”لكن ماذا حدث؟ ماذا...؟“.

– ”الطفل لن يتحدث، تماماً مثل أمه، كتوم، لم أسأله“.

– ”هل حدث له شيء سيئ؟ هل تعرض للاغتصاب؟ نقرأ عن مثل هذه الأشياء المرعبة في الصحف“.

– ”لا، لا، لا شيء جسدياً، لقد هرب، ذلك كل ما أعرفه، ويحتاج إلى أمه“.

”بالطبع هو يحتاجها“، قالت.

– ”هل لك إذاً، عزيزتي، أن تخبري هيبي أن تسرع في العودة إلى المنزل، ولكن اطلبي منها أن تقود بحذر“.

– ”بالطبع سأفعل، لا حاجة إلى استخدام تلك النبرة من الصوت“.

”لا أستطيع أن أفهم لماذا ينجب الناس أطفالاً، وهم ليسوا أكثر من همّ“، زمجر برنارد.

– ”هيا الآن، برنارد، فقط لأننا...“.

– ”دعينا نعد إلى موضوعنا“.

”هذا أفضل“، كانت لويزا هادئة.

لقد جرحت مشاعرها، فكّر برنارد، كانت على الدوام تريد أطفالاً، ”لنفترض أننا قد تزوجنا... هل ما زلت هناك؟“، سأل.

– ”نعم، كنت أفكر أنه رغم أن الأمر مقلق لهيبي فإنها ستكون سعيدة بوجود عذر لمغادرتي“.

– ”لماذا؟ هي تستمتع جداً بالذهاب إليك“.

أخبرته لويزا ما حدث والحكاية تنمو بالرواية. حكت له عن اجتماع مونغو وروري معاً، ”لو أنك اتصلت قبلاً، كنت أخبرتك عن روري، هو صانع قبعات، كانت قد دخلت إلى متجره وهي في طريقها إلى هنا، إنه متيّم بها، كل شيء كان يسير جيداً إلى أن ظهر مونغو، أوه، برنارد، كانت رائعة، بمثل هذه الثقة بالنفس، مثال لأي فتاة في وضعها، بمثل هذه الجرأة“.

– ”هذا رأيك أنت“.

– ”سأخبرها في الصباح، يجب أن تحصل على القليل من النوم“.

– ”إذا كان ما أخبرتني به صحيحاً، فهي لم تنم، ستكون قلقة“.

– ”لقد فعلت ما بوسعي، طردتهما“.

– ’’سيعودان، لويزا، لن يبقيا بعيدين، لو كانا واحداً ربما بقي بعيداً، لكن الاثنين معاً لن يبقيا بعيدين، لن يثق أيٌ منهما في أن الآخر لن يسبقه إليها‘‘.

’’هل تظن هذا؟ هل هذا ما كنت ستفعله؟‘‘، كانت تستمتع بالحديث.

– ’’اذهبي وأيقظيها، لويزا، يجب أن تعود، الطفل بحاجتها، أسرعي‘‘.

– ’’سأفعل، سأفعل‘‘.

– ’’لا أستطيع إبقاءه عندي إلى وقت غير محدود‘‘.

– ’’كم أنت أناني. ماذا عن إيمي ترايماين والفتاة حنة؟‘‘.

– ’’يقول جيم إنه رفض الذهب إليهما، على الأرجح أنه يخشى سخريتهم‘‘.

– ’’جيد جداً، سأصعد إليها، سأوقظها، برنارد، عزيزي‘‘.

– ’’نعم، لويزا‘‘.

– ’’ابق على اتصال، أخبرني...‘‘.

’’أنني أحبك؟‘‘، ضحك برنارد، ’’تعرفين أنني أحبك. أحبك‘‘.

– ’’نعم، ذاك، لكن أخبرني أيضاً ما يحدث، ما الذي أزعج الفتى‘‘.

– ’’سأفعل إذا تمكنت من اكتشاف الأمر. تصبحين على خير، لويزا‘‘.

’’تصبح على خير، حبي‘‘، أقفلت الخط.

أعاد برنارد السماعة إلى حاملها، وهو يفكر، لقد مضى الوقت الذي كنا نقول فيه، ’’تصبح على خير، حبي‘‘ ونحن نقصدها، هل سرق الزمن مني إحساسي؟ كيف هي رائحة هذا الكشك، وقف برنارد وباب الكشك مفتوح، تنفس هواء الليل الرطب، أخذ مقداراً من العطاس، ثم انطلق عبر الحقول مستمتعاً بالعطس.

بينما هو يسير عبر الحقول، تخيل لويزا تندفع من السرير، تلبس الرداء المخرم الذي اختاراه معاً في يوم ما، وتركض عبر الرواق لتصعد الدرج بسرعة، تطرق على باب حجرة هيبي، توقظها، ماذا ستقول؟ كيف ستتصرف؟ ضحك برنارد بحزن، كانت عجوزاً، والرداء سيكون من الصوف، لويزا تغيرت، لم تكن في الماضي تحب النسوة الأخريات؛ كانت تخشى المنافسة، وكانت على حق، اعترف. عندما التقيا مصادفة ذات مرة، كان برفقة امرأة أخرى، كانت محقة في غيرتها، لكن أحببتها دوماً أكثر من الجميع، فكر في نفسه، وهو يمشي مجتازاً العشب المبلل، أو تقريباً أكثر من الجميع. لم تكن بحاجة أن تثير كل ذلك الاهتياج بخصوص تلك الفتاة. نمت معها مرة واحدة فقط. أنا حتى لا أستطيع تذكر اسمها الآن، فكر وهو ينظر إلى منزله في ضوء القمر، هي تحب النسوة

الأخريات، تربطها صداقة بوالدة مونغو، عشيق هيبي، وهي لا تعرف شيئاً عن لهوي معها... وهي تحب هيبي.

مرّ عبر الفجوة الموجودة في جدار حديقته وهو يشعر بالسعادة، لأنه بينما كان يمكنه أن يتخيل لويزا في منزلها، هي لم تر منزله أبداً. كان يتفوق عليها بذلك. مضى الوقت، فكر وهو يدخل، يمسد رأس فيذرز الناعم، مضى الوقت الذي كنا نتحدث فيه طوال الليل عن الحب، الآن نحن نناقش أمور عاهرتنا الحبيبة، آمل أنها ستقود بحذر، إنها طريق طويلة، وهي ستكون قلقة. هل عليّ أن أرسل جيم لإحضارها؟ ربما أنا لا أريد أولاداً، فكر وهو يدفع الهرة جانباً بقدمه ليتمكن من وضع قطعة حطب على النار الخامدة، لكنني أحب هيبي كأب أو كجد. أنا لست، والحمد لله، عجوزاً قذراً ممن يقرصون المؤخرات ويتحسسون الأجساد من فوق التنانير، فعلت الكثير في شبابي، لديّ ذكريات تكفيني لأذهب إلى قبري، ”ما زلت مستيقظاً؟“، نادى بهدوء على جيم في الغرفة المجاورة.

– ”نعم، الفتى نائم، هل أمه قادمة؟“.

– ”هل ستقول للفتى إنها قادمة؟“.

– ”لا، ربما يقلق إن تأخرت“.

”أنا ذاهب للنوم، تصبح على خير“، صعد جيم الدرج.

جلس برنارد في كرسيه وفيذرز عند قدميه يحدق في النار مصغياً إلى صوت قطعة الحطب الجديدة التي بدأت بالتقاط النار. أصغى برنارد إلى صوت الخشب المحترق مراقباً اللهب. فكر في لويزا، هل هي سعيدة؟ هل كانت ستكون أكثر سعادة لو أنه أصر أن حبهما كان كبيراً كفاية لخرق الأعراف. كانت المعارضة ستكون قوية لا يمكن قهرها. لقد اعتاد أن يتحجج بذلك كعذر يحمي به عزوبيته التي استمتع بها. لقد تزوجت لويزا تقليدياً، وعرف أنها أحبت زوجها، ليس كما تحبني، فكر وهو يشعر بالغيرة. مسد رأس الهرة التي قفزت إلى حضنه، ”ما زالت تحبني أكثر“. تمتم للحيوان غير المهتم، ”الأشياء أفضل ما تكون كما هي عليه. نحن عجائز، أنا ثري وأساعدها“. أحب برنارد دوره في حياتها. أرسل لها المال دون أن تعلم، كما أنها لا تعلم أن الأشياء التي أعطتها له ليبيعها عندما كانت في ضيق حقيقي، احتفظ بها من أجلها متظاهراً أنه باعها. يوماً ما عندما سأموت ستستردهم: الخواتم، العمامة السخيفة لكن الثمينة، تركتهم لها، مفاجأة الوداع. شتم برنارد، وهو يفكر في لويزا، التقدم في السن، خيانات الذاكرة في تذكر الكلمات والناس والاحتفاظ بالأشياء لمدى قصير فقط. من كانت، على سبيل المثال، الفتاة التي سمعت لويزا أنه تناول العشاء معها عندما كان قد أخبرها أنه مصاب بالزكام. قضى الليلة معها في فندق بعد ذلك، لكنه لم يعد يذكرها. يذكر

الحادثة، لكن لا يذكر اسمها، ولا يستطيع أن يضع لها وجهاً. ثارت لويزا آنذاك، ولم تكن الفتاة الأولى.

"كان المرء غالباً ما يصاب بالزكام"، قال برنارد لفيذرز، الذي وضع رأسه على ركبة سيده، "للأسف، لا يصاب به الآن أبداً، أحببتها كثيراً"، مسد برنارد خطم الكلب، "لكنني لم أتمكن من التوقف عن الإصابة بالزكام، ولم يعجبها ذلك".

٢٤

لم يكن من اللائق أن أتركهم عالقين هناك بثيابهم الرسمية حتى يمر بهم أحد ما ويرثي لحالهم؛ ليس لائقاً على الإطلاق. أمسكت عجلة القيادة بثبات، وقادت هيبي غرباً لتعود إلى سيلاس. لعنت نفسها لأنها ذهبت للعمل لدى لويزا، فيما كان عليها أن تنتظره في المنزل في حال احتاج إليها. غارقة في أفكارها، أضاعت المنعطف الذي يقودها إلى الطريق الأسرع والأقل تعرجاً نحو إكسيتِر. كانت قد قادت لبضعة أميال قبل أن تدرك ما حدث، ولأن العودة كانت ستسغرق منها وقتاً أطول، فقد قررت المتابعة، وهي تصلي ألا يكون الازدحام في يوم العطلة كبيراً جداً. قالت لنفسها، سيكون مع إيمي أو حنة وجيلز، سوف يعتنون به ريثما أصل. حاولت ألا تضطرب أكثر، ناشدت نفسها أن تحافظ على هدوئها. كانت تجلس باعتدال، وحزام الأمان مشدود على كتفها، حاولت الاسترخاء والقيادة بسرعة أقل. لن يكون جيداً أن تتعرض لحادث. مهذبة، الآن كانت كلمة لا تنطبق عليها، قادت وهي تشعر بالضيق، مصدومة من اللقاء الذي اختبرته للتو. لم يتغيرا، ليسا أكثر تهذيباً مما كانا عليه. يا لها من قبعة فظيعة تلك التي ترتديها، وهو لا بد أنه كان متأنقاً لسبب ما، ما زالا جديّ، فكرت، بمزيج من الحب والألم الذي كبتته طويلاً، ألم أقرأ سجل الوفيات في صحيفة **التايمز** مرات عدة وأنا أتمنى أن يكونا ماتا؟ كانت مندهشة من قوة مشاعرها. أي مصادفة سخيفة أدت بهما أن يستخدما الطريق المختصر أيضاً، هذا آخر شي كنت أحتاجه. أوقفت سيارتها قرب كشك للهاتف العمومي متكئة على المقود. استعادت المشهد كما عاشته للتو. سيارتهما الروفر مصطدمة بشاحنة لاند روفر. المزارع كان سيئاً وجدها غاضب. وقفت، وسألت هل كان بإمكانها المساعدة. لم يتعرفا إليها. قال يمكننا أن نطلب من هذه المرأة الشابة أن تتصل بالمرآب من أجلنا، كم بدا صوته منمقاً. لقد تغير، هل حصل على أسنان جديدة ملائمة أكثر من تلك القديمة؟ والكلب الجديد، أتى مداعباً، سألته عن اسمه، ورأت رأس الرجل العجوز يرتفع إلى الأعلى. عرفت أنه تعرف إليها. سمعته ينادي الكلب ليعود بالنبرة التي اعتادها عندما كان الكلب على وشك أن يتمرغ في القذارة. بدا كأنه فكر أنني سألوثه، فكرت مذعورة، قالت، "سأتصل بخدمة أعطال الطرق من أجلكما". كانت مؤدبة، "أحب كلبكما"، قالت، "إلى اللقاء". لماذا، فكرت بغضب، لم أقل، "سأجد لكما متسكعاً أسود، مدمن مخدرات بأظفار قذرة ليصلح لكما سيارتكما". نظرت إلى كشك الهاتف. أدارت المفتاح في المحرك، وانطلقت ليجدهما

شخص آخر. أنا أضيع الوقت، عليّ أن أعود إلى سيلاس. على الأرجح الهاتف معطل، بررت لنفسها، وهي تدوس على مكبس الوقود، لتزيد السرعة.

لقد ربياني لأكون مهذبة، فكرت، لم أكن كذلك وأنا أتركهما جالسين هناك. أراهن أنهما كانا واثقين أنني سأتصل بخدمة أعطال الطرق. سيأتي أحد ما ويكون أكثر تهذيباً. انفجرت بالضحك بصورة لا إرادية. سيطرت عليها الرغبة بالضحك تماماً. كانت لويزا فوكس مهذبة عندما أيقظتها وهي كانت قد غفت للتو. مهذبة حقاً، ابتسمت هيبي وهي تتذكر لويزا.

"أعتذر عن إيقاظك، هيبي، هناك رسالة أن ابنك عاد بمفرده من جزر سيلي. هو بخير، لكن من الطبيعي أنه بحاجتك، لا، بالطبع عليك أن تذهبي إليه". استولى عليها القلق وهي تنهض من السرير، لترتدي ثيابها وتحزم أمتعتها. أعطتها لويز نقوداً أكثر بكثير مما تستحقه. لوحت معترضة، لكنها قالت شيئاً ما عن أنه ربما يكون هناك خير ضمني في ما يحدث، لأن فيه مبرراً أن تقطع مدة بقائها القصيرة، وهي تلمح بالتأكيد إلى الثنائي، مونغو وروري، فوضى الرابطة. بدت لويزا مستمتعة. تمتمت شيئاً عن أنها حصلت على وجبات أقل، لكن تسلية أكثر. نعم، كانت لويزا مهذبة جداً. ليس "مثلهم"، كانت مهذبة من العظم، لقد جعلتها تتناول طعام الفطور، وقفت بردائها المنزلي على الدرج الأمامي وهي تحمل روفوس، الذي رغب في الذهاب معها. دخل إلى السيارة وسحبته لويزا منها ممسكة بطوقه، ولوحت لهيبي بيدها الأخرى وهي تقول: "أعلميني كيف حاله. عودي ثانية. قودي بحذر في ازدحام العطلة، خذي الطريق المختصرة إلى الطريق الرئيسي".

"اللعنة على الطريق المختصرة. لو لم أستخدمها لم التقيتهما. هما على الأرجح ظنا نفسيهما ذكيين باستخدامها"، تحدثت هيبي إلى نفسها، "لم يكن لطيفاً أن ألتقيهما. لطيف، ليس لطيفاً. ناس مهذبون، النوع المثالي من الناس". كان يمكنها أن تسمع أصواتهم. كانت لويزا مهذبة. النوع المثالي من الناس. هي لا تحب جدي، تذكرت هيبي التلميح الذي قالته لويزا عرضاً، لقد قبلت وجود سيلاس بعفوية ولم تسأل أسئلة فضولية. هل كان عليها أن تتصل بإيمي، أو حنة؟ لماذا لم تفعل؟ كان من السهل جداً الاتصال بإحداهما. هذا هو الجنون الناتج عن القلق. فكرت هيبي، كل ما أريده هو أن أكون على الطريق عائدة إليه. لن أتوقف عن الاهتياج حتى أراه. لماذا أرسل إلي تلك البطاقة البريدية، "أقضي وقتاً رائعاً، أتمنى لو أنك هنا". ماذا يعني هذا؟ حاولت أن تفكر في شيء ما آخر غير هذا؟ ماذا غير هذا؟ ما الذي قد يعوض حاجتها إلى رؤية عيني سيلاس البنيتين، أنفه المقوس، شعره الخمري، لتضمه إلى صدرها، لتحضنه؟ سأتعرض للانهيار إذا لم أفكر في شيء آخر. كانت على وشك البكاء. عمداً، عادت تفكر في جديها... طفولتها، نشأتها، مجبرة نفسها، تذكرت الملل الذي

لا يطاق لأوقات الطعام الطويلة، متسائلة ما الذي يتحدثون عنه، وما هو الموضوع الحيادي الذي لا يسبب جدلاً. لا أحاديث سياسية إلا عن المحافظين، العديد من الكتاب كانوا من الجناح اليساري أو أنهم ليسوا مهذبين في حياتهم الخاصة أو أنهم يكتبون عن ناس غير مهذبين، البستنة آمنة لكنها قد تقود إلى أنه من الممكن أن يطلب من الشخص إزالة العشب، العمل الممل جداً. هي لم تكن فارسة، أخواتها كن فارسات، قبل أن يتزوجن، كن يتحدثن حصراً عن الخيول، والصيد، والمناسبات، والسباقات أو المواجهات خلال أوقات الطعام، كما أن الحديث عن الكلاب، التنس، الغولف، البريدج، كلها أحاديث آمنة لكنها مغلفة بغلاف من الابتذال. الحفلات؟ جيدة إذا كانت تضم ناساً مهذبين، حيث يمكن أن يلتقي الفرد النوع المثالي، التعبير الأفضل عن الرجل الصالح للزواج، وهي الفائدة التي يمكن الحصول عليها من التربية المهذبة. لذا، عندما اقترحت مدرسة الطهو كوردون بلو بعد أن أخفقت في المستوى المتوسط، قلت إنني أفترض أنني سألتقي فتيات مهذبات هناك. لم يبد لهم الأمر أبداً أنه وسيلة للهرب، كان جيداً منهم أن أرسلوني للتعلم هناك؛ يجب أن أكون ممتنة لهم. لماذا لم يخبره أحد أن هناك ملفوفاً عالقاً على أسنانه؟ تمتمت، والأقرباء! من يرتبط بمن، من خلال من، دوماً كانوا مهذبين ربما، أو أنهم يتقربون من النوع المثالي، بعدما أخفقوا في أن يكونوا من علية القوم أصحاب الألقاب. ابتسمت هيبي، وهي تضغط على مكبس الوقود، إذاً، لماذا أصابتهم الدهشة بخصوص الأظفار القذرة، اللحى، الغيتار، الأقدام العارية، أصحاب البشرة السوداء، الأقراص، الشيوعيين، الشعر الطويل؟ لماذا المفاجأة، تساءلت هيبي وهي تقود السيارة، ألم يكونوا مذعورين من المجتمع المتساهل؟ أي فتاة ساذجة كنت وأنا في السادسة عشر، وأي متزمتة؟ سخرت هيبي من نفسها. ظننت أنهم أحبوني، ليس كما أحبوا أخواتي، ولكن ظننت أنهم أحبوني بما يكفي كي يقفوا إلى جانبي عندما أصبحت حاملاً. ظننت أنني سأكون خاصة، سأحتفظ بعذريتي. أوه! يا للسخرية، اغتاظت وهي تتحدث إلى نفسها، عالقة في صف طويل من السيارات وأمامها ثلاث شاحنات من المستحيل تجاوزها. كانت السيارات تتجه شرقاً وغرباً. نقرت بأصابعها على عجلة القيادة، وهي تهتف: ''عذريتي، عذريتي، متى، أين، كيف فقدتها؟''. توقف خط السير المتجه شرقاً، وهيبي تغني: ''عذريتي، أين فقدتك؟ أنت لا تفقدينها كما تضيعين حقيبة يدك، بحق الله''.

''هل كان هذا مؤلماً؟''، قال لها رجل يقود سيارة فورد كورتينا متجهة نحو لندن، عبر الفراغ الفاصل بين سيارتيهما.

أغلقت هيبي نافذتها، ذلك كل ما أحتاجه، تحرك السير. وصفني بالعاهرة، فكرت، وصفني بذلك، ربما يتذكر وهو يجلس على الطريق المختصر في معطفه الرسمي وقبعته، ربما يتذكر ما قاله، ربما

هي في فستانها المزركش تتذكر أيضاً. لم يكونا مهذبين في ذاك اليوم، سالت دموع هيبي، وهي تذكر جديها، سالت مالحة والتقطتها بلسانها. ازدادت سرعة السير، وكان من الممكن تجاوز الشاحنات، كان هناك طريق ثنائي، سارت فيه، ولأنها كانت ملتزمة الوصول إلى سيلاس، خفضت سرعتها إلى الثلاثين، كانت سعيدة لأنها تركت نفسها تفكر في جديها، بعدما غيبتهما لمدة طويلة جداً. كان علي أن أملك الجرأة لأخبرهم أنه لديهم ابن حفيدة، جميل، وغير شرعي، ثم فكرت: أنا حمقاء، أنا أعلمه بالطريقة نفسها التي علموني بها، أنا أيضاً متكبرة. أنا أحتقر طريقة لفظ حنة الحروف الصوتية، لا أريد لسيلاس أن يتحدث مثل جيلز، أرسلته إلى مدرسة يمكنه فيها أن يقيم علاقات صداقة مع ناس من النوع المثالي، يدعونه للإبحار في سيلي، ويحدث له شيء سيئ... روّحت عن نفسها خلال القيادة الطويلة بهذه الأفكار التي تركتها ضعيفة لكن بذهن صافٍ، حتى أنها تعافت بما يكفي لتفكر أنها وجدت أن مونغو وروري النوع المثالي من الرجال المهذبين ليكونا في رابطتها، ووجدت منزلي لوسي داف ولويزا فوكس النوع المثالي من البيوت لتعمل فيهما. كانت متعبة وقلقة وقد نفد صبرها وهي تقود الأميال الأخيرة إلى بنزانسي، لكنها شعرت بالراحة لأنها خرجت من الزحام لتصعد التل باتجاه الشارع الآجري الكئيب. أسرعت إلى منزلها، ضغطت المكابح وقفزت خارجة، دخلت وهي تقول: ''سيلاس، أنا عدت، عزيزي''. رفعت تريب نظرها وهي مستلقية فوق الكرسي لتعبر عن انزعاجها. لم تكن هناك أي إشارة لوجود سيلاس. كان المنزل مليئاً بالغبار، وكل شيء كما تركته تماماً. في غرفة نومها، كان السرير يحمل آثار نوم تريب فوقه فقط، وغرفة سيلاس كان مرتبة وفارغة. فتحت النوافذ. تركت هواء آب يدخل. سيكون مع إيمي، ملأت إناء الهرة بالماء النظيف. انحنت لتمسدها، فهربت تريب إلى الحديقة. ركضت هيبي عبر الشارع وهي مستغرقة في التفكير، ودخلت منزل إيمي، ''مرحباً، إيمي''، كانت إيمي مرتاحة في كرسيها.

''عدت باكراً''، قبلتها إيمي وهي تمد نفسها ممسكة بها.

– ''أليس سيلاس معك؟''.

– ''سيلاس؟''.

– ''هو مع حنة، أليس كذلك؟''.

''هو في جزر سيلي، لم تحن عودته بعد، لماذا تركت لويزا باكراً؟ نهضت إيمي من كرسيها، أتوقع أنك ترغبين في كوب من الشاي''، وعندما نظرت إلى هيبي عن قرب، ''هل هناك مشكلة ما؟''.

– ''أنت اتصلتي، فأسرعت بالعودة، هل هو مع حنة وجيلز؟''.

– ''أبداً، لم أتصل''.

– ''إذاً، لا بد أنه مع حنة، لا بد أنه هناك، سأذهب إليها''، أمسكت إيمي يد هيبي.

– ''ما الذي سأتصل من أجله، ماذا كانت الرسالة؟ ما الخطب؟''.

''الرسالة كانت أن سيلاس عاد ويريدني. من الطبيعي أن أظن أنك كنت أنت من اتصل. لا بد أنه مع حنة''، بدأت هيبي تصاب بالذعر.

– ''حنة لا تعرف أين أنت، ما لم يكن عندها قدرة على الاستبصار''.

''سأذهب وأسألها''، خرجت هيبي راكضة وتركت الباب خلفها مفتوحاً، أسرعت إلى منزل حنة، وقد بدأ القلق يتحول إلى خوف أعمى. كانت غرفة الجلوس فارغة وكذلك المطبخ والحديقة. صعدت الدرج قافزة، كان هناك أصوات خافتة من غرفة نوم حنة.

''حنة!''، اندفعت هيبي إلى داخل الغرفة. كانت الستائر مسدلة فوق النوافذ المفتوحة، وحنة وتيري مستلقيان برضا فوق السرير يستمعان للمذياع.

– ''هل هو مع جيلز؟''.

''من الذي مع جيلز؟''، أطفأت حنة المذياع.

''هاي، هيبي''، قال تيري المستلقي ورأسه فوق الوسائد وذراعه حول كتف حنة. ابتسم لهيبي، التي لم تكد قد لاحظت وجهيهما السعيدين، عريهما، ملابسهما المبعثرة فوق الأرض. ''أنت تقفين على أفضل سروال عندي''، ركلت هيبي السروال بعيداً فعلق بكعب حذائها وتمزق، ''وها أنت الآن قد مزقته''.

''أين سيلاس؟''، وقفت هيبي فوق رأسيهما، ''أنت أرسلت لي رسالة أن عليّ أن أعود وأنه يحتاجني''.

''اجلسي''، سحب تيري هيبي من يدها ودفعها لتجلس على السرير، ''تبدين كأنك فقدت مجوهراتك''.

''يجب أن أجده، أنت أرسلت رسالة''، خاطبت هيبي حنة بلهجة متوسلة.

''لا، حبيبتي''، قالت حنة وهي تستوي في جلستها، وقد بدأت تشعر بالقلق.

''إذاً من؟''، علا صوت هيبي.

أمسك تيري بمعصمها، ''لماذا لا تخبرينا، لم كل هذا؟''.

أخبرتهم هيبي عن الرسالة وعودتها، ''أحدهم يحاول أن يمزح''، قالت حنة مفترضة.

– ''لا يمكن ذلك. ظننت أنها كانت إيمي لكنها تقول لا، هي الوحيدة التي لديها رقمي''.

– ''ألا يملك سيلاس الرقم؟''.

''بالطبع معه، لكن الرسالة لم تكن منه، كانت عنه''، كان صوت هيبي يرتعش.

''من الأفضل أن نرتدي ثيابنا''، قالت حنة وهي تنهض من السرير، ''تحرك، تيري''.

جلست هيبي على طرف السرير تراقبهما.

''أنت لا تمانعين، هل تمانعين، هيبي؟''، قالت حنة وهي ترفع سحاب تنورتها.

– ''أمانع ماذا؟''.

– ''تيري وأنا''.

– ''لماذا علي أن أفعل؟ أوه، آسفة. لم أنتبه. أنا سعيدة من أجلكما''.

''أخبرتك أنها لن تمانع''، تحدث تيري عبر هيبي إلى حنة، ''كانت تتمنى أن تشعري بالغيرة''، قال لهيبي التي ابتسمت ابتسامة شاحبة.

''أنتم هناك في الأعلى؟ لقد أعددت إبريقاً من الشاي''، نادت إيمي عبر الدرج.

''شاي!''، كانت هيبي تصرخ تقريباً، ''شاي!''.

''نعم، شاي''، أمسك تيري ذراعها ونزلوا معاً، ''تعالي إلى منزل إيمي لنفكر ماذا سنفعل، إيمي لم تكن بخير، قلبها...''، لكن هيبي بدت غير منتبهة، أومأت إيمي إليه أن يسكت.

وصل جيلز وهم في طريقهم إلى منزل إيمي قادماً من أسفل الشارع وذراعاه مليئتان بالأخشاب الطافية. ''ربما يعرف جيلز شيئاً''، قالت هيبي.

انتظروا جيلز الذي كان يسير ببطء. ركض تيري إليه. أخذ منه بعض الأخشاب وسأله عن سيلاس. رأته النسوة يهز رأسه.

''تعالي واجلسي أنت تبدين منهكة''، قادت إيمي هيبي إلى داخل المنزل، ''اجلسي''، صبت الشاي وقدمته إلى هيبي، ''اشربيه''، راقبوها تشرب، ''هل هذا أفضل؟''، هزت هيبي رأسها، ''ليس كثيراً''.

''لماذا لا تتصلين بالسيدة ما كان اسمها في سيلي؟''، اقترح جيلز، ''ربما هي تعرف لماذا عاد بسرعة، إن كان قد عاد''.

''أي حمقاء أنا''، اندفعت هيبي، ''سأتصل من المنزل، هذا أسهل''، ركضت خارجة من المنزل.

''أليس من الأفضل لو أننا...''، وقفت حنة، مستعدة للحاق بهيبي.

''لا، اتركيها''، كانت إيمي جازمة، ''إنها محادثة خاصة''.

''جنيفر ريفز تتكلم''، كان الصوت القادم من جزر سيلي صافياً، إذ بدت جنيفر ريفز غير المرئية بالنسبة إلى هيبي كأنها تقف قربها.

''أنا هيبي روتر''، قالت هيبي.

''أفهم''، قالت بجفاء، ''تسألين عن الوقت...''، قالت بغموض.

– ''لقد تلقيت رسالة أن سيلاس...''.

''هل يريد أن يعتذر؟''، قالت بحدة

''لا أفهم''، قالت هيبي بحيرة.

– ''إذاً، هو لم يخبرك؟ لا يفاجئني الأمر. ما العذر الذي سيقدمه؟ نحن لا نقيد أنفسنا عادة باستضافة فتية غرباء''.

''فتية غرباء؟''، شعرت هيبي بالدم يندفع إلى وجهها.

– ''غريب جداً، وذاك التعبير قليل في وصفه، المسكين مايكل طلب أن يدعوه بينما نحن نستضيف طفلين آخرين مهذبين...''.

''مهذبين؟''، شعرت هيبي بالغضب يختلط بالحيرة.

– ''فتية لائقين جداً، النوع المثالي، ليسوا من المدرسة نفسها التي فيها مايكل وابنك، بالطبع، فكري كيف...''.

''النوع المثالي؟''، هل كانت هذه المرأة تتحدث حقاً بهذا الشكل؟

– ''بالطبع هم سيصبحون في المدرسة نفسها قريباً. أنا أتحدث عن إيان وأليستر، ليس عن ابنك، لا أعرف أي مدرسة سوف تقبله... ليس كلية إيتون، بالطبع''.

– ''أنا...''.

– ''أقترح عليك أن تعلميه بعض الأمور، اجعليه يكتب ويعتذر عن...''.

''عن ماذا؟''، ضبطت هيبي أعصابها كي لا تصرخ.

– ''عن سلوكه، لغته، إزعاجه، باختصار عن وقاحته معي ومع زوجي...''.

– ''ما الذي تحاولين...''.

– ''أحاول أن أخبرك أننا كنا قلقين تماماً حتى أخبرنا مدير الميناء في سانت ماري أنه رآه يستقل مركباً من تريسكو ويذهب إلى مطار المروحيات. ظننا أن شيئاً سيئاً قد حدث له''.

''من الواضح أن هذا ما حدث''، قالت هيبي بتجهم.

''ماذا قلت؟''، تلعثمت جنيفر في منتصف الجملة.

– ''قلت من الواضح أنه حدث له شيء سيئ جداً''.

– ''سيدة روتر...''.

– ''هل أرسلت لي رسالة؟''.

''بالطبع لا. الصبي رسالة بحد ذاته''، ضحكت جنيفر ريفز سعيدة بفكاهتها، ''بالمناسبة، لقد ترك معظم أمتعته هنا، ولو أنها ليست جيدة هي الأخرى''.

شعرت هيبي بالغضب لكلمة، ''هي الأخرى''، ما جعلها تغرق في الظلام.

''كوني في المطار، إن أردت، يوم الخميس فنحن سنقطع العطلة باكراً، يمكنك أخذها. ستكونين هناك لأخذها؟''.

وضعت هيبي السماعة في مكانها، كانت ترتجف.

''إذاً من أرسل الرسالة؟''، لفها تيري بذراعيه.

– ''كنت تصغي؟''.

''لا حاجة أن أسمعها كي أفهم، أليس كذلك''، قبل جبينها.

''أوه، يا إلهي!''، مالت هيبي عليه، ''ماذا يمكن أن يكون قد حدث؟ أين يمكن أن يكون؟''.

– ''من الأفضل أن نعود إلى المربع الأول، اتصلي بالسيدة العجوز التي كنت تعملين لديها، اطلبي منها أن تخبرك ما حدث من جديد''.

لم ترد لويزا على الهاتف لأنها كانت في آخر الحديقة مسترخية ترفع قدميها على الكرسي أمامها، وكلابها المخلصة تحيط بها. تستمتع بشمس الظهيرة وتصغي إلى موسيقا باخ من مذياعها.

٢٥

استيقظ مونغو على صوت أجراس الكاتدرائية، والضوء المتسرب من الستائر المغلقة في غرفة غير مألوفة. أغلق فمه الجاف من الشخير، حاول بنجاح جزئي التنفس من أنفه. أيقظت فضوله رائحة شعر غريبة في استجابة للإثارة الحسية وهو نصف نائم، لم تكن الرائحة لأليسون، الرائحة التي كان معتاداً إياها قبل أن يعتادا النوم في سريرن منفصلين، وليست لهيبي كذلك، شعر بالصدمة وهو يتذكر أنه كان في منزل روري، في سرير روري، وهنا يستلقي روري، نائماً ورأسه على كتف مونغو، يتنفس بلطف وبراحة وأمان، وكأنه تنبه إلى نظرة مونغو، فقد اقترب منه أكثر، واستدار نحوه بثقة كبيرة. مستعيداً المساء والليلة السابقة، مصغياً إلى صوت الأجراس، انتبه مونغو أن الوقت لا بد تأخر. كان هناك فعل لا بد منه، ومخططات يجب إنجازها، ولكن ما الفعل، ما المخططات؟ تذكر أمه، أسلوبها المباشر المروع هو السبب في هرب أليسون كما تدعوه. تذكر كيف أرسلته خارج الغرفة وهي تتصل بسانتا باربرا، قالت: ”دع الأمر لي، أنت تجعل أسلوبي متشنجاً إذا كنت تصغي، سأناديك إن احتجتك“. نزل إلى الطابق الأرضي ليصغي إلى الحديث من وصلة الهاتف، لكن الآنسة تومسون كانت تجلس قرب الهاتف. عزاؤه الوحيد أنه كان ببقائه مع الآنسة تومسون في الغرفة نفسها سيمنعها من استراق السمع. حسد مونغو أمه على افتقادها الرياء. إنها محقة، فكر، هي لا تستطيع أن تتدبر أمورها من دون أليسون، وكذلك أنا. أربعة عشر عاماً من تسلط أليسون المستمر جرّدته من دوره كرجل. بينما هو يقود عبر الريف كان يفكر في جعل هيبي غارقة في حبه والسعادة الأبدية بعد ذلك، والآن صار ذلك كله هراء، سيكون محظوظاً إن استطاع أن يحافظ على الترتيب مع هيبي على النحو الذي كان عليه والذي كان جيداً جداً حتى هذا التاريخ.

تحرك روري، متمتاً في نومه، بدأ مونغو مناورة ليخلص نفسه من روري دون أن يوقظه. إن هو تمكن من الوصول إلى منزل لويزا دون روري، سيكون بإمكانه أن يرى هيبي ويرتب لقضاء وقت معها قريباً. بفضل أمه، عليه أن يلتقي أليسون ويتأكد أنها استقرت في عودتها إلى البيت، وإلى دورها كزوجة وكأم وكنة. سيكون عليها أن يقضي معها بعض الوقت. جرب مونغو أن يحسب كم مضى من الزمن منذ توقفت أليسون عن التراجع في أمورها ما لم يكن الطلب رسمياً. نظر إلى ساعته، كانت تشير إلى الحادية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة. ابتعد عن روري الذي كان شعره يدغدغ له أنفه؛ استيقظ روري.

''مرحبا''، ابتسم روري بمرح، ''صباح الخير''.

لم يكن هناك شيء جيد في الأمر، فكر مونغو، وهو يخرج ساقيه من السرير ويسير مترنحاً نحو الحمام. كانت رأسه تنبض، وشعر فمه كأنه ذو سقف إسمني. شعر بالدوار، انضم روري إليه، ''سأعدّ الشاي''. تبولا معاً، نظف روري المرحاض.

بدا روري لامع العينين، يقظاً، متنبهاً، وبصحة جيدة، قال: ''أنت تبدو بحال يرثى لها،'' بدا قلقاً.

''أشعر بذلك''، شخر مونغو.

''ارجع إلى السرير ريثما أرتدي ثيابي، ثم سأعدّ الفطور''. قاد روري مونغو إلى السرير، ''سأحضر لك أسبرين''. استلقى مونغو على ظهره وهو يئن، أحضر روري كأس ماء وأسبرين، ''خذ اثنتين، هيا، ابلعهما''. استجاب مونغو للأمر بإذعان، وأمل وهو مستلقٍ أن يأخذ الأسبرين مفعوله، مصغياً بقرف إلى الأصوات الصادرة عن روري بينما هو يحلق، ويستحم، ويصفر ويغني، وينظف أسنانه، وصوت الغرغرة... لقد ضربه روري في الليلة الماضية والآن هذا، شعر مونغو، وهو في منتصف العمر، بالاستياء والغيرة. حمل روري الشاي الهندي ذا النكهة القوية، جلس قرب السرير وأقنعه بأن يشرب فنجانين كبيرين.

''أنت بحاجة إلى السوائل، عليك...''.

''علي أن أذهب إلى منزل لويزا''، دمدم مونغو.

''سنذهب معاً''، قال روري بحزم. كان مونغو ضعيفاً لا يقوى على الاعتراض.

''لا داعي للعجلة''، ما زال الاهتمام بادياً على وجه روري.

''سنجد شيئاً نأكله ثم نذهب... معاً، لن... أنا لن أذهب دونـ...''.

– ''دوني؟''.

– ''لا''.

شعر مونغو برغبة جامحة في الإساءة إلى روري لأنه يتصرف بأمانة وصدق. لكنه لم يفعل، ألم تكن نيته فقط أن يصل إلى هيبي أولاً؟ نظر مونغو إلى روري نظرة عابرة وهو يحتسي الشاي، كان شاباً، ويا إلهي! نشيطاً بسروال الجينز النظيف والسترة البيضاء التي أضفت مظهراً جميلاً إلى عينيه البندقيتين، وشعره المغسول بعذوبة رغم أنه خفيف في مقدمة الرأس، ومتجعد في الخلف. بدا بوضوح ما كان عليه: شاباً.

''خذ وقتك''، قال روري، بنبرة من يتحدث إلى مريض، ''استحم، يمكن أن تستعير أي شيء تريده''.

"حقيبتي في سيارتي"، قال مونغو بغضب.

– "أعطني مفاتيحك، سأحضرها لك. عندما تستحم وتبدل ثيابك ستشعر بالتحسن".

"ليس هناك شيء خطأ فيّ"، صاح مونغو.

"لا، لا". أخذ روري مفاتيح السيارة واختفى مع صينية الشاي، ثم عاد يحمل حقيبة مونغو، "إنه يوم جميل، سنتناول الفطور في الحديقة عندما تصبح جاهزاً، لا داعي للعجلة".

كيف يجرؤ أن يكون لطيفاً جداً، غرق مونغو في الرثاء لحاله، محاولاً تأجيج كراهيته، لكن كل ما نجح فيه كان الغرق في التعرق الناتج عن احتساء الكحول، لقد بالغ في احتساء الخمر خلال الأيام القليلة الماضية، أنا لست سكيراً فعلاً، قال لنفسه.

عندما نزل مونغو الدرج كان روري قد أعد المائدة تحت شجرة في الحديقة، "وجبة فطور وغداء"، قال لمونغو بود، جلسا يتناولان، عصير البرتقال، الكِلى، لحم الخنزير، الخبز الطازج، الزبدة، المربى اللاذع، وقهوة قوية. تناولا الطعام بصمت وهما يراقبان طائر أبو الحن الذي غامر بالقفز إلى المائدة ليأكل الفتات. شعر مونغو أنه يحسد روي على النمط الذي يحياه، "أنت تعيش على نحو مريح جداً"، قال متذمراً.

نظر إليه روري بعصبية وقال: "وحيداً".

– "لكنك تفعل ما يحلو لك".

– "ضمن المنطق".

أنهيا طعامهما، شعر مونغو بالود تقريباً، جلسا يراقبان أبو الحن يتنقل بين الأطباق ويعود إلى الشجرة قبل أن يرجع إلى المائدة عندما فتت روري قطعة من الخبز المحمص.

"أخبرني"، قال روري، "أخبرني عن...".

– "هيبي؟".

"نعم"، احمرّ وجه روري خجلاً، كان يشعر بالثقة بالنفس نتيجة مرض مونغو.

"ست سنوات"، تنهد مونغو من الفكرة، "كانت أليسون تبحث عن شخص ما يطبخ لأمي عندما تذهب مدبرة منزلها الرهيبة في عطلة، ووجدت هيبي، أوصت بها فتاة عجوز كانت تعمل لدى العمة لويزا في وقت ما. التقيت بهيبي وهي تعمل طاهية، وقعت في حبها".

"حب؟"، هل يمكن لصاحب أي خيال خصب أن يتخيل مونغو واقعاً في الحب؟ بدا الأمر مثيراً للشك لدى روري.

صب مونغو لنفسه مزيداً من القهوة، انتظر روري، ''وجدت''، تابع مونغو، ''أنها كانت تقبل أن تنام معي إن أنا دفعت، أي أن شروطها كانت مثل أي عاهرة أخرى''.

– ''هي ليست عاهرة''.

– ''هي كذلك، شروط، مال مقدم، حسناً، الشروط الأخرى تجعلها مختلفة، أنا لا أطلبها كما أطلب أي فتاة لهو أخرى...''.

''أنا لا أعرف كيف تطلبهن...''، قال روري بتزمت.

''ليس لدي غيرها في الواقع''، اعترف مونغو، ''هي ترتب المواعيد، هي وجدت الشقة التي نذهب إليها، هي تخبرني متى وكم سنقضي معاً، ليس عندي حتى فكرة ضبابية عن مكان عيشها، هناك فقط هذا المتجر الباكستاني الذي يعيد...''.

''تبدو متسلطة مثل...''، همس روري.

''أليسون، أعلم لكن ليس بأسلوبها. استغرق الأمر مني ثلاث سنوات قبل أن أدرك أنها كانت تقترح، تزرع بذرة إذا أردت، أي شيء تريد أن تفعله. عندما أرادت أن تذهب إلى اليونان، وجدت نفسي أريد أن آخذها إلى هناك. لشركتي اتصالات هناك. لهذا، كان الأمر سهلاً. الأمر نفسه مع فينيسيا وروما، هي لم تقترح باريس أبداً لسبب ما. اقترحت أنا باريس، لكنها لم ترغب''، تنهد مونغو، ''أذهب إلى باريس وحيداً أو أصطحب أليسون''.

''هذا جيد لأليسون''، كان صوت روري كئيباً.

– ''أليسون لا تحب الطعام الفرنسي في الواقع، وهيبي لا يمكن أن تلومها بخصوص الطعام...''.

– ''هي طاهية، هي...''.

– ''أعرف، أعرف، لكنها، تعرف، هي تتحدث عن الطعام كأنها صاحبة مطعم''.

– ''ربما هي تأتي من...''.

– ''لا، لا. هيبي ما تدعوه أمي سيدة، واحدة منا، أنت تعلم كم هي متكبرة أمي''.

''سيئة كأمي تقريباً''، شرد روري قليلاً، يفكر في أميهما. فكر مونغو مستمتعاً في هيبي وهما في لندن، وروما، وفينيسيا، وتلك الجزيرة في اليونان، تنهد.

''أنا أحب الفتاة''، قال بصعوبة.

''كذلك أنا''، عبر روري عن مشاعره بعناد.

''نحن نقرأ لبعضنا بصوت عالٍ''، قال مونغو، ''نلعب النرد''. هذه المعلومة أزعجت روري بشدة، لأنها كشفت عن عمق الألفة التي هي أكثر إقلاقاً من الجنس. عدّل مونغو جلسته مزعجاً أبو

الحن، ”لا يجب أن يربط الشخص المال بالحب“، قال، ”لكن إذا فعلنا ذلك، فأنا أحذرك روري، الاحتفاظ بهيبي هو مثل وجود ابن ثالث آخر في المدرسة، ستة أسابيع في العام. لذلك، أنا يمكنني أن أملك ابناً آخر“.

– ”هل تريد ابناً آخر؟“.

– ”معاذ الله“.

”ليس لدي أبناء، لست منزعجاً، إلى جانب ذلك، أنت تقول إنها تكلفك الكثير، ذاك خسيس جداً، وخطأ أخلاقياً“، كان روري في موقع هجوم.

– ”كنت كل ذلك في الليلة الماضية“.

”الليلة الماضية كنت قد شربت بضعة كؤوس من الشراب، الليلة الماضية كنت تقترح أن ينضم ابناك، ابناك المتعلمان، إلى...“.

”الرابطة؟ هل هي حقاً تدعوها رابطة؟“، هل كان روري يخدعه بالأمر؟

”نعم“، اعترف روري بحزن.

– ”أتساءل من هم الأعضاء الآخرون؟“.

”ربما نعرفهم“، لم يكن روري سعيداً بفكرته.

– ”ألسنا نضيع الوقت؟ أليس علينا أن نذهب لرؤية الفتاة، ألم تكن تلك هي الفكرة في الليلة الماضية؟“.

”الليلة الماضية كلانا كان ذاهباً ليتزوجها، اليوم أنت تبدو راضياً أن تحتفظ بها كعشيقة لك، أنا ما زلت أريد الزواج بها“، بدأ روري تنظيف المائدة، ”ساعدني في هذا“، قال بحدة.

ساعد مونغو روري في ترتيب بقايا وجبتيهما على صينية حملها روري إلى داخل المنزل.

”لنفترض أنني أقدم إليك عرضاً، أشتري حصتك؟“، لفظ روري الجملة باندفاع، ربما بإمكانه أن يقترض من المصرف، رهن جنسي؟

”لا بد أنك تمزح“، قال مونغو بغطرسة.

– ”ربما هي... ربما تكون...“.

”ماذا؟“، زمجر مونغو.

”سعيدة“، رتب روري الأطباق في آلة غسل الصحون، ”للتخلص منك“.

حاول مونغو أن يضحك ضحكة ساخرة. بدت له فكرة سيئة ألا يعبر بصوتٍ ما.

''ماذا عن ستة وأربعين أسبوعاً كل سنة، تلك التي لا تكون فيها معك؟''، استجمع روري شجاعته، وهو يفكر، لو أنه يستطيع فقط أن يضعف ثقة مونغو بنفسه.

– ''تطبخ''.

– ''أحياناً فقط، لأمك وللعمة لويزا، لويزا أخبرتني، ستة أسابيع لدى أمك، ذاك يبقي أربعين، ونحو ثلاثة لدى العمة لويزا، ذاك يبقي ستة وثلاثين لبقيتهم''.

– ''من؟''

''أعضاء الرابطة، أنت أحمق''، صرخ روري بسخط، ''فقط فكر، هي...''.

''لا بد أنها مليونيرة''، قال مونغو بإعجاب.

''كل ما تفكر فيه هو المال''، قال روري على نحو مهين محدقاً في عيني مونغو.

''كل ما أفكر فيه''، حدق مونغو في عيني روري، ''كل ما أفكر فيه''، قال بهدوء، ''هو ما قد أخسره''.

نظر الرجلان إلى بعضهما بعضاً صامتين يفكران في بشرة هيبي، عينيها، فمها، شعرها، فخذيها، ضحكتها، أسلوب عطائها، صوتها، موهبتها في جعلهم يشعران نفسيهما خارقين.

''هيا''، قال مونغو.

''صحيح''، قال روري.

قادا خارج ساليسبري بصمت. بالنسبة إلى مونغو، كانت فكرة أن ابن عمه الشاب الأخرق يضاجع هيبي فكرة مربكة. لم يكن مسموحاً أبداً أن يسب أو يستخدم الكلمات المؤلفة من أربعة حروف أمام أليسون. كان يستخدمها باعتياد بينه وبين نفسه خارج جوها. بالنسبة إلى روري، كانت صورة مونغو مستلقياً فوق هيبي، مع، مع، أوه يا إلهي! مع عضوه فوق جسدها صورة داعرة لا يمكن التخلص منها. تساءل وهو يقود السيارة هل سيعتبر قاتلاً من الدرجة الأولى إن قتل مونغو، إن امتلك الشجاعة لفعل ذلك، كيف يمكن أن يبدأ الأمر.

''هناك جحيم من زحمة السير على هذه الطريق''، قال مونغو موجهاً ملاحظة على ما كان طريقاً مزدحمة بوضوح.

– ''ازدحام ساليسبري''.

''مثل معرض في الهواء الطلق. على أي حال، ألا يمكننا أن نخرج من هذه الطريق اللعينة؟ أنت تعيش هنا، يجب أن تعرف''.

– ''ليست هناك طرق مختصرة، تكون...''.

''تكون ماذا؟''، كيف يمكن لهيبي أن تفكر في هذا الحمار؟ إنه مجنون، يجب أن أخبرها أن هذا جنون، هو لا يستطيع إنهاء جملة واحدة.

– ''تكون طويلة جداً، أنت تعلم، ضيقة و... متعرجة''.

– ''هل فيها ازدحام؟''.

– ''لا... لا شيء لأنك لا يمكن أن...''.

– ''هل يمكننا أن نصل إلى لويزا عبر هذه الطريق؟''.

– ''نعم، لكن...''.

– ''إذاً، أخرجنا من هذه الطريق، ألا يمكنك أن ترى، إنها مزدحمة لأميال، لن نتمكن أبداً من التحرك على طول هذا الخط''.

– ''ليس بإمكانك أن تتجاوز أي شيء بسبب ضيق...''.

– ''أنت قلت ليس هناك ازدحام عليه، لن يكون هناك شيء لتتجاوزه''.

''أوه، حسناً''، انعطف روري بالسيارة نحو طريق ضيق محفورة بشكل ساحر على طول الوادي المنبسط والأبقار إلى جانب الطريق تنظر متأملة مدهوشة. خفف روري سرعته ليسمح لطائر ذيال بالمرور. لم يكن الطريق قد تغير منذ حقبة الخيول والعربات، ''ماذا ستقول للعمة للويزا؟ أنا أحضر عادة فقط في... في''.

– ''ماذا؟''.

– ''في المساء للصيد''.

– ''ليس الصيد جيداً في ضوء الشمس الساطع. أي أحمق يعرف ذلك. لويزا العجوز ليست حمقاء''.

– ''هي سوف... تشم...''.

''لقد شمتها''، قال مونغو، ''لا تكن أحمقاً، لقد وقفت إلى جانب هيبي في الأمس، ودعتنا، عاملتنا كأننا كنا قادمين لاغتصاب الفتاة''.

''ألم يكن هذا ما أردته، أي...''، ركز روري عيناه في عيني مونغو.

''انتبه أين تذهب''، صاح مونغو، ضغط روري مكابح السيارة؛ كان الطريق مقطوعاً بسيارة روفر تعكس ضوء الشمس الساطع. كان طرف السيارة مشتبكاً مع واقيات سيارة لاند روفر. بدت السيارتان كأنهما كلبان يتعاركان.

''حادث''، قال مونغو، يوضح ما هو واضح، فتح باب السيارة وخرج، تبعه روري.

كانت الشاحنة تحتوي بعض بالات القش، وأكياس سماد، وآلة عزق للنباتات، ولم يكن هناك أثر للسائق. إلى جانب الطريق، جلس رجل وامرأة عجوزان مع كلب لابرادور. كان وجه الكلب يحمل التعبير المألوف لهذا النوع من الكلاب (قل ما تريد فقط وأنا سأحاول أن ألتزمه ضمن إمكاناتي المتواضعة). وقف الزوج، وأبعدا عن وجهيهما تعبير الغضب ونفاد الصبر ليلقيا التحية على مونغو وروري ويتبادلان معهما الابتسام كالنبلاء. كانا يرتديان ثياباً رسمية، فالمرأة ارتدت ثوباً طويلاً بعض الشيء من الحرير المزركش فوقه معطف سميك بلون أزرق داكن مع حذاء أبيض وقفازات بيضاء وقبعة جعلت روري يجفل حين رآها؛ إن كان هناك شيء أزعج أحاسيسه، فهو حبات الكرز البلاسيتيكة على القبعة. كانت ترتدي أقراطاً من اللؤلؤ، وتضع دبوساً ماسياً، وفي أصابعها خواتم جيدة. ارتدى زوجها ثياباً رسمية عفّى على طرازها الزمن، ''أرى أنكما تعرضتما لحادث اصطدام''، قال مونغو وهو يتجه نحوهما.

ابتسم العجوزان بتحفظ أقل عندما سمعا لفظ مونغو السليم للحروف الصوتية، ''القيادة لمسافات طويلة، وبسرعة، يليها هذا دوماً''. قال العجوز.

– ''فهمت، ألم يمر أحد لمساعدتكما؟''.

''آه، مرت امرأة شابة وعرضت المساعدة''، قال الرجل وهو يخرج بيد مرتجفة منديلاً من جيبه، ثم سوّى سرواله الذي كان مجعداً نتيجة الجلوس، تساءل مونغو هل كان زي الرجل القديم وحركته في تسوية السروال ما زالا مستخدمين. لاحظ باهتمام أن سرواله كان له أزرار أمامية وليس سحاباً.

''أين سائق هذه؟''، ضرب روري الشاحنة برفق.

''لقد انتظرنا لساعات''، نظرت السيدة العجوز إلى ساعة يدها، ''نحن هنا منذ الفجر''.

''لا يريدون أن يعرفوا كم بقينا هنا''، قال لها زوجها بلهجة لاذعة مقللاً أهميتها.

''تعب سائق ذاك الشيء من الانتظار''، قالت زوجته بصوت مرتجف.

''قالت إنها ستتصل بخدمة أعطال الطرق ليأتوا''، قال الزوج، ''هم عادة موثوقون''.

''لكنها لن تفعل أبداً''، قالت زوجته بمرارة.

''إذاً، هناك صديقة عرضت المساعدة؟''، قال روري مبتهجاً.

– ''قالت إنها ستتصل بخدمة أعطال الطرق''.

''حسناً، سيأتي أحد ما قريباً''، كان مونغو لا يطيق صبراً كي يتابع طريقه.

''أخبرتك أن لا شيء يمكن أن يعبر هذه الطريق''، صاح روري في وجه مونغو بغضب.

"إذاً، أهل المنطقة يستخدمونه فقط، أفترض أن سائق الشاحنة من المنطقة؟"، قال مونغو ما كان معروفاً.

"نعم"، تحدثا بانسجام، "نعم، هو كذلك".

"سيكون علي أن أرجع الطريق كله إلى الطريق الرئيسي"، كان روري غاضباً، لكنه، قال منتبهاً إلى تصرفاته، "سنتصل بخدمة أعطال الطرق لإنقاذكما".

"من الأفضل أن نسجل أرقام السيارات"، قال مونغو وهو يحاول أن يكون عملياً، "رغم أن صديقتكما ستكون قد أخبرتهم سلفاً"، وجد قلم رصاص واتجه إلى الوراء ليسجل أرقام السيارتين على ظهر مغلف.

"أتوقع أن كلبكما يريد طعامه"، حاول روري بضعف إظهار اللطف.

"لقد قادت بعيداً وتركتنا عمداً"، تحدثت المرأة وأسنانها مطبقة بإحكام. كان روري مدهوشاً من رؤية الدموع في عينيها، "لن تتصل بخدمة الأعطال"، ثم قالت محاولة تمالك نفسها، "يتناول طعامه في المساء"، كانت ابتسامتها صافية وودية، "طعامه معي في السيارة، نحن من سوف يضيع عليه الغداء، كان على زوجي أن يجري حديثاً".

"أين تذهبان؟"، حاول روري أن يفتح حديثاً.

– "ليدبري، لذلك انطلقنا باكراً، زفاف".

"لدي أصدقاء بالقرب من ليدبري، إنهم يدعون..."، ذكر روري اسم لقب عمه وعمته، "إنه عرّابي...".

– "هو قريب جداً من المكان الذي نقصده، سأخبره أنك أنقذتنا، زوجي كان معه في المدرسة".

"لا تقلقي"، لم يكن العم يحب روري، وكما سمع، فهو كان يشير إليه على أنه بائع القبعات الشاذ، "سنرجع الآن من هذه الطريق ونطلب المساعدة لكما".

صعد روري ومونغو إلى السيارة، وبعد أن عكسا اتجاه السيارة، قاد روري عائداً إلى الطريق الرئيسي، "سوف يلوي هذا عنقي".

"ما الذي كنت تريده بتملقك هؤلاء الناس؟"، سأل مونغو، "تتفاخر بعرابك اللعين".

– "كنت أنت من قال إننا سنتصل بخدمة أعطال الطرق، أنا كنت مؤدباً بصورة طبيعية فقط، أنت كتبت أرقام السيارات، فضولي جداً".

– "من تفترض أنهما كانا؟ كانا يبدوان كأنهما خارجان من مسرحية".

”عجوزان مسكينان، كانا ذاهبين لحضور زفاف“، شعر روري بالتشنج بسبب رقة قلبه، ”كان الكلب لطيفاً“.

”لا يمكنك أن تحكم على الناس من كلابهم“، قال مونغو بعدائية، ”الهررة، أمر آخر“.

”لن أدعوك إلى زفافي...“، قال روري بحقد، وهو يلف رقبته، ”على... على هيبي“.

امتنع مونغو عن ضرب روري خوفاً من احتمال التسبب في حادث آخر وتأخير آخر.

سارت إيلين روتر بعيداً. كانت تخشى أن يفقد كريستوفر هدوء أعصابه. جربت ألا تستمع لصوت تمزق المعدن خلفها، بينما يسحب صاحب الشاحنة السيارات ليبعدهما عن بعضهما بضعاً، كل ما قاله، عندما وصل مع الميكانيكي وعربة شاحنة مساعدة: ''يجب إنهاء هذا قبل أن يحين وقت حلب الأبقار''. وبدأ الميكانيكي العمل فوراً. ضاق حذاؤها وأزعج قدميها، وكانت تشعر بالإحراج لأنها تظهر سخيفة في هذا المحيط، وكريستوفر بدا مهرجاً عجوزاً. كانت سعيدة بصحبة الكلب، ''لقد عرفتنا''، قالت إيلين للكلب، ''تلك كانت الفرصة الوحيدة التي سنحصل عليها، أضعناها''. رفض كريستوفر منذ ثلاثة عشر عاماً البحث عن هيبي. كانت هيبي لثلاثة عشر عاماً شيئاً محرماً. ''بدت جميلة''، قالت إيلين للكلب، ''أتساءل كيف هو ابنها؟''، كانت تتحدث إلى نفسها في هذه الأيام، أصبح كريستوفر مثلها أصمَّ، ''لم يسمع الشيء المتوحش الذي أطلق بوقه خلفنا، ليس عليه أن يقود''، سار الكلب قربها مستأنساً، ''إنها مختلفة جداً عن الفتيات الأخريات''، بكت إيلين، ''كانت دوماً مختلفة''، نظر الكلب إلى الأعلى، يمكن للفرد أن يسأل هل كانت الشائعات التي سمعها صحيحة، شاهدتها بيتيا في ويمبلدون برفقة رجل، وشاهدها ماركوس في مطعم أيضاً مع رجل، وعادت بيتيا لتشاهدها على جسر الفرسان، ثم في المسرح مع رجل قال روبرت إنه يعرفه جيداً، كما لمحها ديليان في الريف الغربي مع شاب أسود كبير جداً على أن يكون طفلها، هل يثبت ذلك شيء؟ قد يلتقي الشخص ناساً من ذوي البشرة السوداء، يحبهم أو لا، لقد أحب كريستوفر الشاب الجريء الذي ركب كمائن السرقة الشيطانية، أي من هذه المشاهدات لم تغير قناعة كريستوفر في أن هيبي تعيش في بريكستون[34] في مجتمع السود. ''على الأقل، نحن نعلم أنها على قيد الحياة''، قالت إيلين للكلب، ''كانت ترتدي ملابس جيدة، تقود سيارة لائقة، ربما هي بخير، ربما تكنّ لنا قليلاً من الاعتراف بالجميل''، قالت إيلين بمرارة، كانت قبعتها تضغط جبينها، فحملتها بيدها، ''لقد كذبت، خدعت، خانت، ذهبت في طريقها''، تلعثمت إيلين، ''هل كان ذلك سيئاً جداً؟''، سألت الكلب، ''ربما أنا لم أفعل شيئاً لمساعدتها''، عاودها الإحساس الذي كان يراودها في ساعات الليل الحزينة: شك متردد يساورها. نظرت إلى القبعة في يدها، ''كنت متأكدة أنها لم تفكر كثيراً في هذا''، قالت إيلين للكلب، ورمت بكل قوتها القبعة باتجاه السياج. طارت القبعة في هواء الصيف الخفيف فوق السياج المنخفض. وبفعل ثقل حبات الكرز، سقطت، صمم الكلب بنباح سعيد على استرجاع القبعة.

34 بريكستون هو حي جنوب لندن كانت تسكنه بالأساس جالية سوداء أصولها من منطقة الكاريبي، وكان معروفاً بسوء السمعة قبل أن يتحول في السنوات الأخيرة ليصبح مليئاً بالحانات والمطاعم الجميلة.

''ماذا تفعلين؟''، قال كريستوفر الذي جاء يقود سيارة الروفر، ''ستعلمينه عادات سيئة، اصعدي، اصعدي''، قال بغضب وهو يفتح باب السيارة، ''ذاك الشاب يملك متجر قبعات في ساليسبري، كان من الأفضل أن تجربي بضاعته''، قال ساخراً.

صعدت إيلين قرب زوجها، ''ربما كان عليك أن تخبرها عن اسم الكلب''، قالت بصوت عالٍ حتى يتمكن من سماعها، ''لا أن تناديه ليبتعد''. قاد كريستوفر إلى الأمام بقوة مسبباً ارتجاج السيارة ما أدى إلى انزلاق الكلب عن المقعد الخلفي إلى أرض السيارة، ''انتبه، سنقع في حادث آخر''.

''اخرسي، يا امرأة!''، صاح كريستوفر بصوته العجوز المتصدع، ''اخرسي!''، بدأت إيلين بالبكاء، وغمرت الدموع خديها الغائرين، ''لو أنك أخبرتها باسمه...''.

''اخرسي!''، صاح زوجها.

توقفت إيلين عن البكاء. ومن مكان غير واضح في الذاكرة، عادت إليها ذكرى قديمة جداً، من كان ذاك الرجل الذي خانت كريستوفر معه، في تلك المناسبة المبهجة المريبة. كان صديقاً لتلك الفتاة لويزا، ماذا يدعى الآن؟ ينسى الشخص الأسماء. لقد كان صغيراً لكن جذاباً جداً؛ لقد جعلها تضحك. فتشت إيلين عقلها بحثاً عن اسمه، وأدركت سعيدة بالمفاجأة أنها لم تعد تشعر بالذنب، ''لم تكن تنوي أبداً الاتصال بأعطال الطرق من أجلنا''، شعرت إيلين روتر بإعجاب عابر تجاه حفيدتها، ''كان عليك أن تدعها تربت على الكلب''، نخست زوجها، ''انظر إلى الأمام، ستسقطنا في قناة الري''.

– ''اخرسي!''

– ''ثم لو أن هذين الشابين نسيانا أيضاً، فإن خدمة أعطال الطرق يمكنهم أن يخرجونا أيضاً''.

– ''اخرسي!''.

– ''كان عليك أن تدعها تلمسه، تخبرها باسمه...''.

– ''يا الله!''.

لقد كان ابن عرس صغير مبهج. أرجعت إيلين ظهرها إلى الخلف وهي تتذكر الاسم، برنارد كويجلي. كان ذلك هو. تساءلت هل لا يزال على قيد الحياة. نظرت إلى هيئة زوجها: الوسامة ليست كل شيء، مالت إلى الخلف في مقعدها وشدت حزام الأمان.

اجتمعوا في منزل إيمي ليسألوا جيلز، هل أرسل له سيلاس رسالة؟ لا، هل قال سيلاس أي شيء قبل أن يغادر لنفترض أنه كان قلقاً؟ لا، هل سيلاس...

"انظري، ماما، أنا جائع، هل يمكنني أن أتناول بعض الشاي؟"، شعر جيلز بالاضطهاد وهو يتعرض لوابلٍ من الأسئلة، هل عليه أن يحمي سيلاس؟ هل كان هناك شيء ما لا يريده سيلاس أن يقوله؟

"سأعد للصبي بعض الشاي"، شغلت إيمي نفسها بإعداد وجبة محاولة بصعوبة ألا تبدو قلقة. شعرت بالمرض. كانت تشعر بالتعاسة منذ صباح الفيضان، ولم يكن هناك وقت لذلك الآن. خافت أن تبقى وحيدة، وقد صارت بخير عندما ظهر تيري، هدأ الألم عندما تناولت دواءها.

"كان متلهفاً للذهاب، بدا لي جيداً"، ملأ جيلز فمه بالخبز والزبدة مع الكثير من المربى. وقفت حنة فوق رأسه على أمل أن تحصل منه على بعض المعلومات، وتيري المتكئ إلى الجدار يراقبها بإعجاب: إيقاع رائع لفتاة مختلفة تماماً عن هيبي، لا يمكن مقارنتهما، فعلاً، أحب الطريقة التي ظهر فيها الحزن في عينيها عندما جاءت هيبي المسكينة. كانت تبدو حزينة حزناً مشوباً بالقلق.

"أنت كنت معه في اليوم السابق لذهابه، هل حدث أي شيء؟"، قالت حنة وهي تقف فوق رأس ابنها.

"تبللنا"، قال جيلز وهو يمضغ متذكراً حقل اللفت وكيف ضربه سيلاس ما تسبب في سقوطه إلى الخلف في الطين، وتبلله أكثر. لا يمكنه أن يخبرها بذلك، ليس أمام هذا الحشد." لا، ماما".

– "هل تشاجرتما؟".

"لا"، هز جيلز رأسه. كان مفهومه عن الشجار يتمثل في تطاير الصحون كما كانت أمه تقذفها على أبيه متذكراً كيف كان يختبئ تحت الموائد وخلف الكراسي حتى تنهي العاصفة نفسها.

– "لا شجار؟ متأكد؟".

تذكر جيلز سيلاس في آخر صورة له وهو يلوح له عبر الشارع، "لقد دعاني بقة فضلات"، لن يتسبب إخبارهم بذلك في أي أذية.

"كنتما تتشاجران؟"، قالت حنة باندفاع.

"لقد كانت مزحة"، تناول جيلز قطعة كعك، "كان يضحك عندما رأيته آخر مرة".

''لا علاقة لكل هذا بجزر سيلي''، قال تيري وهو يحاول أن يعود بالحديث إلى ما هو مهم.

''أنا ذاهبة لأجرب الاتصال مرة ثانية''، خرجت هيبي، ''ربما تكون عادت الآن''. بينما كانت تخرج من المنزل، التقت بجورج سكوب يبحث عن حنة.

''هل هناك أحد ما في المنزل؟''، نادى، ''مرحباً، إيمي''، دخل دون أن ينتظر دعوة.

''مرحباً، سيد سكوب''، قالت إيمي. لم تكن ترغب بمناداته جورج، ''اجلس، هل ترغب في فنجان من الشاي؟''.

''شكراً لك، أودّ ذلك، ظننت أنك قد تكونين هنا''، خاطب جورج حنة التي أجابت دون لباقتها المعتادة: ''نعم''.

''ابن هيبي سيلاس مفقود''، نظر تيري إلى جورج من الأعلى إلى الأسفل؛ إذاً، هذا هو جورج، ''أنا تيري''، مد يده وهو يبتسم. هز جورج يده مصافحاً، وهو يلاحظ أسنان تيري الجميلة، المنتظمة، الحالة العامة لدى ذوي البشرة السوداء.

''هل أخبرتم الشرطة؟''، جال جورج بنظره في الغرفة. لم يكن قد دخل منزل إيمي من قبل، لاحظ وجود بعض العلامات على الفيضان. لا بد أن حنة بالغت في وصف الأضرار، كان ذلك خطة لجعله يهتم بالأمر، فكر.

''من غير المحتمل أن تهتم الشرطة للأمر''، قالت حنة.

''دعونا نسمع الأخبار المحلية''، أدار جورج تلفاز إيمي دون إذنها، ''ربما نسمع شيئاً في الأخبار''. جلس مقابل المجموعة. حبست إيمي أنفاسها. تأكد جورج من إحساس كان قد شعر به قبلاً، وهو أنه غير مهتم في أن يكون الأب البديل لجيلز، قال وهو ينظر إلى المذيع: ''أنا أعرف طبيب الأسنان الذي يذهب إليه هذا الرجل... لديه عيادة في شارع ويمبول''، راقبت إيمي جورج مقدرة مساوئه. ابتسم تيري ابتسامة عريضة.

انتهت الأخبار العالمية، وتولى الأمر مذيع الأخبار المحلية، ''الآن، هذا مريض عندي، لديه مشكلة تسوس مزعجة، لقد حشوت له ثلاثة أسنان الأسبوع الماضي''، قال جورج، ''أنقذت ضرساً''.

التقت عينا تيري بعيني حنة، ابتسمت. قالت إيمي، ''حسناً''، ثم بأسلوب غير متحفظ، ''حسناً''، ببرود.

''إذا كنت محقاً، وسيلاس هو من أرسل الرسالة، فليس للشرطة عندها...''، قال تيري.

''لا، لا، هيبي تلقت رسالة، لا نعلم هل كان سيلاس هو من أرسلها''، قالت حنة.

"يا إلهي! أتمنى لو أستطيع الحصول عليه"، مال جورج إلى الأمام ليحدق في رجل كان يجري مقابلة على زورق صيد، "يمكن أن يفعل الإنسان الكثير مع ذاك الشاب".

انفجرت حنة بالضحك، "أنت لا تشاهد التلفاز، أنت تشاهد أسنان من يظهرون عليه، ماذا كان الرجل يقول، جورج، أراهن أنك لم تسمعه". علا صوت ضحكتها وهي تنظر في عيني تيري، وتحول نظرها إلى إيمي التي كبتت ابتسامتها. لا يجب أن يسخر الشخص من الزوار حتى عندما يكونوا هم من دعوا أنفسهم لدخول منزل أحدهم. بدا جورج مرتبكاً. بدأ يشعر بالشك جدياً تجاه أي مستقبل لعلاقته مع حنة، ولو أنها كانت رائعة في السرير، من كان هذا التيري الأسود؟ إنه صغير نوعاً ما على حنة، وملون، أسود، لنكن صريحين. صديق لجيلز؟ ليس مناسباً تماماً. كان هناك أشياء أخرى في الزواج إلى جانب السرير. استدار لينظر إلى حنة، لا، اللعنة، كان واضحاً من الطريقة التي تنظر بها إلى تيري، أن هناك شيئاً ما يحدث بينهما، عاهرة مخادعة، كيف يمكنها ذلك؟

فكر جيلز وهو يقدم فنجانه ليعاد ملؤه أن لا شخص من الحاضرين كان مركزاً اهتمامه على سيلاس: جورج منزعج من تيري، أمي تزعج جورج، تيري سعيد بنفسه لسبب ما، أوه! يا للمفاجأة! أمي تنتقل إلى تيري، ذاك هو الأمر، وإيمي تراقب فقط. لم ينتبهوا عندما خرج جيلز وتوجه إلى منزل هيبي، كانت تجلس قرب الهاتف، رفعت نظرها إليه، "جيلز".

"هل هناك خبر؟"، جلس قربها.

– "لا بد أنها في الخارج، أنا أتصل كل خمس دقائق، أعرف ماذا تفعل، إنها تعمل في الحديقة، سوف تدخل عندما تتعب، يجب أن أكون صبورة".

دخلت تريب من الباب، وقفزت إلى حضن هيبي. ضغطت رأسها تحت ذقن هيبي مع ارتعاشات صغيرة وهي تصدر أصواتاً ناعمة.

"لم ترد التحدث إليّ عندما عدت إلى البيت"، مسدت هيبي الهرة.

"تصبح الهررة عدوانية، كان لدينا واحدة في أميركا. غير متسامحة أبداً"، نظر جيلز إلى الساعة المعلقة على الجدار، "متى تنتهي الدقائق الخمس؟".

نظرت هيبي إلى ساعة يدها، "تقريباً الآن"، اتصلت، "جربي، جربي، وجربي مرة أخرى"، أصغت إلى الهاتف يرن في صالة منزل لويزا في ويلتشاير، "لا تزال في الخارج"، وضعت السماعة، "أوه! جيلز"، بدأت بالبكاء، "ما الذي يمكن أن يكون قد حدث له؟".

"هل علي أن أحضر أمي؟"، كان جيلز على وشك البكاء.

– ''لا، علي أن أستمر في المحاولة فقط، حتى تجيبني لويزا، ثم عندما تخبرني من الذي أرسل الرسالة، ربما يكون عندي فكرة عما جرى''.

أحضر جيلز لفةً من المناديل الورقية من المطبخ، وأعطى شريطاً منها لهيبي. مسحت هيبي عينيها وهي تشعر بالود تجاه جيلز لتصرفه، وتفكر، لا عجب أن سيلاس يجد فيه صديقاً. تنفس جيلز بقوة ليمنع أنفه من أن يسيل، فيما تضاربت طيور النورس في الخارج فوق سطوح المنازل وعلا صراخها.

''علي أن أتمالك نفسي''، قالت، وهي تتذكر عندما كانت طفلة صغيرة، سمعت جدها يقول لرجل فقد ساقيه أن عليه أن يحسن أداءه في العمل، ''ذلك صعب تماماً''، قالت وهي تأخذ قطعة أخرى من المناديل الورقية التي يحملها جيلز، ''أشعر أنني على وشك الجنون''.

''أوه! لا''، قال جيلز وهو يحبس أنفاسه.

– ''هل تظن أنه ميت؟''.

''بالطبع لا''، قال جيلز بقوة، ''ربما يكون في أي مكان، ليس لديه أي فكرة عن الوقت''.

– ''أنت تعرف أن ذلك ليس صحيحاً''.

''ما رأيك في أمي وتيري؟''، قال محاولاً صرف انتباهها قليلاً.

– ''ماذا تظن؟ أنت المهم''.

''أنا سعيد''، ابتسم جيلز، وهو يفكر، لا يمكن لأحد أن يقول أن تيري ممل، ''جربي ذاك الرقم مجدداً''، قال مقترحاً، ''ليس عليّ أن أصاب بالهستيريا''، بدأت تتصل.

راقبت لويزا وهي تجلس في حديقتها كلا من مونغو وروري يمدان رأسيهما بين ورودها. كانت مندهشة من زيارتهما وإظهارهما العناية والمودة وهي تستمتع بأشعة الشمس في الوقت المتأخر من بعد الظهر مراهنة نفسها على المدة التي سيبقاها كل منهما.

وصلا بسيارة روري. من الواضح أنهما كانا محبطين لأنهما لم يجدا هيبي، ولأنها مرتبطة بعهد السرية مع برنارد. كانت لويزا غير قادرة أن تخبرهما أن هيبي أسرعت لتعتني بطفلها. لا مونغو، ولا روري، يعرفان أن لديها طفلاً. لقد صار واضحاً أن كليهما ظن أن هيبي غادرت لتجنبهما، أو أن لويزا، رغم إنكارها، عندما سألها روري، كانت تعرف أين تعيش هيبي، ويمكن أن تكون مخادعة حتى إن أعطتهما العنوان، بما أنها عرفته مصادفة من برنارد. ستقول لويزا فقط: ''لديها عنوان للبريد في لندن، لكن هي من يتصل عندما لا يكون لديها ارتباطات أخرى، وترغب في المجيء. يمكنني أن أعطيكما العنوان''. ومن الطريقة التي يترددان ويتملصان بها من الأمر،

ستعرف لويزا أن مونغو، على الأقل، يعرف العنوان ويعرف أنه كان نهاية الأمر. وبما أنهما لم يبديا أي ميل إلى المغادرة، دفعتهما لويزا إلى العمل في الحديقة. جزّ روري بعض العشب بشكل غير جيد، وربط مونغو بعض الأعشاب ذات الأشواك من أجل الماشية. راقبتهما لويزا وهما يستخدمان مقص الأعشاب، فيما كانت مستلقية تمد ساقيها في استرخاء، وكلابها مسترخية حولها. استمتعت لويزا برؤيتهما ينفقان ما بقيا من يومهما بعدما تلاشت أمنياتهما غير راغبين في الاستسلام، يراقبان بعضهما بعضاً بفضول. أعدّت في ذهنها ما ستخبره لبرنارد عندما يتصل في المرة المقبلة، ''لم يتجرأ أحدهما أن يترك الآخر يغيب عن نظره''، ستقول، على أمل أن يعجبه ذلك.

أتى روري وجلس قربها فوق العشب، ''أظن أن على مونغو أن يذهب للقاء أليسون''، همس روري، ''ماذا يمكن لهيبي أن ترى فيه؟ إنه كبير جداً جداً عليها، هو تقريباً في الخمسين''.

– ''خمس وأربعون، وسيم، غني''، همست لويزا.

قال روري بصوت خافت زهو يراقب مونغو: ''هو يقول إنها... حسناً هي تقول أيضاً، لكنني لا أستطيع... ليس ممكناً، أنها...''.

''ما الذي هو غير ممكن؟''، شاب مسكين، بدا مفجوعاً، شعرت لويزا بالشفقة على روري.

''ما يقوله... ما تقوله هي... أنها عاهرة''، همس روري.

رفعت لويزا حاجبيها، ''أنا أعرفها فقط طاهية''، قالت بلطف، ''هذا ما تفعله هنا''. همست لويزا، وهي تتذكر أن هيبي فعلت شيئاً آخر مع روري غير الطهو.

– ''هل من الممكن أن يكون هذا...؟''.

– ''صحيحاً؟''.

– ''نعم''.

– ''ماذا أخبرتك هي؟''.

– ''قالت إنها كذلك، لكن أنا... لا أستطيع...''.

''من الأفضل لك أن تصدق ذلك''، رفعت لويزا رأسها وهي ترى مونغو يقترب، ''ماذا ستفعل بخصوص أليسون؟''، سألته.

– ''سأتصل، قلت إني سألاقيها في مطار هيثرو، لكنها ربما تكون وصلت الآن. كل هذا جعلني أنسى''.

''كل هذا هو هيبي؟''، حدقت لويزا فيه بإمعان.

''كل هذا هو هيبي، نعم''، صاح مونغو بغضب، ''أوه! اللعنة''.

– ”المزاج، المزا...“.

”اخرس، أنت مجرد حمار“، صاح مونغو.

بدأت كلاب لويزا بالنباح، بدأ النباح كما العادة من روفوس، تلاه نباح الكلاب الأصغر، صاحت لويزا، ”هدوء!“. غرق الكلاب والرجال في الصمت. عندما هدأت الجلبة، قالت لويزا: ”أظن، أعزائي، أن من الأفضل لكما أن تستسلما... هيبي ذهبت، وأنت مونغو، عليك أن ترتب أمورك مع أليسون“.

”أوه، يا إلهي!“، كان تردد مونغو واضحاً.

– ”هيا، مونغو، فكر في الأمر، لديك أولاد لتفكر فيهما، توقف عن مطاردة الخيال“.

”هيبي ليست خيالاً“، اعترض مونغو دون تفكير.

– ”هيا، اتصل، خذ روري معك كدعم معنوي“.

”معاذ الله!“، ومشى متثاقلاً نحو المنزل وهو يشعر بالغضب من هذا الاقتراح الطائش.

طلبت هيبي رقم لويزا من جديد، وأصغت إلى صوت الهاتف، ”ربما هو خارج الخدمة“، قال جيلز مفترضاً، ”اسألي عامل المقسم“. اختبر العامل الرقم وقال: ”الخط فعال، هل تريدين مني أن أتدخل؟ هل الأمر طارئ؟“.

”سوف أنتظر“، شعرت باليأس.

هي تعرف لويزا جيداً، إنها لا تهتم لفاتورة هاتفها، تثرثر لساعات مع لوسي داف، ومع ماغي كوك – بوفام التي صرحت أنها لا تحبها، أو مع السيدات العجائز الأخريات اللاتي تشير إليهن بالصديقات. عندما رن جرس منزل هيبي، كان جيلز هو من فتح الباب لجيم هوكستابل، لكن حنة وصلت راكضة ودفعته جانباً، ”أسرعي، هيبي، تعالي، الخالة إيمي انهارت، أظنه قلبها، تيري يتصل بالطبيب“.

راقب جيم المرأتين تسرعان إلى منزل إيمي ترايماين. وفي الحال، وصلت سيارة الطبيب. أسرع الطبيب الذي التقاه جورج إلى الداخل، ووقف الصبي الذي فتح باب منزل هيبي خارجاً على الرصيف ينظر بتردد. يسكن القلق هذا الشارع القبيح. فكر جيم وهو يسير صاعداً إلى أن وصل إلى المقعد الذي وضع في ذكرى الوالدين العجوزين الذين كانا يتعبان في صعود التل في أحد الأوقات في الماضي. جلس متكئاً على الكلمات الداعرة المحفورة عليه، تمنى لو كان فيذرز معه، انتظر وهو يراقب المنازل.

خرج الطبيب بعد عشرين دقيقة، وتوقف ليقول كلمة أخيرة للفتاة ذات العيون الخضراء قبل أن يستقل سيارته ويبتعد. خرج جورج بعده مباشرة وانطلق بعيداً بسيارته. أدى الصبي على الرصيف حركة بإصبعيه باتجاه جورج الذي لم ينظر وراءه. كان جيم ما زال ينتظر عندما وصل كلب أسود وملون بالأحمر مع ذيل مجعد قادماً بنشاط من أعلى التل. تشمم المقعد، وتوقف، رفع ساقه، التقت عيناه بعيني جيم، نظر إليه بريبة.

''مرحبا''، رفع جيم يده. أخفض الكلب أذنيه، وسمح لجيم أن يربت عليه، نظر إلى الأعلى بتواطؤ، ثم تابع طريقه بخطوات مرحة. لو كان فيذرز هنا، كان سيبدأ عراكاً من الفور. فكر جيم وهو يراقب الشارع منتبهاً إلى قبحه الملحوظ، مستغلاً ما رآه ليتأكد من رأيه في محاولة للتأكد مما فكر فيه قبلاً. هل عليه أن ينزل الأمتار القليلة التي تفصله عن منزل إيمي، هل عليه أن يدخل منزلها، ويقدم نفسه لهيبي؟ هل يريد ذلك؟ ماذا سيقول؟ هل ستعرفه، أم هل ستظنه مجنوناً؟

''اسمها هيبي''، قال بصوت عالٍ في الشارع المريع، لكن هذا لم يجعل الوضع أفضل. هل يمكنه أن يقول: ''أنا الرجل الذي التقيت به في لوكا، لقد مارست الحب معك''. لقد كان قادراً على الحديث إليها في ضوء الشموع في لوكا. جرب أن يتذكر ما الذي تحدثا عنه. لم يقولا الكثير آنذاك. كان هناك الكثير جداً من الضجيج، الكثير من الأحداث، ارتجف. قطعت ألواح المقعد القاسي له فخذيه، لنفترض أنها ليست الفتاة، لنفترض أنه كان مخطئاً، بعد كل شيء؟ هي لم تحيا مع حلم لـ... كم من الوقت؟ ثلاثة عشر عاماً.

''اللعنة، اللعنة، ماذا علي أن أفعل؟''، تمتم جيم. كان شكه يعارض الحقيقة. أراد أن يبقي بحثه دون حل. كان قلقاً. لقد عاش مع بحثه طويلاً وهو يخشى أن ينتهي. لقد كان جزءاً من حياته ونهايته تمثل خطراً سيئاً.

خرجت الفتاة الشقراء من منزل إيمي ترايماين وإلى جانبها شاب أسود نحيل يمسك يدها، ثم هيبي. انضم الصبي الذي كان ينتظر على الرصيف إلى المجموعة، وساروا باتجاه منزل حنة. وقف جيم يشاهد الكلب الأسود والأحمر عائداً. سار جيم نحوه فالتقيا أمام منزل إيمي ترايماين. هل ستكون قادرة على المساعدة؟ ''أتمنى أن أعرف ماذا أفعل؟''، قال جيم للكلب الذي بدا واثقاً من نفسه. هز الكلب ذيله المجعد ورفع أذنيه. جرب جيم الباب باندفاع قائلاً في نفسه إنها دعته إلى العودة. فتح الباب ودخل. وقف مصغياً في الرواق الضيق والكلب إلى جانبه. سار ببطء إلى المطبخ الخلفي حيث تحدثا منذ زمن ليس طويلاً جداً. كان هناك بقايا شاي على المائدة، وكانت الكراسي مسحوبة إلى الخلف. صعد جيم الدرج يتبعه الكلب ودخل غرفة نوم إيمي.

كانت تستلقي ممددة على السرير. عيناها معلقتان بنظرة ثابتة، ووجهها شديد الشحوب. اقترب الكلب من السرير رافعاً أنفه بفضول. انتبه جيم إلى وجود ثقالات الورق على عتبة النافذة تبرق بوميض جميل وهي تعكس أشعة شمس ما بعد الظهر المشرقة بشكل مبهج. كان مليئاً بالإحراج، رسم إشارة الصليب، ''إنها مجرد حركة''، قال للكلب لمقاومة الإحساس بالذعر والمفاجأة. ''أنا أرسم شارة الصليب عندما أرى غراباً''، تذكر امرأة أقام معها علاقة ذات مرة وسخرت منه في النورماندي، حيث كان هناك عدة غربان. أصدر الكلب ريحاً، فوصلت إلى أنف جيم رائحة مقززة جداً، ''هيا''، قال للكلب، ''ليس لدينا ما نفعله هنا، إنها ميتة''، نزل الدرج يتبعه الكلب وخرج إلى الشارع دون أن يلتفت وراءه.

نزل جيم الشارع الآجري الأحمر الداكن إلى سيارته. كان يشعر بالدوار. لم يتوقف حتى وصل إلى منزل برنارد ورأى سيلاس. عندئذ فقط، انتبه إلى أنه لم ينجز المهممة التي ذهب من أجلها.

عندما وصلت أليسون إلى مطار هيثرو، اتصلت بحماتها، التي حيتها قائلة: ''أتمنى أن تكوني قضيتي عطلة ممتعة، عدت أسرع مما توقعت''، كأنه لم تكن هناك مشكلة.

فهمت أليسون أن هربها كان أمراً يجب تجاهله، ''أتساءل هل مونغو لديك، فهو ليس في المنزل''، قالت بطريقتها العادية غير المبالية.

– ''إنه يزور لويزا، كنت أتحدث إليها قبل قليل، يبدو أنه متفق مع روري، لم أكن أتخيل أن يكون لديهما أي شيء مشترك، هل تخيلت ذلك؟''.

''لا، لم أكن أتخيل ذلك أيضاً''، قالت أليسون باعتدال، لأن موقعها لم يكن يسمح لها ببدء هجوم، ''ماذا يفعل مونغو هناك؟''.

''صيد؟''، قالت لوسي وهي تفكر في صيد هيبي.

– ''أشك في ذلك، كان من الأفضل له أن يصطاد في المنزل''.

''مهملاً عمله''، قالت لوسي بسخرية.

''إنه على وشك أن يأخذ عطلة، هذا يذكرني أن علينا أن نحضر الصبيين قريباً، إنهما في سيلي''، هذا سيعطي انطباعاً أننا أبوان متحدان، فكرت أليسون.

''لقد تعرضنا لطقس مريع''، لم تنخدع لوسي بأسلوب أليسون.

– ''علي أن أتصل بجنيفر...''.

''لماذا لا تنضمين إلى مونغو في منزل لويزا''، اقترحت لوسي، ''سيكون وضعاً طبيعياً''. كان طبيعياً، أدركت أليسون، بقدر ما هو طبيعي أن تغامر حماتها بهذا الاقتراح في هذا الوضع المعقد الذي عاشته أخيراً. ''خذي سيارة أجرة وفاجئي الشاب العزيز، سيوفر هذا عليه القيادة إلى المطار''.

''قد أفعل ذلك''، قالت أليسون بامتنان، ''يجب ألا يستغرق مني الوصول إلى هناك وقتاً طويلاً''.

خرجت لوسي داف إلى شرفتها المبللة بالمطر الأخير. أحضرت الآنسة تومسون أدوات الشاي وجلست قربها، ''هل سأصبح أماً؟''، سألت بصوتها المنخفض.

''لا''، قالت لوسي، ''لا، شكراً لك''. نظرت لوسي إلى الآنسة تومسون بكراهية مخفية. أولاً ''فناء'' والآن، ''هل سأصبح أماً؟''. على أليسون أن تعمل على إيجاد بديل عن الآنسة تومسون. صبت الشاي. ''عادت السيدة مونغو من الولايات المتحدة الأميركية''، قالت منتبهة جيداً أن الآنسة

تومسون كانت تخاطب أليسون على الدوام بـ"أليسون"، وستشعر بالإهانة لاستخدام تعبير السيدة مونغو، "ستنضم السيدة مونغو إلى السيد مونغو في منزل لويزا فوكس في ويلتشاير، أعتقد أن السيدة فوكس لديها السيدة الطاهية في هذا الوقت، أوه، هل عليك أن تذهبي؟". راقبت لوسي الآنسة تومسون وهي تعود إلى المنزل لتكتب رسالة استقالة (أعلم عندما لا أكون مرغوبة) شربت لوسي الشاي وهي تفكر في الحياة دون الآنسة تومسون، وبفظاعة وصول أليسون إلى منزل لويزا، ومفاجأتها عندما ستجد أن الشيء المشترك بين مونغو وروري هو هيبي، فكرت لوسي باستمتاع، "كم أشتاق إليك"، همست لشبح زوجها المتوفّى الذي سيكون مستمتعاً أيضاً.

نهضت بقوة وذهبت لتعتذر من الآنسة تومسون، وإلى من تصرفت معها بأسلوب مهين، وتوقفت في الطريق لتنظر إلى صورة زوجها. يشبهه مونغو كثيراً، إلا في ثقته بنفسه، كانت لديه نظرية، تذكرت وهي تنظر إلى الوجه الطويل الميت، وحدهم الأصدقاء غير المخلصين يجدون أنفسهم في مآزق مع النساء. إذا كان ما تقوله لويزا صحيحاً، فلا بد أن مونغو غير مخلص، ومما تقوله أيضاً، فإن روري كذلك. في طريقها أن تكون لطيفة مع الآنسة تومسون، قررت لوسي ألا تخبر لويزا بقرب وصول أليسون إلى منزلها. سيعطي هذا فرصة كبيرة لأليسون كي تجد مونغو أحمق فوق هيبي. لم تكن لوسي تعلم أنه لأسباب مكافئة في ريبتها، لم تخبرها صديقتها لويزا أن هيبي غادرت في الصباح.

أحاطت الكلاب التي تنبح بأليسون وهي تدفع لسيارة الأجرة أمام منزل لويزا. ابتعد السائق وترك أليسون لهجوم روفوس الذي قفز عالياً، وخدش ساقيها، على أمل أن يتمكن من لعق وجهها. حاولت أليسون أن تشتت انتباه روفوس بالتلويح بحقيبتها والصياح: "أسفل، أسفل، أسفل"، بصوت ارتفع أعلى وأعلى فيما يزداد رعبها، إنه مثل هذه الكلاب، سائق سيارة الأجرة، لأنه تركها وحيدة تتحمل هذا.

خرج مونغو من المنزل واندفع مسرعاً نحو أليسون، ركل روفوس بقدمه، اختطف أليسون من خصرها وقبّلها. لفت ذراعيها حول رقبته وقبّلته هي الأخرى، ثم مالت إلى الخلف ممسكة ذراعيه لتنظر إلى وجهه بدهشة، "أوه، مونغو"، ضاع منها الخطاب الذي حضرته بعناية، "عزيزي"، قالت أليسون، "عزيزي".

"عزيزتي"، قال مونغو وهو يقبلها مرة ثانية، "كم رائع أنك عدت"، كان مذهولاً لأنه وجد نفسه يتصرف بسعادة لرؤيتها، كان مندهشاً، "يا للسموات! أنت تبدين جميلة"، نظر إلى زوجته بسعادة.

كان شعرها الذي بلون المربى الفاتح يعكس ضوء شمس ما بعد الظهيرة، وعيناها الزرقاوان كانتا رائعتين، ماذا فعلت لرموشها؟

– "هل قضيت وقتاً ممتعاً؟".

"لا، لم أفعل، أوه! مونغو، عزيزي"، أمسكت ذراعيه.

– "أنت تبدين مثل ملاك بوتيشيللي[35]، لماذا لم ألحظ ذلك من قبل أبداً؟".

[35] إشارة إلى لوحة للفنان ساندرو بوتيشللي صوّر فيها ولادة الآلهة فينوس.

قالت أليسون: "أنت نسيت كيف أبدو، دعني أنظر إليك"، نظرت إليه معجبة بشعره الكثيف، وعينيه الداكنتين. بدت خطوط وجهه واضحة منذ نظرت إليه آخر مرة، "لقد غيرت تسريحتي في سانت باربرا".

"جميلة"، هل ستعترف أنها صبغت رموشها؟ تساءل.

"وعالجت رموشي أيضاً"، لم تتغير نظرتها وهي تعترف.

"عالجت"، تمتم مونغو، مبتسماً، "عالجت".

"علينا أن نلتقي الصبيين عندما يعودان من الجزر"، نظرت أليسون إلى مونغو، "تحدثت إلى جنيفر من مطار هيثرو، سيعودون جميعاً يوم الخميس لأن الطقس كان سيئاً جداً".

"بعد غد"، تفحص مونغو وجهها، ماذا غيرت أيضاً؟

– "اتصلت بأمك، هي أخبرتني أنك هنا".

"جيد"، بدأ مونغو بالضحك.

"لماذا تضحك؟"، ضحكت معه، لقد بدت أجمل وهي تضحك.

– "يمكننا أن نؤجل كل ما حضرناه من أحاديث. تعالي لرؤية لويزا، روري هنا، تتذكرينه؟ روري غرانت، قريبي".

"بالطبع، أذكره"، كانا يتحركان إلى داخل المنزل ومونغو يحمل حقائبها، "ماذا حضرت من حديث لتقوله؟"، سألته بشجاعة.

– "يمكننا أن نتناقش أحاديثنا ونحن في طريقنا للقاء الأولاد، إذا كان علينا ملاقاتهم. هذا ممل نوعاً ما، هل نأخذ روري معنا، إن ذهبنا؟".

"كحكم؟ لم لا"، شعرت أليسون أنها مثل سباح سبح لمسافة بعيدة جداً وبدأ يكافح للعودة باتجاه الشاطئ وهو خائر القوى، ومع قليل من الحظ، ستصل إلى البر وتستعيد أنفاسها (لتستعيد زواجها).

''أليسون، عزيزتي''، ظهرت لويزا من الحديقة ترافقها الكلاب التي كانت تهز ذيولها بود ولم تعد تهدد بالخطر، ''كيف حالك، عزيزتي، ستبقين الليلة هنا، أليس كذلك؟ كنا على وشك أن نتناول الشاي، هذا روري، هل تذكرينه؟ ضع كل شيء على الصينية وخذها إلى الخارج تحت الشجرة، هناك كعك في المطبخ، روري، تركت هيبي كمية منه''.

''هيبي؟''، شعرت أليسون بنفحة تهديد.

– ''الفتاة العزيزة التي تطبخ للوسي. أنت كنت الذكية التي وجدتها. هي تأتي إليّ أيضاً. لسوء الحظ كان عليها أن تغادر اليوم. هيا الآن، روري، اجعل نفسك مفيداً''.

ابتسم روري بتكلف وذهب إلى المطبخ يتبعه صوت لويزا: ''هناك قشدة ديفونشاير من أجل الكعك ومربى الفريز''.

''اشتريتها أنا والعزيزة هيبي من ساليسبري''، قال روري لروفوس، ''كما تعرف، وهي تتأكد من أن تجعل أليسون تعرف أيضاً، عجوزي الجميلة، كل شخص يعلم بعض الأشياء لكن لا أحد يقول كل شيء، ليس بالتفصيل''.

رتب روري الفناجين والصحون فوق الصينية، ووضع الإبريق فوق النار، ووجد الكعك، رمى واحدة لروفوس، ووجد القشدة ومربى الفريز، ''أليسون لن تدع مونغو يذهب''، قال لروفوس الذي سال لعابه من زاوية فمه وهو يتناول الكعك بامتنان، ''ماذا بعد''، قال روري للكلب وهو يعد الشاي. حمل الصينية وخرج إلى الحديقة، ''إذا كنت محقاً فإن هناك شيئاً ما حدث لأليسون جعل مونغو يهتم لأمرها أكثر''.

وضع روري الصينية على منضدة الحديقة قرب لويزا التي نظرت إليه بدهشة. كانت قد لمست السلام غير المعلن بين مونغو وأليسون، وباتت تنتظر بترقب محادثتها التالية مع برنارد. ستصف التطور الفاجئ للصداقة بين مونغو وروري. سوف تفترض أن مونغو، كما أنه أحب هيبي بشدة، فهو متعلق جداً بزوجته أيضاً، وهناك احتمال كبير أن هيبي خسرت زبوناً. بينما هي تصب الشاي وتقدم الفناجين، كانت تقيم مظهر أليسون: شعرها المصفف حديثاً، المكياج، الملابس، أعجبت بجرأة أليسون التي يفترض أنها بعدما عادت من فرارها المريب مذعنة لأمر من حماتها أن تكون مربكة، قلقة، في موقع دفاع، مترددة، لكن أليسون لم تكن أياً من هذا. كانت تتناول الشاي وتصف زيارتها إلى سانتا باربرا لكل من مونغو وروري بحيوية وسعادة. لاحظت لويزا أنها لم تكن تعطي الكثير من التفاصيل عن مضيفيها وهي تصف المنزل، تصميمه، أثاثه، بركة السباحة فيه. حسبت لويزا، وهي تراقب مونغو، كم من المرات اقتربت الأسئلة من الحديث عنهما بعبارات عفوية، لكن أليسون

كانت تضع القشدة والمربى على الكعك، وتحول الحديث إلى مواضيع أقرب إلى المنزل ملتفة على الموضوع بجرأة دون أن تجيب.

– ''هل سنذهب للقاء الصبيين، عزيزي، كما أفترض؟ سيكون لطيفاً أن نلتقي جنيفر وجوليان، وهذا سيوفر على الصبيين تلك الرحلة المملة التي يكرهانها جداً''.

''لم أسمعهما أبداً يعترضان عليها''، رجع مونغو بسرعة إلى المزاج المجادل الذي اعتاده في التعامل مع تسلط أليسون.

''حبي! عليهما أن يبدلا القطار في إكسيتِر، سأكون سعيدة بلقائهما، لم لا تأت معنا روري؟''، قالت وقد ساورها الشك في أن مونغو كان جدياً في اقتراحه اصطحاب روري.

حين التقت عينا روري بعينيها، فهم التوسل الذي ضمّنته نظرتها، لقد كنت حقاً أجمل بكثير مما يذكره، وقال: ''بكل حب''.

''يمكنكم الانطلاق باكراً''، تدخلت لويزا في الحديث، ''تعالي وساعديني لنعد سريراً، أليسون، عليك أن تخلدي للنوم باكراً بعد الرحلة الطويلة التي قطعتها''، نهضت أليسون بسرعة، ''بقي مونغو مع روري في الليلة الماضية''، قالت لويزا وهي تنظر إلى مونغو، ''لن تمانع أن تذهب لقضاء ليلة أخرى مع روري؟ سيوفر هذا علي تعب إعداد سرير آخر''. ودون أن تنتظر رداً، قادت أليسون إلى داخل المنزل وهي تقول لها: ''يمكنك أن تخبريه أي شيء تريدينه عندما تكونين أقل تعباً''.

''شكراً لك''، قالت أليسون وهي تشعر أنها في حلف مع لويزا.

''لماذا تفصلنا عن بعضنا بعضاً؟''، توجه مونغو بالحديث إلى روري وهو غاضب.

''أتخيل أن الفكرة... هي... جمعكما مجدداً''، ضحك روري، ''هما لا تعرفان كيف... كيف...''.

''قضينا الليلة الماضية''، أنهى مونغو الجملة لروري، ''أنا لا أريدك معنا في تلك الرحلة الطويلة إلى كرونول''، قال بجفاء.

''لكنني قادم''، قال روري بعزم غير اعتيادي، ''أنا... أريد أن...''. لم يقل ذلك متذكراً رقم لوحة سيارة هيبي، كانت اللوحة تعود إلى كرونول، ''أريد أن أتجول في بنزانسي، توجد هناك متاجر أثريات جميلة''، أضاف مبرراً.

''إذا كانت لويزا مهتمة بالسرير، سأبقى في فندق''، قال مونغو الذي بات مشككاً بصورة كبيرة، ''هنك مؤامرة من نوع ما بين هاتين المرأتين''.

''إذاً، ابق معي ويمكننا... أن... يمكنـ...''.

''ندعم بعضنا''، أنهى مونغو الجملة بشكل آلي، ''أليسون مليئة بالحيوية''، قال متأملاً، ''مليئة جداً بالحيوية''.

– ''ربما وجدتك... وجدتك... حيوياً عندما كنت... تعود... من... الرابطة''.

''أوه، يا إلهي!''، قال مونغو، ''هل تظن أن أليسون تعرف؟''.

''على الأرجح''، أعطى روري الكعكة الأخيرة لروفوس، ''هل تريد... أن... تريد أن تنام معها الليلة؟''.

''لم أخطط لهذا''، قال مونغو وذهنه شارد.

''يا للعجب!''، بدأ روري يرتب أدوات الشاي فوق الصينية، ''من الأفضل أن تخطط لشيء من هذا النوع. أفضل... العفوي أفضل''، قال موجهاً نصيحة.

كبح مونغو رغبته في ركل روري، وفي ضرب لويزا، وفي اغتصاب أليسون... كبح كل ردود الفعل العفوية. لقد تنزه حتى عن الاتصال بأمه وسبها. هيبي، فكر، لم تظهر أبداً أسوأ ما فيه. شعر مونغو بالسخط عندما عاد إلى منزل روري. نظر إلى ممتلكات روري باشمئزاز. أفقد عقله غياب السوقية من المنزل: القطع الفضية الرفيعة المستوى، الزجاج الجميل، اللوحات التي يحسد عليها، مجموعة الكتب الجيدة... نظام بكامله سيغري هيبي، كان روري يراقبه وهو يتجول متفحصاً.

– ''ما... الخطأ؟''.

''لا شيء''، قال مونغو عابساً، ''تلك هي مشكلتك''.

''أنا أضع روحي الشريرة في القبعات''، قال روري، ''لن تجد أي شيء في المتجر قد يناسب... أليسون، ألق نظرة''، أخذت هيبي القبعة الوحيدة التي تناسب امرأة جميلة، فكر في نفسه، ''لقد صنعت واحدة جيدة للويزا''، أضاف قائلاً.

''لويزا؟''، وقف مونغو في حيرة، راقبه روري، ''لويزا تتلاعب بي''.

''نعم... هي... كذلك''، حاول روري ألا يضحك.

– ''إنها تبقيني بعيداً عن أليسون...''.

– ''نعم..''.

– ''لماذا؟''.

هز روري كتفيه، ''لتدعها ترتاح؟''، قال مقترحاً.

''سأعود''، استدار مونغو وغادر المنزل.

سمع روري صوت سيارة مونغو تنطلق بعيداً. ذهب إلى السرير واستلقى يفكر كيف سيجد سيارة هيبي وهيبي في كرونول وهي بلدة كبيرة نوعاً ما.

دخل مونغو إلى منزل لويزا وهدّأ الكلاب. صعد الدرج. لمح الضوء المتسرب من تحت باب الغرفة الاحتياطية. دخل. كانت أليسون مستلقية فوق السرير وشعرها الذي بلون المربى الفاتح يحيط بوجهها، وعيناها الزرقاوان مصعوقتان برؤيته.

''مونغو''، غردت.

''اصمتي''، كان مونغو يخلع ثيابه. شعر بالتسلط، بالذكورة، بالشبق.

''مونغو!''، قالت مرة ثانية بهمس.

اندس مونغو في السرير الضيق، ''تحركي إلى الأعلى''.

– ''لا أستطيع، سأقع، ماذا تريد؟''.

– ''أن أضاجعك''.

– ''لا تستخدم تلك الكلمة، أنت تعلم أنني لا أستطيع تحمل...''.

''أوه! اصمتي''، قال مونغو، ''دعينا نبدأ بذلك''.

حمل مونغو أليسون وهو يقول: ''نحن لا نفعل ذلك بصورة كافية''، بدأت أليسون الضحك بطريقة لم تضحكها منذ وقت طويل، فقال لها: ''هذا صحيح، حبي، يجب أن يضحك الشخص، الآن سوف أمارس الحب معك''.

كبحت أليسون السؤال الذي أرادت بشدة أن تسأله: ''مع من ضحكت أيضاً؟''، وهمست: ''أنا سعيدة لأنني عدت''.

غرق مونغو في النوم آخذاً مساحة أكبر من حصته العادلة من السرير المفرد. فكرت أليسون وهي تتحمل الوضع غير المريح، حتى الآن، كان الوضع جيد جداً، ربما أستطيع أن أفصله عنها أياً كانت تلك التي يضحك معها. هل يمكن أن تكون تلك الطاهية؟ حاولت أليسون أن تتذكر كيف كان شكل الفتاة.

شعرت أليسون، وهي تجلس بين مونغو وروري في اليوم التالي وهم في طريقهم للقاء الأولاد، بإحساس بالخفة مغاير لطبيعتها. وعندما غامر روري، وهو يشعر بارتفاع معنوياتها، بأن اقترح عليها، ''أخبرينا... عن... أخبرينا عن مضيفيك، هؤلاء... الأصدقاء...''.

''نعم، أخبرينا''، قال مونغو، وهو يقود السيارة، ''ماذا يعمل إيلي وباتسي في بلدهما؟ هيا، أخبرينا''.

''في أي ساعة تصل المروحية؟''، حاولت أليسون أن تراوغ وتتجنب الهجوم.

''أليسون!''، اعترض روري، ''هيا''.

''كيف كان العيش في منزل فيه ثلاثة شركاء؟''، نظر مونغو مباشرة في عيني أليسون من خلال المرآة الأمامية.

''حسناً''، أخذت أليسون نفساً عميقاً، شدت كتفيها، صرت على أسنانها.

''تابعي''، قال روري ووضع يده فوق يديها اللتين كانت محكمتين في حضنها.

''السرير''، قالت أليسون بصوت عالٍ نوعاً ما، ''معه أولاً، ثم أتت باتسي وراقبت. لم يعجبني ذلك. ثم اندست في السرير إلى الجانب الآخر مني، أظن ذلك يدعى انغماس في العربدة''.

''تابعي''، قال مونغو، متجهماً ينظر إلى الطريق أمامه، ''تابعي''.

''حسناً''، ارتفع صوت أليسون أكثر، ''استمتعت بذاك معه، كان مختلفاً، تغيير...''.

''تغيير لطيف''، قال روري بصراحة غير مبررة.

– ''حسناً، كان كذلك. لو كان لدي إيلي فقط، ربما كنت بقيت هناك''.

''أوه!''، قال مونغو وقد تجهم وجهه أكثر، لكن أليسون عادت لتكمل الحديث عن سانتا باربرا، ''كان أسوأ بكثير منك، مونغو''. لم تنتبه إلى حاجبي زوجها يرتفعان بدهشة، ''استخدم كلمات لم أسمعها من قبل، لغتك ضعيفة مقارنة به، وقد جعلني ذلك أنفر قليلاً''.

''فقط قليلاً''، قال روري دون أي إحساس.

– ''لكن باتسي لم يعجبها ذلك، لم يعجبها اتحادي أنا وإيلي''.

''أحب ذلك''، قال روري، ''إذاً، ماذا حدث؟''، سأل، لأنه كان يمكنه أن يرى بالنظر إلى وجه مونغو أن الأخير لا يمكنه أو لا يريد أن يسأل.

''ماذا حدث''، قالت أليسون، خرجت الكلمات باندفاع، ''ما حدث أن إيلي اقترح أننا، أنا وهو، علينا أن نذهب في رحلة إلى نيومكسيكو دون باتسي، قلت جيد أو ذلك، لكن باتسي كانت تثير أعصابي، كانت تزعجني وتعامل إيلي بأسلوب كريه، حزمت حقائبي... وبينما أنا أنزل الدرج، سمعت شجاراً، كانت قد قطعت كل أزرار قميصه وبدأت تمزق سرواله، ثم''، أخذت أليسون نفساً، ''نزلت وعضته في ساقه''.

''أوه''، قال مونغو، ''عجباً! هذا صادم''

''آه''، قال روري، ''ثم ماذا... ماذا...''.

– ”صعدت بسيارة إيلي وقدت بنفسي إلى المطار. تحدثت إلى أمك كما تعرف، كذبت، بالطبع، لم يكن لدي نية العودة إلى المنزل“.

”كذبت علينا“، قال مونغو.

كان صوت أليسون متعباً، ”بالطبع كذبت، أمك كانت واضحة جداً. إيلي لم يكن مصاباً بالإيدز لكنها لا تستطيع تدبر أمورها من دوني“.

”ولا أنا أستطيع“، قال مونغو من دون تفكير، ووجهه محمر.

لاحظ روري أن كلاً من مونغو وأليسون كانا على وشك البكاء، ”لم أرَ في حياتي رجل تعضه امرأة“، قال، فضحكوا بالمرح الذي لا يمكن كبحه، مرح المراهقين.

ركضت هيبي نحو سيارتها وهي تعدل نظارتها على أنفها. أدارت المحرك وعبرت الشارع بشكل متمايل بين سيل السيارات قبل أن تنضم إلى الطريق الرئيسي. الكرب منذ سلمتها لويزا الرسالة، القلق الذي شعرت به من أجل إيمي، الاستياء من لقائها بجديها، والذعر الذي بدأ في منزل إيمي. زادت السرعة إلى الحد الأقصى معرضة نفسها للخطر وسط الازدحام. نست تقريباً أن تتنفس. أجفل جيم وهو يتبعها من المخاطر التي خاضتها، وهو يأمل ألا تتعرض لحادث طائش فيكون عليه أن يحمل جثة إلى المستشفى. ويكون مضطراً أن ينقل أخبار سيئة إلى سيلاس.

قادت هيبي عبر البلدة حتى غابت عن الرؤية. لمح جيم سيارتها قرب كشك الهاتف: بابها مفتوح، المحرك شغال. رأى هيبي تسرع عبر الحقول باتجاه منزل برنارد. ركن سيارته وركض عائداً إلى سيارة هيبي. أغلق الباب. وضع المفتاح في جيبه وبدأ يجري خلفها. رآها مرتين وهي تقفز عبر كومة وتندفع، سقطت مرة، لكنها نهضت بسرعة وعادت تجري. تمتم لنفسه وهو يركض: ''هذه المرة، هذه المرة، هذه المرة''. عندما قفز فوق الكومة الأخيرة التي تفصله عن حديقة برنارد، اصطدم بفيذرز، سقط، أسرع فيذرز لتحيته ولعق وجهه، سعيداً بوجوده.

''ابتعد''، دفع جيم الكلب بعيداً، ''ابتعد عن طريقي، عليك اللعنة''، كان مستنداً على يديه وركبتيه فوق العشب المبلل.

''هل أذيت نفسك؟''، سأله برنارد عن كثب.

''لا''، وقف جيم على قدميه، ''ابتعد عن الطريق''، قال لفيذرز.

''توقف''، قال برنارد، فيما استدار جيم باتجاه المنزل. أمسك برنارد ذراعه، فاستدار جيم بسرعة حتى كاد يسقط الرجل العجوز.

''لماذا؟''، قال جيم بغضب، ''لماذا؟''.

''يجب أن يبقيا وحدهما''، أمسك برنارد جيم من كمه، ''سنخرج''.

''يجب أن أراها''، قال جيم لاهثاً، ''يجب ذلك''.

''الآن''، قال برنارد، ''أنت وأنا سنذهب إلى السينما، عد إلى المنزل''، قال لفيذرز، ''ليس من شأنك أن تكون هنا. تعال''، قال، ''علينا أن نذهب حتى يمكن لسيلاس أن يتحدث إلى أمه''.

''يجب أن أرى تلك الفتاة''، صاح جيم.

– ''ليس الآن، يجب أن تبقى وحدها، هذا مهم''.

''المهم أن أراها''، قال جيم بإصرار.

– ''هذا مهم لك فقط''.

نظر جيم إلى العجوز متراجعاً، ''لم أفكر في ذلك''. رفع برنارد العجوز والمنكمش نظره إلى جيم، وقال: ''لن تهرب''.

– ''مفتاح سيارتها معي''.

''سنعيده إلى سيارتها''، سار أمام جيم، ''هل تعرفت إليك؟''.

– ''لا أظن ذلك، عندما ذهبت إلى منزلها كانت تتحدث في الهاتف، أخبرتها أن سيلاس معك، واندفعت خارجة، لا أظن أنها لاحظتني، تلقت الرسالة فقط''.

سارا ببطء. ساعد جيم برنارد على تجاوز الكومات، ''هذا ليس مناسباً لرجل في عمري''، قال برنارد، ''لكن سنجلس في السينما وننعم بالدفء والجفاف''.

''لماذا السينما؟''، قال جيم بتمرد.

''هناك ظلام''، تحدث برنارد بوقار، كانا قد وصلا تقريباً إلى سيارة جيم، ''أستطيع أن أجلس وأندب''.

''تندب ماذا؟''، كان جيم سيئ المزاج.

''يبدو أنك قد نسيت''، ركب برنارد في سيارة جيم وبدأ يشد حزام الأمان حوله، ''أنك ذهبت إلى البلدة مرتين: في المرة الأولى عرفت أن إيمي ماتت ونسيت أن تخبر هيبي أن الفتى بأمان، فأرسلتك مرة ثانية، الذهاب إلى السينما لا يعني أنني لست مصدوماً بموت إيمي''.

''هل أنت كذلك؟ لماذا؟''، بدأ جيم قيادة السيارة مجبراً.

– ''جمعتنا ذات مرة علاقة حب، كانت لطيفة جداً، أيضاً''.

لم يجد جيم شيئاً ليقوله. كان عقله مشغولاً بهيبي.

– ''إذا وجدنا فيلماً يكون فيه بكاء، أستطيع أن أدعي أنني تأثرت به''.

''نعم''، بدأ جيم ينتبه للحديث.

''كنا في فندق إنكلترا، انتهى الأمر بصورة سيئة''، قال برنارد، ''قبل وقت طويل في باريس''.

''لماذا؟''، سأل جيم.

''اكتشفت أني كنت أنام مع لويزا. لماذا تتوقع النساء دوماً أن هذا العمل يجب أن يكون خاصاً بواحدة فقط خلال العلاقة؟ لا أفهم. هذا ما أزعجها إلى أقصى حد''، رفض برنارد في سنه المتقدمة

أن تعاوده ذكرى حمل إيمي.

''كل هذه السنوات؟''، قال جيم متناسياً مشكلاته آنياً، ''كل هذه السنوات لم أعرف أبداً أنك زرتها''.

''لم نكن متفقين على التحدث''، قال برنارد، ''أخيراً، منذ أصبحت تربطها علاقة صداقة مع هيبي وأنا عرفت الفتاة، حاولت أن أرمم الأمر. أنا ولويزا بقينا قريبين، إيمي كانت عنيفة. لم يكن هناك شيء لفعله مع ذلك''.

''ربما كان لديها سبب لتكون عنيفة''، لم يفكر جيم أبداً أن صديقه العجوز كان ذا شخصية لطيفة.

''هيبي ليست بحاجة إليك''، قال برنارد بخبث، مؤكداً رأي جيم فيه، ''هي قادرة حتى أكثر من إيمي على تدبر أمورها بمفردها''. ثم بما أن جيم لم يجب، قال: ''إن مزاج النساء هذه الأيام يميل إلى العيش بمفردهن. لا بد أنك لاحظت، حتى أنت''.

''لماذا حتى أنا؟''، سأل جيم، لكن برنارد تظاهر أنه لم يسمع تاركاً جيم يشعر أنه بطريقة ما جعل نفسه سخيفاً.

عانق سيلاس هيبي وهيبي عانقت سيلاس. شعرت هيبي رغم انقطاع أنفاسها بسبب الجري بمتعة الخلاص لمجرد أنها كانت قادرة على حمله. كان حياً دون أذى. خافت هيبي إن تحدثت أن تقول الشيء الخطأ. شعر سيلاس وهو يضمها بنبضات قلبها. تجمعا على بعضهما بعضاً في كرسي برنارد ذي الذراعين وفيذرز متمدد يهمهم عند أقدامهما.

قال سيلاس وهو يضغط وجهه على صدرها: "أصبت بدوار البحر، ولم يكن لدي حذاء بساقين عاليتين. كانوا يعرفون بعضهم بعضاً جيداً. السيدة ريفز تشبه الفرس، شعرت بالغباء لأنهم جميعاً يعرفون كيف يبحرون. انطلقت وحيداً، رأيت حيوانات الفقمة وأفعواناً وأشخاصاً في مركب. كان هناك صبيان آخران تفاخرا بعشيقة والدهما، حسناً، الصغير هو من فعل، وبحجم عضوه كذلك، ثم قال إنه يبلل سريره كما لو كان هذا ذكاءً. كان هناك يخنة على كل وجبة، والسيد ريفز – يدعى جوليان – تهجّم على السيدة ريفز، قالت لي أن أناديها جنيفر، لكنني لم أستطع. تهجم عليها بسبب اليخنة، وهم يدعون السيدة التي تنظف وتطبخ بالسيدة شيء. أزعجني بخصوص المدرسة، سأل لماذا لا نتعلم اللاتينية، والسيدة ريفز تشاجرت معه، هم يتفاخرون بكل شيء... كان الوضع كذلك طول الوقت. قدم إلي نبيذاً قبل أن أنتبه إلى أن الآخرين كانوا يشربون مياهاً غازية فقط. شعرت أنني غبي جداً. تقيأت على سترتك. كان علينا أن نتشارك غرفة واحدة، أربعتنا، كان الشاليه جميلاً جداً، لكني تمنيت... أرسلت لك بطاقة بريدية، لم أكن أريدك أن تعرفي أنني لست مستمتعاً... الآن عندما أعود إلى المدرسة سيكون الأمر رهيباً... تقيأت في حذاء مايكل ذي الساقين العاليتين وعلى سترتك كلها. يتحدثون بأصوات عالية... أزعجني بسؤاله عنك وعمّ يعمل أبي. تدخلت السيدة ريفز وقالت... كانوا متكبرين وتعاملوا بتبجح لأننا نسكن في شارع. يرون أنه من الجيد أن تعيشي في شارع في لندن، ولكن غير ذلك يجب أن تعيشي في البلدة... قال مايكل إنك طاهية والسيدة ريفز قالت إن عمها تزوج بـ... قال السيد ريفز إن الطاهيات نوع مهدد بالانقراض... كان ثملاً... استمر في إعطائي النبيذ وكان هناك إحساس غليظ في الغرفة...ثم سأل ماذا يعمل أبي وأنا كرهته، قلت له إن أمي هيرمافروديت ورميت النبيذ في وجهه".

شدت هيبي ذراعيها حول سيلاس الذي أخذ نفساً عميقاً، "بحثت عن معنى هيرمافروديت في معجم لدى السيد كويجلي، ولذلك أشعر الآن أنني أغبى من ذي قبل. عندما رميت النبيذ في وجهه

اندفعت خارجاً... انتزعت سترتك من الحبل حيث كانت السيدة ريفز قد علقتها، لقد غسلتها لكن رائحتها لا تزال... لم أكن أعرف ماذا أفعل، كنت محظوظاً لأن الناس الذين شاهدتهم يصطادون كانوا ذاهبين إلى سانت ماري، أوصلوني. أنا آسف لأنني تركت كل شيء ورائي. أحضرت سترتك فقط. لم يسألني الناس أي شيء... في اليوم التالي، تدبرت عودتي على متن المروحية. تذكر الطاقم أنه كان عندي بطاقة عودة. عندما وصلت إلى المنزل، لم تكوني هناك، بكيت... أنا آسف. فكرت أنني إن ذهبت إلى إيمي أو حنة فإنهما ستطرحان الأسئلة... وجدني جيم وجاء بي إلى هنا... كان هو والسيد كويجلي لطيفين... كان رائعاً أن أكون مع فيذرز والهرة... ليس لديها اسم، هو يقول إن الهررة لا تحتاج إلى أسماء، هو حتى لا يناديها شيء مثلما تنادي عائلة ريفز عاملة التنظيف لديها، قالوا... لا، لم يقولوا، لكنني شعرت أنهم أرادوا أن يقولوا إنني لا أملك الشجاعة، حسناً، لم يكونوا شجعاناً جداً. بكى مايكل عندما ضربته، وأنا شعرت... شعرت أن الهيرمافروديت لا يضربن أطفالهن... بدأ جيلز الأمر، هو سألني هل كنت طفل أنبوب، وقلت له لا يمكن أن أكون كذلك لأنهم لم يكونوا يفعلون ذلك عندما ولدت... تشاجرنا... ضربته... سقط في حقل اللفت ونزف أنفه. قال السيد كويجلي إن والده كان مملاً الأمر الذي كان مروعاً بالنسبة إلى جيلز... دفع لي بملاحظة مكتوبة على ورقة، كانت تقول: ربما تكون أمك هيرمافروديت... شعرت بالفخر لذلك حتى بحث في المعجم... كل هذا رهيب...هل لدي أب؟".

"لا"، شعرت هيبي بالقشعريرة.

"ألا تعرفينه؟"، شد سيلاس قبضته.

ـ "لا".

جلس سيلاس وهو يحيط هيبي بذراعيه إلى وجهها. رفع يده بلطف وأزال لها نظارتها، "إنها مغشية". وضع النظارة على المنضدة قرب الكرسي، مرر يده في شعره، "إنه مبلل من دموعك"، نظر إلى يده، وقال: "ليس حتى مخنثاً؟".

"سيلاس"، قالت وهي تفكر، لقد حان وقت إحراق المراكب.

"لا تهتمي"، قال سيلاس. شعر بارتياح مبهج لأنه معها، وبالرضا بعدما حكى لها ما حدث معه. شد ذراعيه حولها. بدأت التحدث، إما الآن وإما أبداً.

"لم أكن أبداً قادرة أن أتحدث إليك، لأنني لم أكن أعرف كيف أبدأ، كنت في إيطاليا، وبعد عودتي، شعرت بشيء غريب، فأرسلوني إلى الطبيب، وهو قال إنني كنت حاملاً. هم، أنا لم أخبرك أبداً أن جديّ هما من ربياني، عندما اكتشفا الأمر استشاطا غضباً رهيباً. ما زلت أرى كوابيس، أسمع

أصواتهم تقول: من كان ذاك الرجل؟، وأشياء مثل: متسكع بشعر طويل، سوقي، أسود، حافي القدمين وقذر الأظفار... ظلوا يسألون: من كان الرجل؟... لم أتمكن أن أجيب لأنني لا أعرف، ما كانوا ليصدقوا ذلك، أردتك، أرادوا مني أن أجري إجهاضاً، هل تعلم ماذا يعني هذا؟".

– "بالطبع أعلم. لكنك لم تفعلي ذلك".

"أتيت إلى إيمي التي اعتنت بي، بعت أشياء كنت أملكها لبرنارد كويجلي، أصبحنا صديقين. تعلمت أن أكسب المال، فكرت كثيراً من قد يكون أبوك، لكنني لم أعرف. كل ما حصلت عليه هو هذا الرعب. أسمع أصواتاً تتابع وتتابع الحديث عن الإجهاض، وتدعوني بالفاجرة، وتسألني من كان الرجل". أخذت هيبي نفساً مرتعشاً وشد سيلاس قبضته حولها. تحركت قطعة حطب في النار، انتفض فيذرز، "عندما أصاب بموجات الذعر هذه أسمع أصواتهم، وهي تختلط بالجري في شوارع مظلمة، أركض وأركض والأبنية حولي كلها تكون أطول من ناطحات السحاب، والناس ينظرون من خلف النوافذ المغلقة، أسمع السؤال يتكرر: من كان الرجل؟"، أسرعت هيبي في الكلام، "يجب أن أخبرك، وإلا سيفعل ذلك شخص آخر، إضافة إلى عملي طاهية أعمل عاهرة كعمل جزئي، لأكسب المال من أجل حياتنا"، هذا مجرد تبرير، فكرت.

"لا تفهمين"، عدل سيلاس جلسته بين ذراعيها ونظر إليها، "لا تفهمين أن ما حدث كان سهوة سيئة، على الأرجح LSD [36]،" بدا سيلاس وهو يتحدث كأنه أكبر من الثانية عشر، "نوع من السحر".

36 مهلوس قوي يؤثر في العقل وتستمر أعراضه عدة ساعات لكنه لا يسبب الإدمان.

"لم أتناول المخدرات في حياتي أبداً"، كانت مذعورة، "ماذا تعرف عنها؟"، استوت في جلستها وحدقت إليه بإمعان.

– "يمكن أن تكوني قد تناولته في شرابك دون أن تعلمي، يظن الناس ذلك مسلياً".

– "مسلياً!"

"أنت لا تعرفين، وتتابعين..."، سهوة، "أعطانا أستاذ في المدرسة محاضرة عن المخدرات، مع من كنت؟ يحدث هذا في الحفلات. هل كان مخنثاً؟".

بدأت هيبي تضحك، "ثم"، قال سيلاس، وهو يضحك أيضاً، "أغواك".

– "أوه، سيلاس، لا أعرف... أنا بصدق لا أعرف".

– "هذا الكابوس المرعب فقط؟".

''لا، هناك شيء آخر، هناك رائحة''، عدلت هيبي جلستها، ''يا إلهي، سيلاس، أنت تشمها الآن، كم هذا غريب، وأنا لم أخبرك، لقد نسيت تماماً، إيمي مريضة. كيف نسيت؟''.

تنهد سيلاس مرتجفاً: ''هل ستموت؟''.

– ''تعرضت لأزمة قلبية. إنها ترتاح في السرير''.

– ''يمكنني أن أسمع قلبك. إيمي لن تتركنا''.

قبلت هيبي الرأس الملقى على صدرها، ''هناك وقت آخر لأقلق على إيمي''، في هذه اللحظة كانت سعيدة، مستمتعة بسيلاس.

''إنها هذه السترة هي التي تعطي الرائحة، أعارني إياها جيم''، قال، لكن هيبي لم تكن تصغي. كانت تشعر بالراحة لإيجاد سيلاس، ولأنها أخبرته بما في خاطرها، وقد حجب هذا جميع الأفكار الأخرى. ملأت رئتيها برائحة منزل برنارد: دخان الخشب، الثوم، الشمع، الأعشاب، القهوة، الملح الرطب القادم من البحر عبر الحقول. تنفستها جميعاً وتركتها تخرج في تنهيدة مرهقة. قد يكون سيلاس محقاً بخصوص LSD، هي ببساطة لا يمكنها أن تتذكر.

''ما الفرق''، كان سيلاس يتحدث، ''على أي حال؟''.

– ''ما الفرق؟''.

''بين الزواج من أجل المال، وأن تكوني...''، أكمل همساً بعد ذلك، ''تكوني عاهرة؟ لا أظن أن هناك أي اختلاف باستثناء...''.

– ''باستثناء ماذا؟''.

– ''باستثناء أنك تبدين أكثر سعادة من ناس كثيرين أراهم في اجتماع الأمهات في المدرسة''.

– ''أوه!''.

– ''أنا وجيلز أكثر سعادة من الناس في المدرسة. لا يبدو السيد والسيدة ريفز سعيدين، هل علي أن أعود إلى تلك المدرسة؟''.

– ''أنا...''.

– ''أنت تعرفين أن جيلز يتحدث مثلنا عندما يريد، وأنا عندما أكون معه، أتكلم مثله''.

لم تقل هيبي شيئاً.

''جيلز يتحدث كما يفعل فقط كي يزعج حنة، وإلا فمن الأسهل أن يكون مثل الناس الآخرين. إنه هدر للمال، أن تنتسب حنة إلى دروس لتعليم لفظ الحروف الصوتية، من يريد أن يكون مثل السيدة تاتشر؟''، ضحك سيلاس، ''عن ماذا هو كابوسك؟ هل فكرت؟''.

– ''جداي يحاولان اكتشاف من هو أبوك''.

– ''ماذا قالا؟ أخبريني ثانية''.

همست هيبي: ''من كان الرجل؟ متسكع بشعر طويل، أقدام قذرة، ربما أجنبي، من كان الرجل، إجهاض، ربما كان أسود، أقراط، مخدرات، أظفار قذرة، ربما لديه سجل إجرامي، من كان الرجل...''.

''أنا لست منزعجاً''، قال سيلاس.

٣١

''خذني إلى شارع ويلسون''، تكلم برنارد الذي ظل صامتاً طوال الطريق.

''ظننت أنك أردت أن تذهب إلى السينما''، رد جيم الذي كان صامتاً هو الآخر، وتختلط في نفسه مشاعر الغضب والقلق والابتهاج بمزيج مضطرب جعله يغفل عدة مرات خلال القيادة ولا ينتبه إلى أنه كان يقترب جداً من سيارة أخرى.

– ''غيرت رأيي، توقف عند الزاوية، أريد أن أشتري أزهاراً لإيمي''.

اقترب جيم من الرصيف، ''أليس من المنطقي أن تنتظر الجنازة؟''.

''منطقي!''، قال برنارد وهو يفتح باب السيارة، ''لن أتأخر''. انطلق عبر الرصيف إلى متجر الأزهار.

''نحن على الخط الأصفر المضاعف''، صاح جيم من خلفه وهو يشاهد شرطية المرور تقترب بعناد، ''هذا كل ما أحتاجه''، نقر بأصابعه على عجلة القيادة بحركة تنم عن صبر نافد وهو يشتم برنارد. سارت الشرطية بهدوء عبر الشارع ودست البطاقة تحت ماسحة الزجاج الأمامي، ''هيا، برنارد، لماذا أنا غاضب إلى هذه الدرجة؟ ما المشكلة؟''، سأل جيم نفسه، ''أسرع!''، صاح مخاطباً الرجل العجوز الذي خرج من المتجر وذراعاه مليئتان بالورود.

''مرحباً''، التقى برنارد شرطية المرور قرب السيارة، ''كارن؟ أليس كذلك؟''، ابتسم برنارد مظهراً أسنانه العتيقة، ''تبدين جميلة جداً. كيف حال أمك؟ لا أظن أنني رأيتك منذ كنت في المدرسة، أنت تشبهين أمك''.

''أنا متزوجة الآن سيد كويجلي''، قالت كارن.

– ''يا إلهي، كم من الوقت... أقول، هل كنت تضعين واحدة من رسائل الحب التي معك تحت ماسحتنا؟''.

ضحكت الشرطية وأمسكت باب السيارة المفتوح لبرنارد كي يصعد، ''للمغازلة، سيد كويجلي؟''، سألت وهي تنظر إلى الورود. ابتسم برنارد ثانية. أغلقت الشرطية باب السيارة، ''لا تنس حزام الأمان، سيد كويجلي''.

ارتاح برنارد في مقعده وقال: ''أحب النساء، لا يمكن أن تكون الحياة من دونهم''. انطلق جيم، وهو يتساءل لماذا لم يقتل برنارد نفسه منذ زمن طويل.

أوقف السيارة أمام منزل إيمي متخذاً قراره بألا يؤدي أي دور في المسرحية التي يخطط لها برنارد؟

''هيا''، قال برنارد وهو يحل حزام الأمان، ''هذه الأشياء القاسية هي مجرد انتهاك غبي للحرية الشخصية، اتبعني''. تبعه جيم على مضض.

عبر برنارد الرصيف، دفع باب منزل إيمي المفتوح، ''لا تغلق بابها أبداً، قد تتعرض للاغتصاب في هذه الأيام، العجوز الحمقاء''. صعد الدرج، فتح باب غرفة نوم إيمي، سمع جيم صرخة خافتة، ثم صوت برنارد يقول: ''هناك حمار غبي أخبرني أنك مت، أحضرت لك وروداً. لا تقولي لي إنك تعرضت لنوبة قلبية''.

سمع جيم جواب إيمي القاسي: ''ليست لويزا فقط من تعاني مشكلات في القلب''.

''ما زلت تغارين بعد كل هذه السنوات''، صاح برنارد، ثم، ''دعينا ننظر إليك. لا تبدين سيئة جداً، أعطنا قبلة''، ثم قال رافعاً صوته: ''جيم، ادخل إلى هنا''.

دخل جيم. كانت إيمي مستلقية وذراعها ملفوفة حول باقة الورود، ويدها الأخرى تمسك مخلب برنارد. ابتسمت لجيم، ''ظننت أنني كنت ميتة، أليس كذلك؟ أين الكلب''.

''لم يكن كلبي''، شعر جيم بإحراج شديد، ''يجب أن أعتذر إليك لدخولي منزلك بهذا الشكل. أردت...''.

''اجلسا، كليكما''، أشارت إيمي إلى الكراسي. جلس برنارد وهو يمسك يد إيمي، جلس جيم بصعوبة قرب النافذة. ''أتيت لترى ثقالات الورق''، قالت إيمي لجيم، ''لدي أزهار حقيقية، الآن''، شدت قبضتها حول باقة الورود.

''فقط لأنني ظننت أنك ربما مت لا يغير أي شيء''، قال برنارد بصوت عالٍ.

''أنا لست صماء أكثر مما أنا ميتة''، قالت إيمي بغضب، ''لم يخطر لي أبداً أنك قد تتغير''. بدا لجيم أنه كان هناك تأكيد للخصام القديم، تابعت إيمي، ''لن تحصل على ثقالات الورق، سأتركهم لهيبي''.

''لا أريد ثقالات الورق خاصتك''، صاح برنارد بصوته المتصدع.

''إذاً لماذا أنت هنا؟''، راقبت عينا إيمي برنارد. شعر جيم بعدائها.

''هل يمكن لقلبك أن يتحمل قدراً من الأخبار؟''، تمعن برنارد في وجه إيمي.

''بالطبع، هاتها''. كانت لإيمي اليد العليا في هذا العداء الدفين.

''مفاجأة؟''، استفهم برنارد بنبرة مرتفعة.

''تابع''، قالت.

''هذا صديق لي، جيم، لديه سبب ليعتقد أنه والد سيلاس''، نظر برنارد إلى إيمي، وفمه مفتوح، كأنه يشاركها المفاجأة التي كان قد فجرها.

''إنه يشبهه كثيراً''، قالت إيمي التي لم تظهر عليها المفاجأة، ''الأنف نفسه، شعرك كان كستنائياً قبل أن يشيب''، انتبهت، كانت تتحدث الآن إلى جيم، ''ولو أن لسيلاس عيني هيبي''.

''اللعنة! إيمي ألا يجب أن تبقي هادئة؟''، صاح برنارد.

– ''قال لي الطبيب أن أبقى هادئة''.

– ''لقد كان يبحث عنها لسنوات''.

جربت إيمي أن ترى وجه جيم الجالس وظهره في الضوء.

''أنا''، بدأ جيم، ''لقد...''.

''إنه مغرم بها''، تبرع برنارد بالشرح.

''واو!''، قالت إيمي، ''حب! أنت تحبني''. أصدر برنارد صوتاً مزعجاً، ''وتحب لويزا، وكان هناك حديث حب مع لوسي وحتى مع إيلين، تلك تكون جدة هيبي''، قالت موجهة الحديث إلى جيم، ''وكثيرات غيرهن. اعتاد أن يأخذنا جميعاً إلى الفندق نفسه في باريس، يتحدث عن الحب. هذا لا يعني شيئاً''.

''هراء''، صاح برنارد، ''ألم آتِ إلى هنا مع الورود؟''.

– ''أتيت لتتأكد أنني مت وتسرق ثقالات الورق خاصتي''.

''ذلك ظلم''، صاح برنارد، ''أتيت لأنني أحبك''.

قالت إيمي: ''أحب ذلك''.

نهض جيم خلال الصمت الذي تلا ذلك الحديث وهو يشعر بالانزعاج من هذين العجوزين المتنافرين. قالت إيمي متهمة برنارد: ''أنت تحافظ على تواصلك مع لويزا''.

''أتصل''، اعترف برنارد، ''أحياناً''.

''ولم لا؟''، كانت إيمي متسامحة، ''لكنك لا تدعها تراك قزماً عجوزاً ضعيفاً مسكيناً''.

''لا''، أغمض برنارد عينيه، ''لا أفعل''.

''لم يرد أن يتزوج أياً منا''، حولت إيمي انتباهها إلى جيم، ''لا يهم ذلك الآن، هل تريد أن تتزوج بهيبي؟''.

''أنا...''، شعر جيم بالاضطراب. ما شأن هذه العجوز الشمطاء لتستجوبه؟

''الأمر عائد إلى هيبي، أليس كذلك؟''، قالت إيمي.

فتح برنارد عينيه، ''هيبي فقط؟''.

''ما دمت أهتم بأمور هيبي فقط''، قالت إيمي وهي تنقل نظرها من جيم إلى برنارد، ''وهيبي تهتم بسيلاس، وما يهم سيلاس هو ما يهم هيبي. أينما كان، يبدو أنه ضائع''.

''سيلاس''، قال برنارد بزهو، ''في منزلي وهيبي معه، لهذا السبب، جيم هنا، أبعدته بلباقة حتى يتمكن سيلاس أن يشرح لأمه لماذا هرب من سيلي، دون أب مريب يقسو عليه''.

– ''ظننت أنك أتيت لزيارة الميتة. هل سيلاس بخير؟''.

''تماماً''، قال برنارد، ''لقد دللناه كما أنا...''، شدّ على يد إيمي، ''أدللك''.

انفجرت إيمي بالضحك.

– ''انتبهي إلى قلبك''.

''الآن''، تمتمت إيمي، ''قلبي بحال أفضل.

''كل هذا التحسن بسبب رؤيتي؟''، سأل برنارد بمكر.

هذان العجوزان الفاحشان يتغازلان، فكر جيم، تساءل هل سيلاحظان إن هو تسلل خارجاً. إنهما ليسا بحاجة، فكّر، إلى جمهور يشهد لمّ شملهما.

بدت إيمي مستأنسة بالكلمة، ''فعلاً، نعم''.

دخلت حنة إلى الغرفة في هذه اللحظة. تبعها كل من تيري وجيلز. لمعت عيناها الخضراوان وابتسمت ابتسامة جديدة.

''ياللروعة! هل هذه حفلة؟''، نقلت نظرها من برنارد إلى جيم.

– ''أتينا لنمنحكم أخبارنا الجيدة''.

''تمنحوننا؟''، تساءلت إيمي وهي تمسك يد برنارد.

– ''هذه إحدى كلمات تيري، كنا نتساءل هل قلبك يتحمل؟''.

– ''قلبي بخير''.

فكر جيم وهو يغادر الغرفة أن الأخبار الجيدة كانت أن الفتاة الشقراء والشاب الأسود، بكلمات مناسبة، واقعان في الحب. شعر بالاستياء وهو ينزل الدرج راكضاً ويخرج إلى سيارته من وهج السعادة الذي كان يحيط بالأزواج الشاذين. كان عليه أن يواجه هيبي.

ركن جيم سيارته قرب سيارة هيبي، وسار بسرعة عبر الحقول، مقاوماً رغبته في العودة إلى لندن، مسترجعاً الدرع الذي حماه بفعالية من العلاقات الجادة طوال السنوات الثلاث عشرة الماضية.

على أطراف حقل اللفت، وبينما هو يتسلق الأكوام في الطريق، تذكر فتيات السنوات الماضية، فتيات مسليات، فتيات جميلات، فتيات ذكيات وغبيات، حمى نفسه من التعمق بالمشاعر، بذكرى رائعة للفتاة في لوكا، الفتاة التي تركته، هربت بسرعة، مختفية في الحشد. فكر وهو يتذكر هيبي تسرع عبر الحقول كما رآها في وقت سابق من اليوم، إنها ما زالت تركض بسرعة وجمال. صرّ على أسنانه مجبراً نفسه على المضي قدماً. إنها هناك، في منزل برنارد. فكر وهو يتسلق الكومة الأخيرة وصولاً إلى حديقة برنارد، يجب أن أضع نهاية لهذا بطريقة أو بأخرى، أضع نهاية لحلمي. فكر باستياء مواجهاً نوعاً من الحقيقة: هذا هلاك. فكر وهو يفتح الباب ويدخل المنزل. شعر بالكآبة والأسف لخسارته، لكن الآن، الوقت متأخر جداً على الهرب. لو كان عندي عقل، لكنت توقفت عن البحث منذ سنوات، فبفقدانها، كان لدي شيء ما لأحتفظ به.

كانت هيبي تجلس في كرسي برنارد وذراعاها تحيطان بسيلاس الملتف قربها نائماً. جلس جيم على كرسي قرب الباب. أتى فيذرز مداعباً ومشاكساً ليحيي جيم ضاغطاً وجهه على ركبته مسترعياً انتباهه. مسد جيم رأس الكلب ونظر إلى هيبي التي كانت تنظر إليه من فوق رأس سيلاس.

''هل هو بخير الآن؟''، قال مشيراً إلى سيلاس.

''نعم''، قالت بهدوء.

عاد فيذرز ليجلس عند قدمي هيبي. شعر جيم أنه مكشوف. كان لدى هيبي سيلاس كحماية والآن لديها الكلب أيضاً. سعل. كان غير قادر على التفكير في أي شيء يقوله. مرت لحظات. تبادلت هيبي وجيم النظر إلى بعضهما بعضاً.

قالت هيبي شيئاً ما بصوت منخفض.

قال جيم: ''ماذا؟''.

قالت: ''إنها الرائحة. أظن أنني أعرف الرائحة، إنها... هذه السترة التي أعرتها له''.

– ''تقصدينني؟ رائحتي؟''.

– ''نعم''.

– ''رائحتي قهوة، لدي متجر قهوة، ثيابي مخضبة برائحتها، لماذا؟''.

– ''لدي نوبات ذعر، كوابيس، أصاب بها ثم يكون هناك هذه الرائحة التي تكون لطيفة''.

''أنا سعيد لذلك''، تمعن فيها، لقد قصت معظم الشعر الطويل. عيناها كانتا نفسهيما، والوجه أنحل.

''إنه متجر قهوة من جهة، ومتجر أثريات من ناحية أخرى''، يجب أن نستمر بالكلام، فكر.

''أوه!''، اكتفت بأن تقول ذلك. لم تساعده.

– ''كنت أعمل في مقهى في لوكا، هل تذكرينني؟ هل تذكرين العيد، عقد حبات البندق، الشموع على حافات النوافذ، الشوارع الضيقة؟ أنت هربت...''.

راقبته هيبي بصمت، بماذا كانت تفكر؟

قالت: ''كابوسي المرعب. كان ذكرى مطاردة عجيبة لي''.

قال جيم: ''آسف إذا كان هذا كابوساً بالنسبة إليك''، كان مصدوماً، كل ما تتذكره بعد كل هذه السنوات هو كابوس لعين.

– ''الرائحة ممزوجة مع شيء آخر. أفهم الآن أنها كانت رائحتك. الآخر، النتيجة، الـ... الـ... أنا...''.

نظرت إليه بألم: ''جربت أن أخبر سيلاس، وهل تعرف ماذا قال؟''.

– ''ماذا؟''.

''افترض أنني كنت في سهوة، أن أحداً ما أعطاني LSD''.

''هذا قد يفسر الكثير''، قال جيم، ''كنت مع مجموعة من الهبيين، هذا ما قاله الناس عندما حاولت إيجادك''.

– ''كنت قد التقيت بهم للتو. كنت أعيش مع عائلة كشخص غريب يتعلم اللغة الإيطالية، لم أكن أعرفهم''.

– ''في لوكا''.

– ''كنت عائدة إلى المنزل في اليوم التالي. أذكر الآن. لا بد أنني نسيت ذلك بعد أن تلاه الرعب، أنا آسفة''.

''أنا والد سيلاس''، قال جيم، محاولاً، ليس هناك مجال للتراجع، فكر، كان حلمي لسنوات هو كابوسها، ''أظن، أقصد هذا واضح، انظري إلى أنفه وشعره، إنه ابني''، لم تقل هيبي شيئاً، ''لديه عيناك''، قال جيم، ''ربما يمكننا أن نتعرف إلى بعضنا بعضاً''.

بقيت صامتة، فقال: ''يبدو أننا وضعنا العربة أمام الحصان، أنا لا أريد إزعاجك، لكن يبدو أن سيلاس هو نتيجة لقائنا، ربما إذا نحن...''.

''نتيجة''، نظرت إلى سيلاس، ''أفهم...''، شدت قبضتها.

هي تخشى أن أؤذي سيلاس، فكر جيم، يجب أن أطمئنها، لم تفعل أي محاولة لإنكار أبوتي.

قالت هيبي: ''إذا كنت...''، كان أسلوبها دفاعياً.

''أنا متأكد أنني أنا''، أبله، ما زال هناك فرصة للانسحاب.

''نعم''، قالت دون أدنى تشكيك.

– ''انظري، عندما التقيت سيلاس في الأمس كان منزعجاً جداً، ربما يمكننا أن نبدأ من هناك، ربما أستطيع أن أساعد إذا كان في مشكلة. ما رأيك؟''.

– ''نضع العربة أمام الحصان مجدداً''.

إنها ذكية، شكر الله، ''نضع سيلاس أولاً ومن الممكن أن نتعرف إلى بعضنا بعضاً بذلك''.

''لا أمانع أن تتعرف إلى سيلاس''، قالت هيبي مبقية نفسها خارج الأمر، ومذكرة نفسها أنها يجب ألا تكون متملكة.

ابتسم جيم للمرة الأولى بعدما كان يجلس متجهماً غاضباً طوال الوقت، ''أنت لا تعرفينني''، قال، ''يمكنك أن تحتفظي بخصوصيتك كما تحبين''. أنا لا أعني ذلك حقاً، فكر، أريد أن أعرفها، لكن هذا قد يستغرق بقية حياتنا حتى أتمكن من اختراق هذه الخصوصية.

وصلت هيبي إلى نظارتها ولبستها لتتمكن من رؤية جيم بوضوح، فكرت، هو يفترض مسبقاً أنه امتلكنا، يظن أنه يستطيع أن يقحم نفسه في حياتي، والد سيلاس، لا يمكنني أن أنكر هذا، إنهما يشبهان بعضهما بعضاً... إنه حتى يتحدث مثل سيلاس. ماذا عن رابطتي؟ عملي طاهية؟ كيف يظن أنه سوف يتلاءم مع كل هذا، مع مونغو، روري، لويزا، لوسي، مع سيلاس الذي أعيش وأعمل من أجله، وهيبولايت؟ هل يظن أنه يستطيع أن يظهر هكذا فقط؟ هل أريد أن يقتحم هذا الرجل حياتي؟ فكرت وهي تتأمل جيم من خلال نظارتها.

هي ليست تماماً فتاة أحلامي، فكر جيم، تبدو مكافحة، فتاة الحلم كانت حساسة جداً. ما الذي ستفعله هذه المرأة التي تحمل ابني بين ذراعيها في حياتي؟ كيف ستتلاءم مع عملي في تجارة القهوة، الأثريات... والصبي، ابني، ماذا عنه؟ أوه، يا إلهي! فكر، هل أريد كل هذا. فكر بامتعاض بهيبي، لامها.

''إذا كتبنا كتاباً''، قال جيم، ''سيكون هذا حدثاً ممتعاً''.

''في الحياة الواقعية، يكون هذا رمالاً متحركة إيجابية''، قالت هيبي.

استسلما للضحك، فاستيقظ سيلاس.

تذكر سيلاس، وهو ينقل نظره بين أمه وجيم، أين كان. عاوده شعوره الرهيب بالعار من زيارته إلى عائلة ريفز، ''ماذا سأفعل بشأن حقيبتي القماشية؟ تركتها ورائي''. بدت الحقيبة القماشية بالغة الأهمية.

''ستحضرها السيدة ريفز في الغد معها، ويمكننا أن نأخذها من مهبط المروحية''، قالت هيبي.

''ويكون علينا أن نتحدث إليها؟''، كان سيلاس مذعوراً، ''نلتقي بهم جميعاً؟''.

''سنكون معك''، نهض جيم وحرك جسده، ''هذه الغرفة الضيقة للغاية تبعث على الإزعاج، ما رأيكم في تناول الشاي بالقشدة في مكان ما؟''.

''رائع، هناك مزرعة تقدم الشاي فوق التل، يمكننا أن نسير على حافة الجرف''، قال سيلاس سعيداً باقتراح جيم، ''أنا أتضوّر جوعاً''.

''هيا إذاً''، قال جيم، ''لقد توقف المطر منذ مدة طويلة''.

''حسناً''، شعرت هيبي بجوع رهيب، حاولت أن تتذكر متى كانت آخر مرة تناولت فيها الطعام، فعرفت أنه كان الفطور الذي قدمته إليها لويزا في ساعات الصباح الأولى، هل كان اليوم نفسه؟ ''أنا جائعة جداً، أيضاً''، قالت بحذر.

ركض فيذرز أمامهم عبر الحقول رافعاً ذيله إلى الأعلى كإشارة إليهم ليتبعوه كأنه دليل سياحي في ميدان سان مارك. عبروا الشارع إلى طريق الجرف الملتفة فوق البحر. نحن نبدو كأي عائلة عادية، فكر جيم، وهم يسيرون في رتل خلف بعضهم بعضاً: كلب عائلة، طفل، أم، أب، لكن الكلب ليس كلبنا، الأب لم يتحدث إلى الأم منذ ثلاثة عشر عاماً، التقى طفله للمرة الأولى في الأمس. سار وهو يتأمل الموكب من الخلف، تمعن في ظهر هيبي، انتبه إلى خطواتها الواسعة الطويلة، شعرها الداكن المنساب الذي يلامس كتفيها، مشت إلى الأمام فوق البحر الذي هدأ في شمس بعد الظهر، كان لونه أزرقَ فضياً، وظلال الصخور كانت أخف وأبهت لوناً فوق الشاطئ الرملي.

بماذا كانت تفكر، تساءل جيم، لو كنا ما نبدو عليه، عائلة عادية، هل كنت سأعرف بم تفكر؟

سار سيلاس في المقدمة في الطريق الصاعد فوق الوادي الذي فيه منحدرات تنزل وصولاً إلى الخليج المحمي في الأسفل. في منتصف الطريق الصاعد، هناك مزرعة، فيها طاولات موضوعة فوق العشب وكراسي ومقاعد طويلة. جلسوا إلى طاولة فارغة، وطلب جيم الشاي. جلست هيبي

منهارة، وجهها شاحب. وضعت نظارتها على الطاولة في تصرف متحفظ غريب، لم تكن تريد أن ترى بوضوح، راقبها جيم دون أن تنتبه، ''متى أكلت آخر مرة؟''، سألها.

– ''جعلتني لويزا أتناول إفطاراً''.

''حمقاء''، نهض جيم ودخل إلى المزرعة، ''هل من الممكن؟''، قال للمرأة التي تعد الشاي، ''أن تقدمي إلى السيدة بيضة مسلوقة؟ هي لم تتناول طعاماً منذ الإفطار''.

– ''المسكينة. من الأفضل أن تتناول اثنتين مع خبز وزبدة''.

''شكراً لك''، عاد جيم إلى الطاولة وجلس بصمت حتى حضر الشاي.

راقب سيلاس إبريق الشاي، الحليب، السكر، الكعك، القشدة، المربى... توضع على المائدة، ثم بيضتان بنيتان.

''هل الملح جيد؟''، سألت النادلة وهي تلفت انتباه جيم.

''أكثر من جيد''، شكرها.

''لمن البيض؟''، سأل سيلاس.

''لأمك. كليهما''، قال لهيبي دافعاً البيض نحوها.

''أوه''، نظرت إليه بسرعة، ''شكراً لك''.

– ''ستحتاجين نظارتك''.

''نعم''، لبستها بخضوع.

تناولوا الطعام لصمت. شاهد جيم اللون يعود إلى وجنتيها. أكل سيلاس وشرب ملقياً البقايا لفيذرز. إذا اشتريت منزلاً في الريف، يمكننا أن نعيش كعائلة عادية، فكر جيم، وهو يراقب هيبي وسيلاس. يمكننا أن نقتني كلباً لنا. أنا لا أستطيع لسبب ما أن أتخيلها في فولهام. يمكنني أن أواصل عملي في الريف. لا أستطيع أن أصدق أنها تحب العيش في ذاك الشارع القبيح. ستحب تلك الهرة التي تملكها الحياة في الريف. ربما يمكننا أن نجد منزلاً في دورست. تأمل هيبي في خلفية المشهد التي يحتويها مع البحر القريب. غادرت العائلات الأخرى التي كانت تتناول الشاي صاعدين الطريق التي تقود إلى الطريق الرئيسي وإلى سياراتهم. وصلتهم أصوات غسيل أطباق، وضحك متقطع، وصوت موسيقا منبعث من المذياع من داخل منزل المزرعة.

''هل رأيت إيمي؟''، عادت هيبي تنظر إلى جيم، ''كنت خائفة جداً أن أسأل''.

''أفضل بكثير''، قال جيم، ''حين رأيتها آخر مرة كانت هي وبرنارد يتبادلان الغزل، كأنهما على وشك أن يقيما علاقة''، فشل جيم في إخفاء نبرة المفاجأة من صوته.

''يظل لدى كبار السن مشاعرهم''، قالت هيبي.

''يبدو أن برنارد وزع مشاعره بصورة كبيرة نسبياً''، قال جيم.

ابتسمت هيبي وهي تفكر، ماذا عن مشاعري الموزعة بين أفراد الرابطة؟ ماذا عنهم؟

''هل سيتزوجان؟''، سأل سيلاس بفضول، ''يمكنهما، يمكن لإيمي أن تعتني بالسيد كويجلي''.

''لا أظن بطريقة ما أن شيخوخة برنارد تتلاءم مع حسابات إيمي''، تمتمت هيبي.

''إنه شخص مستقل جداً ليتزوج''، قال جيم مدافعاً عن الذكور.

''لكنه يبدو رومنسياً''، قالت هيبي باستغراب.

''حتى لو، سيكمل حياته وحيداً في ذاك البيت المنعزل، وفي أحد الأيام، سيصل ساعي البريد مع رسائله ويجده ميتاً''، قال جيم مفترضاً.

''هذا ما سيكون عليه الأمر''، وافقت هيبي.

– ''اتهمته إيمي بأنه وقع في حب الكثير من النساء''.

''هذا صحيح على الأرجح''، لم تكن هيبي ترغب في متابعة الحديث في الموضوع، ''هل رأيت حنة؟''، سألته، ''ألا تعتني بإيمي؟''.

– ''لقد أتت، أحضرت معها شاباً أسود وسيماً''.

''آه، تيري''، بدت هيبي تفكر، ''... نعم...''.

– ''بدا أنهما يطفحان بمتع الحياة، الرومانسية، هكذا تقولين؟''.

– ''ستسمي حنة ذلك اتحاد مشاعر''.

''ماذا عن جورج؟''، سأل سيلاس، ''جورج هو طبيب أسنانها''، شرح كي يفهم جيم.

– ''ممل جداً، حنة تريد الزواج والرومانسية''.

''هل ستحصل عليهما مع تيري؟''، سأل جيم.

– ''أظن أنها ستفعل''.

''من أين هو؟''، كان جيم مهتماً، إذا تمكنت من معرفة أصدقائها، يمكنني ربما أن أعرف هيبي.

''يأتي من لندن، يعمل في مهن حرة، يكسب الكثير جداً من المال، يحب الشعر، ذو خيال جامح...''.

''آه...''، ما كانت تلك النبرة في صوتها؟ تعلّقاً؟

''لديه الكثير من الاهتمامات: الموسيقا، جمع القطع القديمة، الشعر... نعم سيجعل حنة سعيدة، المتناقضات رائعة؛ ألا تظن ذلك، حنة الشقراء جداً مع تيري بلون الشوكولا السوداء؟''، كانت هيبي

متحمسة لمستقبل حنة.

"أطفال بالحليب والشوكولا"، قال سيلاس وهو يلتهم طعامه.

"رائع"، قالت هيبي، "كل ذلك للمؤيدين...".

"للمؤيدين"، وافق جيم وسيلاس بمرح.

"وأولئك المعارضون؟"، سأل جيم بجدية.

"ستستمتع حنة بالتحدي، فهمتني، مع تيري"، قالت هيبي بجدية، "لن تشعر بالملل أبداً".

"قال السيد كويجلي لجيلز إن أباه كان مملاً"، قال سيلاس، "وقد جرح ذلك مشاعره".

"هكذا إذاً"، نزعت هيبي نظارتها ونظرت إلى البحر الذي لم تكن قادرة على رؤية مداه البعيد بوضوح.

فكر جيم وهو يراقبها. لم يكن بإمكانها رؤيتي بوضوح عندما التقينا في لوكا. لا عجب أنها كانت ترى الكوابيس. لم يفكر جيم في ذلك بتواضع أبداً، لم نقترب أبداً مما هو مهم، فكر ساخطاً، الحديث عن شؤون إيمي، برنارد، وحنة لا يساعدني.

"هل يمكننا أن ننزل إلى البحر؟"، سأل سيلاس مقترحاً.

دفع جيم ثمن الشاي ومشوا عائدين إلى طريق الجرف ونزلوا باتجاه الخليج الصغير. سار جيم في المقدمة هذه المرة، وهيبي في الخلف. جلست هي على حافة العشب، "تابعا أنتما"، قالت، "سأنتظركما هنا". راقبت الرجل والفتى ينزلان الجرف. سمعت أصوات أقدامهما فوق الحصى عند الشاطئ. جلس فيذرز قربها يلهث بفم مفتوح. استلقت هيبي على ظهرها. كان يمكنها أن تسمع صوت سيلاس يتكلم وجيم يرد عليه. استسلمت للتعب. كانت ممتنة لدفء الشمس في الهدوء، وصوت الأمواج التي تضرب الحصى.

على الشاطئ، لعب جيم وسيلاس البطة وذكر البط[37]، ثم خلعا ملابسهما وسبحا تاركين الشمس ترحب بهما. تسابقا إلى حافة الصخرة التي تحيط بالخليج. خرجا من الماء واستلقيا على الصخور الدافئة بفعل شمس الظهيرة. وضع سيلاس يده فوق عينيه ونظر إلى أمه، "هل هي أمي الفتاة التي التقيت بها في إيطاليا، الفتاة التي أخبرتنا أنك كنت تبحث عنها؟".

37 ducks and drakes هي لعبة رمي الحجارة في المياه وفيها يقفز الحجر أكثر من مرة فوق الماء قبل أن يسقط.

"نعم"، نظر جيم إلى البحر بحنق، لأنه لم يستطع أن ينظر في عيني سيلاس. هذا خطأ مطلق، قال لنفسه، يجب ألا يتورط الصبي في الأمر حتى نرتب أمورنا، هذا يضع العربة أمام الحصان من

جديد.

''ظننت ذلك''، استلقى سيلاس على ظهره وأغمض عينيه.

يا إلهي، لماذا لا يقول شيئاً؟ هل هو سعيد، هل هو حزين، هل هو حتى مهتم؟ مستلقٍ هناك بكل هذا الهدوء، هو تماماً مثل أمه، فكر جيم.

شعر سيلاس بصوت النبض في أذنيه، إذاً لقد حصلت على أب، هذا الرجل، هذا الجيم، ماذا سأفعل الآن؟ ماذا ستفعل أمّي؟ ماذا فعلا في إيطاليا؟ أبقى سيلاس عينيه مغمضتين بقوة، هل تبادلا القبل كما يفعل الناس في التلفاز، كأنهم يأكلون موزة؟ ماذا يحدث الآن؟ هل سأعود إلى المدرسة كالمعتاد؟ ماذا ستفعل أمي؟ هل ستتابع عملها طاهية؟ عاهرة؟ هل ستكون بانتظاري عندما أنزل من القطار؟ ''أشعر بالبرد''، قال مذعوراً بصوت عالٍ، وغطس في البحر. راقب جيم الصبي يسبح عائداً إلى الشاطئ، ويخرج من البحر إلى كومة ثيابه. عندما عاد جيم، بعد عشرين دقيقة، لينضم إليهما، كان سيلاس يجلس كحارس إلى جانب أمه النائمة، نظر إلى جيم بحذر وهو يتسلق صاعداً إليهما، نبح فيذرز فاستيقظت هيبي.

''حان وقت الذهاب إلى البيت''، قالت، ''ينتظرنا يوم صعب في الغد، لقاء السيد ريفز، السيدة ريفز، السيد ريفز الخبير والحقيبة القماشية''. انطلقت تسير فوق المنحدر، تبعها الرجل والفتى. عندما وصلا إلى السيارات، قالت هيبي: ''شكراً لك على الشاي بالقشدة اللذيذ والبيض، أشعر بتحسن فعلاً''، مدت يدها تحييه كأن معرفتها به عابرة.

''ربما''، قال جيم، وهو يمسك يدها، ''ربما يمكننا أن نتحدث...''. تركت هيبي يده. ''هناك الكثير جداً لنتحدث عنه''، قالت بيأس، ''أو ليس هناك شيء''، استقلت سيارتها، ''الأمر الذي يبدو أكثر أهمية في هذه اللحظة هو الحقيبة القماشية اللعينة''. انطلقت وسيلاس إلى جانبها. تبع جيم فيذرز عبر الحقول إلى منزل برنارد. لم يشعر في حياته كلها بمثل هذه الوحدة.

لقد كان يوماً طويلاً. اندست في السرير بعدما اطمأنت بنفسها إلى أن إيمي كانت تتحسن، وحنة وتيري سعيدان كما يمكن أن يكون للعاشقين أن يكونوا. صلت هيبي كي تنام، لكنها كانت متعبة جداً. رأسها ممتلئ بأصوات من ازدحام السير على الطريق السريع، نباح كلاب، أصوات مختلطة تمكنت أن تميز من بينها صوت لويزا أو صوت برنارد، صوت الغريب في زحام السير، النادلة في المزرعة، نغمة جنيفر ريفز العدائية، إيمي. مصممة أن تستثني جيم، همست لنفسها، ''لست في حالة جيدة''، مكررة، ''ليست حالة جيدة''. حاولت أن تريح أصابع يديها وقدميها، حاولت ألا تجفل عندما عبرت دراجة نارية مسرعة الشارع صعوداً، حاولت أن تسترجع صوت البحر على حصى الخليج كما سمعته بعد الظهر عندما غفت قليلاً في دفء الشمس. دفعت تريب اللحاف لتندس تحته وتستقر قربها، ضغطت جسدها اللطيف الصغير على ظهر هيبي. ''الآن أنا لا أستطيع الانقلاب''. كان سخيفاً أن تفكر في راحة الهرة قبل راحتها، لكنها فعلت. عبرت دراجتان ناريتان الشارع في تعاقب سريع مع أصوات لناس ثملين يصيحون بخشونة.

''لا أستطيع النوم، أمي''، قال سيلاس وهو يقف قرب سريرها في ثياب النوم، ''هل يمكننا أن نتحدث؟''.

''بالطبع''، جلست في سريرها.

– ''هل تريب عندك؟ لقد تركتني''.

– ''نعم''.

– ''أظن أن علي أن أحضر غطائي لألفه حولي''.

– ''افعل ذلك''.

سمعت صوت أقدامه العارية على الأرض وحفيف الغطاء على الأرض وهو يجره عائداً. قاومت رغبتها في إضاءة النور.

''أفترض أنه سيكون من الجبن ألا أذهب لآخذ حقيبتي القماشية، ألا ألتقي عائلة ريفز في الغد''، جلس عند نهاية سريرها، كتلة ملفوفة في اللحاف، ''أنا أخشى ذلك''.

– ''ظننت أنك ستقول ذلك''.

احتفظ سيلاس بصمته لمدة. لم يكن بإمكانها أن ترى وجهه في الظلام. عبرت دراجة نارية أخرى الشارع.

– ''إنهم يسببون ضجة مزعجة، أليس كذلك؟''.

''رهيبة''، قالت موافقة.

– ''ماذا ستفعلين بخصوص جيم؟''.

– ''أنا...''.

– ''إنه أبي، أليس كذلك؟''.

– ''أظن ذلك، نعم''.

– ''ظريف، أليس كذلك؟ لقد ظل يبحث عنك لسنوات، أخبرنا، أنا والسيد كويجلي، عن ذلك مساء أمس''.

مساء أمس، سارت قرب النهر مع روفوس والكلاب الأخرى، كانت سعيدة، ودخلت لتجد مونغو وروري مع لويزا، كان ذلك حياة أخرى، ''كيف حدث كل هذا؟''، سألت.

– ''أراد السيد كويجلي أن يرفع لي معنوياتي، كان يمزح، فسأل جيم هل وقع في الحب، وأخبرنا جيم عن هذه الفتاة التي التقى بها في المهرجان في إيطاليا، قال إنه كان هناك موكب، ناس، حشود، بخور، فرقة نحاسية تعزف، لقد كان حقاً هناك، أمي، في المهرجان. قال إنه اشترى لك قلادة من حبات البندق، ثم أضاعك، وبقي يبحث عنك منذ ذاك الوقت. ماذا حدث للقلادة، أمي؟''.

''تركتها خلفي عندما هربت من المنزل''، تذكرت القلادة وهي تشعر بالمفاجأة، عبرت دراجة نارية الشارع في تلك اللحظة، لم تكن بسرعة سابقاتها، ''إنهم يزيلون كاتمات الصوت ليسببوا ضجيجاً أكبر. هذا طيش''.

– ''نعم، لا أريد دراجة نارية''.

– ''يسعدني سماع ذلك''.

– ''هل ستتزوجين جيم، أمي؟''.

– ''لا أعرف''.

– ''أوه!''.

''لا أعرف الكثير عن الزواج. ما رأيك؟''، سألته.

فكر سيلاس، ثم قال: ''لا أعرف الكثير عن الزواج، أنا أيضاً''، وضحك.

– ''لا بد أنك سمعت جيلز يتحدث عن حنة وأبيه، كذلك أنت رأيت السيد والسيدة ريفز. أوه، يا إلهي، أنت ستراهم غداً''.

توقف سيلاس عن الضحك، ''نعم، سأراهم''.

دقت ساعة البلدة دقة واحدة وتردد صدى الصوت في الجو المتعب بعد العاصفة.

''يمكن أن يكون المتزوجون سعداء''، بدأ يتحدث ثانية، ''أظن أن تيري وحنة سيكونان مثالاً ممتازاً للابتهاج بالنسبة إلى جيلز''، بدا حسوداً.

– ''نعم''.

– ''ماذا تعرفين عن الزواج، أمي؟''.

– ''شقيقاتي...''.

– ''شقيقاتك؟ هل لدي خالات؟''، قفز سيلاس من المفاجأة.

– ''نعم''.

''هل يمكنك أن تخبريني، أو أنهم سر كبير؟ من المحرج جداً في المدرسة ألا يكون لدى الشخص أقارب. يتفاخر الفتيان بأقاربهم، هل هم عاهرات أو ماذا؟''.

– ''أنا العاهرة الوحيدة في العائلة؟''.

– ''أوه! أمي''.

زحف سيلاس في السرير ليصبح قربها، ''أنا تقريباً جلست فوق تريب، ماذا حدث لهن؟''.

''تزوجن''، فكرت هيبي في آن وبيتيا وكارا، ''تزوجت آن برجل يدعى روبرت، وكان لديهما سيارة جاكوار، وبيتيا تزوجت بديليان، وكانت سيارتهما ألفا روميو، وكارا تزوجت بماركوس، وكانت سيارتهما رانج روفر''.

أثرياء''، كان مدهوشاً.

– ''هكذا كان الأمر''.

''ماذا تقصدين؟''، شعر سيلاس بالقلق من نبرة صوتها، كان هناك ضيق في حنجرتها.

''حسناً''، وجدت نفسها تتحدث بحرية أكبر، ''كن أكبر مني بكثير، اعتدت أن أراقبهن وأصغي إليهن. كن يتحدثن كثيراً عن الرجال والزواج، وعندما تلتقي إحداهن رجلاً جديداً، كن يتحدثن عنه فكانت تقول، ''التقيت رجلاً جديداً''، وتسأل الأخريات دوماً، ''هل هو ثري؟''، لم يكن يبدو مهماً أن يكون موهوباً أو وسيماً، فالسؤال دوماً كان: ''هل هو ثري؟''.

''ثري؟''، كرر سيلاس الكلمة، ''ثري؟''.

"بالطبع كانوا جميعاً لائقون"، قالت هيبي.

–"ماذا تعني لائق؟".

"لائق تعني... أوه، لائق تعني أن يكون قد تلقى التعليم في مدارس خاصة، أقاربه من الناس المرموقين، النوع المثالي. كانوا يسألون: هل هو ثري؟، ثم يسألون: هل له أقارب مرموقون؟ هل هم مثلنا؟".

يا للمسيح! تماماً مثل المدرسة، فكر سيلاس.

– "ثم يتحدثون كثيراً عبر الهاتف، يضحكون ويصرخون عبر الهاتف، لم يكن يهمهن أن يسمعهن أحدٌ مصادفة، كان هذا جزءاً من الجوّ".

– "ساحر".

– "لم أشعر أبداً أنني قادرة على ذلك".

"لا أريد أن أكون لائقاً"، قال سيلاس الذي كان يفكر ملياً في الكلمة.

– "لا أظن أن هناك أي خطر في ذلك".

– "أنا جائع جداً، أمي، هل نهجم على المطبخ؟".

نزلا الدرج وهما ملفوفان بالأغطية، ولأن تريب انزعجت أنهما أخذا غطاءها الدافئ اندست تحت الوسادات. أعدت هيبي شطائر من اللحم المقدد، وعادا إلى السرير يحملان الأطباق وأكواب الحليب. خرجت تريب من النافذة إلى جولتها الليلية.

"كيف كان أبوك وأمك يبدوان؟"، سأل سيلاس وفمه مليء بالطعام.

– "لم أعرفهما أبداً. ماتا في حادث تحطم طائرة عندما كنت طفلة. قام جداي على رعايتنا".

"هل كانا لائقين؟"، تبنى سيلاس الكلمة في حديثه.

– "رأيتهما هذا الصباح".

"ماذا؟"، وضع سيلاس كوبه بقوة، "أين؟".

"أثناء عودتي إلى المنزل. التقيتهما في طريق ضيق، طريق فرعي كنت أعبره، كانا قد اصطدما بسيارة لاند روفر". وصفت هيبي المشهد كما تذكرته، "كان لديهما كلب جميل، لقد ناداه ليبتعد عندما كنت على وشك أن أربت عليه، فقلت: سأجد لكما قاطع طريق بشعر طويل، متسكع أسود، ليصلح سيارتكما... لماذا تضحك؟ لم أقل ذلك فعلاً".

"هذا مضحك جداً، ماذا يعني هذا الكلام؟ لماذا ستقولين ذلك؟"، انفجر سيلاس بنوبة من الضحك.

وجدت هيبي نفسها تصف الاستجواب الذي تعرضت له، واجتماع العائلة، والتخطيط لعملية الإجهاض، والجدين والشقيقات والأصهار، والهرب، والرحلة إلى كرونول، وطلب المساعدة من الناس للنقل المجاني، والوصول الأخير إلى عتبة منزل إيمي، والكوابيس المتكررة... لم تفكر في تلك اللحظات أن سيلاس كان على وشك الإصابة بالهستيريا.

خمنت أن ضحكه كان ضرورياً له مثلما كانت رواية الحكاية ضرورية لها. لقد بدأت الآن ولم يعد بإمكانها التوقف. وضعت أمامه الحياة التي كانت قد احتفظت بها سراً لنفسها. دقت ساعة البلدة دقتين ثم ثلاث دقات. بعيداً في الريف صاح ديك، وبدأت طيور النورس تصيح فوق أسطحة المنازل. تكوّر سيلاس على نفسه تحت الغطاء، واقترب منها ليقبلها ويقول لها‘‘ ’’لا أظن أن جيم لائق‘‘، قبل أن يغط في النوم. سحبت هيبي الغطاء فوق رأسها وهي تشعر بالراحة أخيراً، وهي تحس قرب طفلها كما كانت تشعر وهو في رحمها.

خططت هيبي لليوم التالي، فيما كان سيلاس قربها غارقاً في النوم، أولاً، يجب استعادة الحقيبة القماشية من عائلة ريفز، هذا الأمر الذي كان كارثة بالنسبة إلى سيلاس الذي يخشى الإحراج. هل كان هناك الحقيبة القماشية وعائلة ريفز فقط، فكرت ملياً، أو أن هناك شيئاً آخر؟ كان ذهنها صافياً الآن بعدما أفرغت كل ما لديها أمام سيلاس. فكرت في وضعه، ألم تكن عائلة ريفز تمثل النوع المثالي من الناس، النوع المهذب من الأصدقاء الذين كان يجب أن يكون سعيداً معهم في المدرسة؟

’’لكنه ليس سعيداً‘‘، همست للهرة التي عادت من جولتها الليلية واندست في السرير، ’’ليس سعيداً على الإطلاق‘‘. بالصفاء الذي يتبع أحياناً الحد الأقصى من التعب، فكرت وهي تخطط أمور سيلاس في الفرص التي حظي بها في التعليم والأصدقاء. كان كل شيء جيداً قبل أن ينتسب إلى المدرسة. كانت تتركه مع إيمي لمدد قصيرة فيما تذهب للطهو لدى لوسي، أو ماغي كوك – بوفام، أو لويزا. وعندما بدأت الرابطة، عادت تتركه من جديد مع إيمي، وقد لجأت أخيراً فقط إلى العمل بصورة فصلية، حتى تكون حرة في العطل لتبقى مع سيلاس.

’’والآن؟‘‘، همست للهرة التي استلقت دافئة قرب رقبتها، ’’الآن إيمي ليست بصحة جيدة كي تساعد، سيلاس ليس سعيداً، وأنا‘‘، همست، ’’يجب أن أقرر ماذا أفعل‘‘. مصغية إلى صراخ النوارس الغاضبة، واجهت نفسها بسؤال، هل أرسلت سيلاس بعيداً من أجل مصلحته، لأنه سيحصل بذلك على أفضل تعليم، أو أنها أرسلته بعيداً حتى يكون بإمكانها أن تستمتع برابطتها؟. ’’هل هو في المدرسة لمصلحته أم لمصلحتي؟‘‘، همست للهرة، لكنها لم تكن في حالة شك حقيقي. فكرت في عطل نهاية الأسبوع في باريس مع هيبولايت بالمعنويات العالية والطعام اللذيذ، فكرت في الأسابيع

التي كانت تقضيها مع مونغو الذي كان مولعاً بها، ’’لقد تحسن إلى أن كان بإمكاننا خوض كل تلك الرحلات الجميلة‘‘. أوه، يا إلهي، فكرت في الهجوم المباغت المنذر، هناك هذا الجيم، والد سيلاس، ماذا عنه؟ شعرت بالتهديد، ليس لدينا ذكريات مشتركة، فكرت، وهي تشعر بالجموح، أنا لا أعرف حتى هل يحب الهررة، ’’هذا كله كثير جداً‘‘، قالت بصوتٍ عالٍ، ’’أولاً وقبل كل شيء، لنركز على الحقيبة القماشية‘‘.

قاد مونغو بحيوية واندفاع. كانوا قد قضوا الليلة في فندق قرب نهر هيلفورد وقد شعر بالذعر عندما أصرت أليسون على المرور على مخزن أدوية في ترورو، لأنها كانت تخطط لإحدى نوبات صداعها الداعر (للدقة صداعها الناتج عن قلة ممارسة الجنس)، لكن هذا الخوف لم يكن له أساس. فبعد أن تناولا العشاء مع روري الذي سلاهم خلال العشاء بوصف حياته كصانع قبعات، شعر أن روحه خفيفة بفعل النبيذ الذي احتساه. صعد إلى غرفتهما ليجد أنها لم تشتر، كما توقع، أسبرين قابلاً للذوبان في الماء، وإنما مجموعة من وسائل منع الحمل.

"أيها تفضل؟"، عرضت أليسون عليه ما لديها، "المهيج؟ النخبوي؟ أم الواقي الذكري؟".

قال مونغو: "الواقي طوال الوقت، أم علينا"، قال مونغو وهو يتذكر الليلة التي أمضياها في منزل لويزا، "أن نسميها بوابة الإسطبل... احمي السور عندما نصل إليها".

سحبته أليسون إلى السرير، وهي تقول: "لن أقول لا لطفل آخر".

"هناك الكثير ليقال لكن يا فتيات الريف"، قال مونغو وهو يحتضنها.

فكر مونغو، وهو يقود السيارة إلى بنزانسي، أن رحلة أليسون إلى سانتا باربرا أعطتها قدراً من الفائدة، أنا رجل عادل، أنا مدين لذلك الوغد إيلي بالشكر، لكن لم يخطر في باله أن هناك أوقاتاً مضت كانت فيها أليسون مدينة بالشكر لهيبي على نحو مشابه.

استمع روري بصمت إلى حديث مونغو وأليسون أثناء الطريق إلى كرونول، بدا أنهما متلهفان للاجتماع بطفليهما، الطفلان الصغيران الرهيبان. ألم يشتمهما مونغو عندما كان ثملاً، وقال إنهما كانا سبباً للمشكلات والصعوبات في حياته؟

"علينا أن ندعو مايكل لقضاء العطلة المقبلة معنا"، قال مونغو، "نحن مدينون بذلك لعائلة ريفز".

"لم لا ندعو عائلة ريفز لقضاء عطلة الميلاد"، قالت أليسون مقترحة، "ندعو الجميع".

– "ذلك صعب، جنيفر غامضة، مملة نوعاً ما".

– "سأهتم بها، يمكنك أن تأخذ جوليان للرماية أو للعب الغولف".

"حسناً"، قال مونغو بلطف.

– "أظن أن معهم صبياً من مدرسة مايكل، إذا كان أليستر وإيان قد تآلفا معه، يمكننا أن ندعوه أيضاً. إنهم لا يتمكنون من الحصول على ما يكفي من الأصدقاء. هو حتماً سيكون جيداً لأن جنيفر

دعته‘‘.

’’هل هذه... جنيفر...‘‘، سأل روري.

’’خبيرة‘‘، قال مونغو، ’’سيدة من النوع القوي، تعرف من يكون الشخص، تبحث عن التأثير والنوع المثالي من الأصدقاء لابنها، أي فتى تدعوه للبقاء معهم لا بد أنه... أنت تعرف ما أقصده‘‘.

’’مثالي‘‘، قالت أليسون مقترحة.

’’جيد اجتماعياً... جيد؟‘‘، قال روري، ’’حسناً، واحد منا؟‘‘.

– ’’نعم، بالطبع‘‘.

فكر روري مقارناً بين مونغو الذي يعيد اتحاده بأليسون، كأب لعائلة، ومونغو الذي كان ينتحب من أجل عشيقته التي تشارك معها السرير قبل ثلاثة ليالٍ، سيفسح هذا لي المجال قليلاً. كان قد خطط لجولة في كراجات السيارات، حيث من الممكن أن يجد من يتعرف إلى سيارة هيبي، فكر متأملاً أن خدمة أعطال الطرق قد يساعدون في ذلك، وحتى الشرطة يمكن أن تساعد إذا اضطر الأمر.

’’كراج السيارات اللعين مزدحم‘‘، قال مونغو وهو يدخل إلى مهبط المروحية، ’’أين يمكنني أن أجد مكاناً أضاجع فيه السيارة اللعينة؟‘‘.

عضت أليسون شفتيها، نظر مونغو إلى أليسون بحنو، وقال: ’’لا تسمحي بتلك الكلمة، لن يتكرر ذلك ثانية إلا في المكان الصحيح‘‘.

كيف تحملته هيبي، بأسلوب صراخه المرتفع؟ سأل روري نفسه.

’’أظن أن تلك هي مروحيتهم‘‘، مدت ليسون عنقها إلى الأمام فيما كان مونغو يحشر السيارة في فراغ بين السيارات، ’’قالت جنيفر إنهم سيصلون في الثانية عشرة والنصف‘‘.

كان سيلاس، وهو يقف قرب هيبي في مهبط المروحيات، متشنجاً مسبقاً من اللقاء المحتمل مع عائلة ريفز، استولى عليه رعب جديد، ’’أوه! يا إلهي! أمي، سيكون على عائلة ريفز أن يدفعوا ضريبة حمل زائد على حقيبتي، هذا مكتوب هنا‘‘، أشار إلى لوحة ملاحظة تقول، ’’الأمتعة الزائدة تكلف ثلاثين بنساً لكل كيلو غرام‘‘.

’’أنا سأدفع إن كانت زائدة. لا تقلق لذلك‘‘، هو يشغل نفسه باليخنة وهذا يجعلني مفرطة الغضب، فكرت هيبي، وهي تشعر بالأسى والتعاطف مع طفلها. ’’ها قد وصلت مروحية، إنها مروحيتهم على الأرجح‘‘.

’’أوه، يا إلهي!‘‘، همس سيلاس، ’’ماذا سأقول؟‘‘.

– ’’فقط كن طبيعياً‘‘.

”ما هو الطبيعي؟“، صاح سيلاس بألم.

شاهدا المروحية تهبط، وهما يقفان جنباً إلى جنب، يدعمان بعضهما بعضاً استعداداً للمواجهة.

اقترب جيم، الذي وصل متأخراً، أخّرته حاجة برنارد الملحة إلى شراء الأزهار من أجل إيمي (أنا أعوض خمسين عاماً من إهمالي المجمل)، اقترب والمروحية تهبط وتطفئ محركها. ركض إلى مدرج الوصول داخلاً خلف رجلين وامرأة كان من الواضح أنهما أيضاً ينتظران أصدقاء. وصل حشد من الناس القادمين على متن المروحية إلى الصالة. وفد من القادمين الذين يتحدثون بلفظ واثق للأحرف الصوتية، وأصواتهم تتدفق من خلف ألواح الفورميكا. علا صياحهم بالتحيات عندما شاهدوا الأشخاص الذين كانوا يقفون أمام جيم.

– ”أليسون، عزيزتي“.

– ”جنيفر، حبيبتي، جوليان“.

– ”مونغو العزيز، كيف حالك، تبدو بخير“.

– ”هذا ابن عمي روري غرانت، جنيفر ريفز“.

– ”كيف حالك، وأنت تعرف أليستر، إيان ومايكل، بالطبع. انظر حولك، عزيزي، يفترض أن تكون تلك المرأة المزعجة هنا لتأخذ أشياء ابنها الحقير“.

شاهد جيم هيبي وسيلاس يقفان في مواجهة الحشد، الذين لوّحتهم الشمس وهم يتمتعون بالحيوية ويحملون أمتعتهم وفوقها الكثير من الثقة بالنفس. سحب سيلاس نفسه إلى جانب أمه، شعره مموج، وعيناه البنيتان اللتان تشبهان كثيراً عيني هيبي تنظران بتعالٍ. اختبر فتنة الكبرياء. هيبي التي عرفت أليسون ومونغو وروري كافحت كي تمنع قلبها من السقوط بين قدميها، كانت هذه مصادفة مروعة ظنت أنها من المستحيل أن تحدث.

اجتمع المسافرون القادمون على متن المروحية في كراج السيارات لوضع أمتعتهم، وركوب سياراتهم، واضعين أحزمة الأمان، لينطلقوا بعيداً إلى لندن، بريستول، برمنغهام، ستيفنج، هارولد نيوتاون.

صاحت جنيفر ريفز مجدداً بصوتها الجهوري: ”انظر حولك، جوليان، انظر أين يمكنك أن ترى تلك المرأة“.

”لا حاجة إلى أن ينظر بعيداً“، قالت هيبي وهي تخطو إلى الأمام.

هدأ الحشد الذين يلفظون الأحرف الصوتية بأسلوب صحيح، تجمدوا في ما وصفه سيلاس بعد سنوات من ذلك بأنه كان غراء اجتماعياً.

''شكراً جزيلاً لكم''، أخذت هيبي الحقيبة القماشية من مايكل، ''هل أنا مدينة لكم بدفع غرامة وزن إضافي؟ سيلاس قلق بخصوص هذا''، استدارت نحو جوليان: ''أوه، مرحباً''.

كان جوليان وهو يدير ظهره إلى الشمس يبدو مثل الرجل الذي تعرضت معه للفشل منذ وقت طويل في روما. كاد قلب هيبي أن يسقط من جديد. جوليان، الذي عرف في هيبي نوع المرأة التي يمكن معها المخاطرة بترك جنيفر إلى الأبد، أجاب بود: ''مرحباً''، وبابتسامة عريضة. جنيفر، التي اشتمت رائحة الخطر انطلقت بسرعة للدفاع عن ممتلكاتها، دفعت جانباً يد جوليان التي امتدت باتجاه هيبي وهو يقول: ''كان رائعاً أن يبقى سيلاس معنا''. وكان على وشك أن يضيف أنه يأمل أن يأتي سيلاس مرة ثانية وأن هيبي يجب أن تأتي أيضاً. كان لا بد من منع ذلك.

لكن هيبي كانت تبتسم بارتياح الأمر الذي لم تكن جنيفر تستطيع معه شيئاً، لأنها أدركت أن جوليان يقدم طلباً محتملاً للانضمام إلى الرابطة. نزعت نظارتها وهي تنظر إليهم لتراهم بشكل غير واضح تماماً، صدمها أنها شعرت بمرح في غير مكانه. شحنة المشاعر التي كانت بين هيبي وعائلة ريفز على غرابتها أعطت شرارة كانت تقريباً ملموسة. شعر جيم وهو يراقبهم بانفعال طائش.

تقدمت أليسون نحو هيبي مصافحةً اليد التي تمنى جوليان أن يصافحها، وقالت: ''كم هذا لطيف، أنت من ينقذ حياة حماتي بطهوك الرائع، أليس كذلك؟ كل ذلك الطعام الساحر''، بقيت محتفظة بيد هيبي.

''هذا صحيح''، ناضلت هيبي لتستعيد برودها، ''أحب العمل لديها، إنها محترمة جداً''.

''وكذلك مونغو''، قالت أليسون وهي تنظر مبتسمة إلى هيبي التي كانت أطول منها برأس تقريباً.

''وهل هذان الصبيان ولداك؟ سبب المشكلات والتعب؟''، سألت هيبي وهي تتظاهر بالضحك لإخفاء بداية الهستيريا التي أصابتها.

''نعم''، قالت أليسون التي شدت يد هيبي قبل أن تتركها، ''هو لا يكرههم طوال الوقت، حتى إننا نفكر في طفل آخر''. قالت وهي تخفض صوتها لتتحدث بسرية وهي تخطو مبتعدة عن جنيفر وتقف بجانب هيبي، وتبتسم بالود الذي ترجوه.

''النساء!''، همس مونغو متعجباً لروري، ''الأحمق العجوز جوليان ورّط نفسه في هذا، هو تقريباً قدم عرضاً''.

''كيف يجرؤ؟''، همس روري مشمئزاً.

لكن جوليان، الذي لم يردع بوجود زوجته، تابع المحاولة، ''لماذا لا نرتب موعداً؟ يمكننا ربما في العطل المقبلة...''. قاطعته جنيفر من جديد قائلة: ''نحن لم نرك أبداً في النشاطات الرياضية في

المدرسة ولا في حفل يوم التأسيس"، ناضلت لاستعادة تفوقها، الأمر الذي تراه من حقها.

"أخشى الآن أنك من غير المحتمل أن تريني"، ردت هيبي ببرود، "هناك مدرسة شاملة جيدة مليئة بالناس المهذبين من النوع المثالي، سيذهب سيلاس إليها"، وإلى جانبها كان سيلاس متورداً ومتوهجاً بالمتعة، "آه، ها أنت"، قالت لجيم الذي اقترب منها.

"هل آخذ الحقيبة؟"، سأل جيم، "لا يمكنك حملها أكثر من ذلك"، قال موجهاً الحديث إليها بطريقة خاصة.

"لا أظن أنكم التقيتم والد سيلاس"، قالت هيبي رافعة صوتها وهي تنظر حولها إلى حلقة الوجوه التي تراها مشوشة بفعل قصر نظرها، بقدر ما مشاعرها مشوشة.

"نعم، خذها، عزيزي"، أعطت الحقيبة لجيم.

اقترب روري من هيبي: "كنت آمل، كنت ذاهباً للبحث... للبحث...".

– "عني؟".

"نعم، رقم... سيارتك... يحمل...".

– "كرونول؟".

"أوه، هيبي"، وقف أمامها.

حين قررت حنة بين خطوة وأخرى أنها ستتزوج ثانية، وجدت تيري مباشرة تقريباً بعد ذلك، كانت هيبي تواجه إغواء، كم هو سهل أن تتزوج روري غير المتردد في حبه، كم هو مغرٍ أن تستقر في منزله الجورجي مع النافذة المروحية والأداة المعدنية لقرع الباب التي لها شكل دلفين، كم هو لطيف أن تقضي عطل نهاية الأسبوع في غابة الكرز الخاصة بعمة أبيه كاليبسو، لن يكون هناك مشاجرات، سيكون هناك هدوء تام، ربما الكثير جداً من الهدوء. سيكون ذلك ظالماً، التقت عيناها قصيرتا النظر بعينيه القلقتين.

"إلى اللقاء، روري، العزيز، بلغ حبي للعمة لويزا"، لم تلمسه، "لقد أحببت العمل عندها أكثر من أي أحد آخر. سآتي في يوم ما وأشتري واحدة من قبعاتك".

"هل سيكون هذا كل شيء؟"، عيناه اللتان كانتا تدوران عادة نظرتا إليها مباشرة.

"أخشى ذلك"، قالت بحزن.

"سوف أصمم... واحدة رائعة خاصة"، كان روري شجاعاً.

"سأرتديها في الاحتفالات"، قالت.

– "أتمنى... أوه، أتمنى لو أنني أستطيع الاحتفال".

تبع روري مكرهاً الآخرين الذين كانوا يتجهون إلى الخارج، ''حسناً، أتوقع أنه من الأفضل أن أذهب''.

– ''أتمنى أن أراك قريباً''.

– ''هل أنهينا كل شيء؟''.

''ماذا عن تناول الغداء في أحد الأيام؟''، وأشياء من هذا النوع.

انتبه مونغو أن أليسون لم تدعُ جنيفر لتأتي بعائلتها في عطلة عيد الميلاد.

لم يتحدث مايكل وإيان وأليستر، لكنهم تبادلوا النظرات، رفعوا حواجبهم وحاولوا أن ينظروا في عيني سيلاس للتأكد من غياب الصداقة.

تحدث جوليان إلى جنيفر محاولاً استرجاع ثبات الأرض التي غدت زلقة تحت قدميه: ''أقسم لك أن عيني لم تقع على الفتاة من قبل''، كان صوته مفعماً بالإثم.

– ''لا أصدقك أبداً، لقد عرفتك، قالت مرحباً''.

''قالت مرحباً لنا جميعاً''، حاول جوليان بيأس أن يصرف انتباه زوجته عن الأمر، ''إنها فتاة عادية تماماً''.

''أظن أنها عاهرة عادية تماماً. عليك أن تخبرني كيف وأين أنت...''، بدأت جنيفر الاستجواب وهم يتجهون نحو سيارتهم.

إذا كان هناك شيء واحد وحّد الجمع الواثق جداً كان هو الإحساس العام بالرثاء لحال جوليان، الذي، كما شعروا، كان يمر بوقت عصيب لم يكن يستحقه هذه المرة.

''كنت أشك دوماً أن هذه العجوز جنيفر فيها أثر ضئيل من الكذب''، قال مونغو وهو يقود السيارة نحو المنزل.

''بالطبع هي كاذبة''، متفهمة وجهة النظر الجديدة عن صديقة العائلة، ''ومن السخف أن تظهر غيرتها أمام الناس''.

قالت بعد عدة أميال: ''كنت أفكر دوماً أننا يجب أن نفكر في مدرسة خاصة بديلة عن إيتون''.

قاد مونغو في ذهول وصمت عدة أميال، قبل أن يجيب: ''علينا أن نفكر في هذا إذا كنا سنضيف فرداً جديداً إلى العائلة''.

''يا للروعة، ما هذا الغزل''، افتتح روري الحديث الذي سيصبح حديث سعادة وابتهاج طويلاً في ما بعد.

تبادل إيان وأليستر نظرات ماكرة معيدين النظر إلى والديهما، فيما كان مونغو يناور بالسيارة ليخرج من الازحام. شاهدوا سيلاس يركض ويقفز عبر مدرج المروحية، كانت حركاته رائعة وهو يفتح ذراعيه ويقفز فوق الورود تعبيراً عن السعادة الخالصة وهو ذاهب للقاء جيلز. اقترح إيان أنه كان يصيح، "لم أخرج من الزجاجة"، الأمر الذي قال أليستر إنه كان كلام فارغ.

استرخى مايكل في المقعد الخلفي وراء والديه المتحاربين. تابع مايكل ثورتهم الطائشة التي بدأت على مائدة العشاء خلال زيارة سيلاس.

٣٥

كان الناس في مكتب المروحية غير مهتمين بهيبي وجيم، كان لديهم هواتف يردون عليها، وحجوزات يقومون بها، وفناجين قهوة يشربوها. ولأن المروحية التالية ستغادر خلال ساعة ونصف، كان بإمكانهم أن يتبادلوا المجاملات، ويكملوا ثرثرتهم خلال هذا الوقت.

"يجب أن أعتذر لك عن مناداتك بعزيزي"، قالت هيبي بعناد.

"ذاك حسن تماماً"، قال جيم، "ذاك جيد جداً".

"لقد كان ذلك تصنعاً"، قالت هيبي.

"أفهم تماماً"، قال.

– "شكراً لك".

– "هناك مقعد في الخارج، هل نذهب ونجلس عليه؟".

هل لاحظ ركبتاي تصطدمان ببعضهما بعضاً؟ لا يجب أن أفسح المجال الآن. أتمنى لو أن سيلاس لم يخرج ويتركنا. أتمنى لو أنني شعرت بشيء، لو أنني عرفت بماذا أشعر.

"هناك، اجلسي هناك"، قال، "إنه مكان لطيف في الشمس، لا داعي لقول أي شيء".

كيف يعرف؟ سألت نفسها وهي تجلس فوق المقعد، هناك الكثير ليقال، كم هو مروع هذا؟ لماذا لا يقول شيئاً؟

لم يقل جيم شيئاً.

قالت هيبي: "هل سمعتني؟ لقد قلت لتلك المرأة إن سيلاس لن يعود إلى تلك المدرسة مرة أخرى".

– "نعم، سمعتك".

"هو ليس سعيداً هناك"، قالت هيبي، "إنه تعيس".

– "إذاً، أنت تفعلين الشيء الصحيح".

– "هل تظن هذا؟ هل تظن هذا حقاً؟".

– "نعم، أظن ذلك".

"أنا حقاً أريد أن يكون سعيداً"، قالت.

– "نعم".

''أوه''، قالت هيبي، ''مصادفة مفاجئة تذهب برابطتي!''.

لم يفهم جيم عمّا كانت تتحدث.

ماذا يمكنني أن أقول دون أن أتسبب في إحراجها، فكر، أنا لا أعرف هذه المرأة، ما الجحيم الذي تقصده بالرابطة؟ إذا سألت، فهي قد تثور في وجهي، أتمنى لو كنت في المنزل في فولهام، مع متجر القهوة، وأثرياتي، دون كل هذا الإزعاج اللعين، ''أوه، يا للمسيح!''، قال، ''أنت تبكين''. كانت مرهقة بالبكاء. أخرج منديلاً من جيبه. ما هذا البكاء المشوش. أعطاها المنديل. ما الذي ورطت نفسي فيه؟ أخذت نفساً عميقاً، لو كانت رجلاً كنت سأقول إنها تتظاهر. توقفت عن البكاء، بدت مشوشة، انتظر منها أن تقول ''أبدو مشوشة''، لكنها لم تفعل. مسحت أنفها مرة أخيرة، ثم جعدت المنديل ووضعته في حقيبتها.

''شكراً''، قالت.

كان المنديل المفضل لدي، فكر، معجباً بتصرفها، أشك أنني سأراه مرة ثانية.

''ستستعيده عندما يصبح نظيفاً''، قالت.

لا بد أن معرفتها بالرجال هي ما تجعلها قادرة على قراءة أفكاري، كان سعيداً نوعاً ما لفطنته.

''لقد استعدت الحقيبة القماشية، وهذا جيد''، قال في محاولة لاستئناف الحديث.

– ''نعم''.

– ''وقررت مستقبل سيلاس؟''.

– ''نعم''.

– ''هل أنت دوماً مندفعة جداً؟''.

''أفكر في ذلك منذ مدة''، منذ عدة أيام، فكرت.

– ''بدا سعيداً جداً، متألقاً''.

– ''حقاً؟ لقد نزعت نظارتي''.

– ''ذاك الشاب جوليان ريفز...''.

بدأت هيبي بالضحك، ربما أخبره إذا تعرفت إليه يوماً ما، عن المهزلة التي حدثت في روما.

– ''شعرت بالأسف نوعاً ما على ذلك الشاب الذي يشبه الأرنب''.

– ''الأرنب البري، إنه صانع قبعات''.

– ''لكن ذاك الذي اندفعت زوجته لتتحالف معك وجد كل ما جرى مضحكاً نوعاً ما. هل هي من صديقاتك؟''.

– "ربما تصبح كذلك".

– "بدا أنه يعرفك جيداً، زوجها".

سالت عينا هيبي وأنفها جراء البكاء، نظرت إليه بحنان.

"أوه، أفهم"، قال جيم، "فهمت، هو واحد من...".

– "نعم".

– "عرفت ذلك، جميعهم كانوا...".

أومأت برأسها، "تقريباً جميعهم"، أشاحت بنظرها بعيداً.

حاول وهو يراقب وجهها أن يخمن ماذا كانت تفكر، حاول أن يقرأ أفكارها.

كانا يجلسان في الشمس.

فكر جيم، علينا أن نتحدث، يجب أن تخبرني ما هو الجحيم الذي كانت تفعله طوال هذه السنوات. يجب أن تخبرني عن عشاقها، يجب أن تشرح حياتها، أن تخبرني كيف تتدبر الأمور. بإمكانها أن تخبرني عن عملها في الطهو، ثم يمكننا أن ننتقل إلى الرجال. من الواضح أنها لا تستطيع أن تستمر بذلك، لكن هل هناك آخرون؟ يجب أن تخبرني عن أصدقائها، عن طفلنا. جلست هيبي قربه مسترخية، كانت متعبة بوضوح، وتشعر بالنعاس.

يجب أن أخبرها كيف طاردت كل فتاة بدت تذكّر بها، يجب أن أخبرها أنني لم أخرجها أبداً من حياتي، أنني كنت آمل على الدوام أن أجدها، أنني أحبها. لكن هل أنا كذلك؟ راقبها وهي تجلس، وجهها مرفوع نحو الشمس، عيناها مغمضتان، وضعت نظارتها بعفوية في حضنها، ارتعش، أنا خائف، فكر.

"في لوكا"، سعل، " أنا...".

استدارت هيبي نحوه، لبست نظارتها، زانت كلماتها بهدوء: "إنها مجرد فكرة"، قالت، "فكرة لديك. أنا لست تلك الفتاة التي تذكرها، أنا لست سخيفة ولا ساذجة كذلك. أنت تذكرها، أنا أذكر رائحة، لم أكن أعرف أن هذه رائحتك حتى الأمس. أنا ممتنة لك لمساعدة سيلاس، أنا ممتنة لك لمساعدتنا اليوم، أنا...".

"أوه، اخرسي"، قال جيم غاضباً.

– "هذا ما كان جدي يقوله لجدتي دوماً".

"كان محقاً على الأرجح"، قال جيم ساخراً.

"لا، لم يكن محقاً"، صاحت هيبي بغضب.

''كم عمرك؟''، سأل جيم.

– ''ثلاثون عاماً، لماذا؟''.

– ''أحسب كم من السنوات علينا أن نتكلم ونتشاجر''.

– ''أوه''.

''هل نبدأ بالشجار؟ يمكنك إذاً أن تخبريني عن جدك اللعين''، قال جيم الذي لم يعد يطيق صبراً، ''يمكنني أن أخبرك عن نفسي، يمكنك أن تخبريني ما تعرفينه عن سيلاس، ابننا، لدينا سنوات وسنوات، هيا...''. لم يعد يتمنى لو كان في فولهام، تساءل ماذا سيحدث إن ضربها، على الأرجح ستضربه في المقابل، ''هيا''، قال، ''دعينا نبدأ، تكلمي''.

''حسناً''، قالت، وتساءلت إذا كان نصف الأمر سيقال، وعرفت أن هذا لم يكن مهماً، ''من أين سنبدأ؟''.

''هل هناك الكثير منهم؟''، سأل جيم.

''كثير من ماذا؟''، راوغت.

''الرابطة كاملة''، حاول أن يكون صبوراً.

''اممم''، نزعت نظارتها، ''لا''.

– ''لا تنزعيهما، يجب أن تريني بوضوح''.

دفعت هيبي النظارة فوق أنفها بثقة، استدارت نحوه، التقت عيناهما.

''كم واحداً آخر؟''، سأل جيم بشجاعة.

– ''واحد''.

ماذا ستفعل بخصوص ذلك الواحد، سأل نفسه، وجد أن نبضات قلبه بدأت تتسارع نوعاً ما.

''من الأفضل أن أجري اتصالاً. هل لديك نقود معدنية؟ إنها مسافة بعيدة''، قالت.

أفرغ جيوبه، أعطاها النقود المعدنية، راقبها وهي تتجه إلى حجيرة الهاتف، تطلب الرقم، تدخل النقود، تضغط الزر، تبدأ الحديث، شعر بالذعر. أي أحمق أنا، فكر، لماذا تركتها تتصل؟ سيقول لها الرجل اللعين أن تنهي الأمر بسرعة وتذهب حالاً إليه، لا، لن يقول ذلك، سيقول، ابقِ حيث أنت أنا قادم لإحضارك. كيف أكون أبله جداً، مغفلاً جداً، أنا بالتأكيد سلمتها له، راقبها تتحدث، حاول أن يقرأ شفتيها، ارتجف عندما ضحكت، أجفل عندما قالت شيئاً بعذوبة جداً، كان واثقاً جداً أنه قادر على قتل الشخص الذي كانت تتحدث إليه أياً كان. أخيراً، عادت وجلست قربه.

''إذاً''، قالت، ''ماذا بعد''، كانت مرهقة.

قال جيم، ''ماذا قال؟''.

ـ ''قال: Quel garce[38]''.

[38] يا لكِ من لعينة.

ـ ''أوه؟''.

''كان ذلك هيبولايت''، قالت هيبي، ''مؤسس...''.

''رابطتك؟''، شعر جيم بفورة غضب.

''أخبرته ما حدث''، قالت بهدوء، ''أنا... شرحت، لديه الآن مطعم في لندن، لقد قدم إلينا دعوات مجانية دائمة''، كان فمها مشدوداً بابتسامة، لم تكن تنظر إليه، مثلما شعر بالإعجاب نحوها عندما احتفظت بالمنديل، احترمها لأنها لم تقل ''ستحبه''. سيكون ذلك كالجحيم. نزعت نظارتها من جديد.

جلسا في الشمس، فيما قلب جيم استعاد إيقاعه الطبيعي، مستعيداً قوته، قال: ''كل الطواويس ذهبوا''.

ـ ''الطواويس؟''.

ـ ''بالتأكيد أنت تعرفين قصة اسمك، هيبي، أو أن علي أن أخبرك إياها؟''.

''لا أعرفها''، اعترفت.

''لنفترض أنني تطوعت لتسرجيني، ماذا ستقولين في ذلك؟ يجب أن أشترط أنني سأجري منفرداً''. أمسك يديها، كانت تلك المرة الأولى التي يلمسها فيها منذ لقائهما في لوكا.

تركت يديها في يديه، راقبت وجهه، كانت ترغب أن تقول شيئاً ما يكون ظريفاً وخاصاً يتمكنان من تذكره في السنوات المقبلة، لكن كل ما قالته كان: ''اتفقنا!''.

عندما علم جورج سكوب من موظفة الاستقبال لديه جين عن الإشاعات حول ما يحدث في شارع ويلسون، فكر أن يمر بسيارته على مطار المروحيات في ساعة الغداء. رغم أنه كان ممتلئاً بالرعب من المشاهد والخوف العظيم من أن يجد نفسه متورطاً في الأمور التي قد تتحول إلى أفعال شريرة، كان فضوله كبيراً جداً، حافظ على مسافة أمان مستعداً للانطلاق بعيداً. كان مشمئزاً من رؤية حنة ترتدي فستاناً أرجوانياً فاضحاً تتنقل مع عشيقها الأسود الذي يمشي الهوينى ويرتدي الأبيض بالكامل. لذلك، ظهر التناقض الواضح بإشراق بين لون بشرته التي هي بلون الخوخ الأسود مع بشرة حنة الشقراء. ضحكا بقوة وهزا رأسيهما على مزحة تشاركاها مع الصبيين جيلز وسيلاس وهم يسيرون على الطريق يتناولون المثلجات. الأسود، الزنجي، فكر جورج بحقد. يا لها من أسنان

ممتازة. ليذهب إلى الجحيم مع جيلز. فكر، عندما كان يفكر في الزواج بحنة، كان عليه أن يقبل تحدي أسنان جيلز، تقويمهم كهدية زفاف لعروسه. ارتحت من ذلك، هنأ نفسه. كنت محقاً في التخلص منها (كان قد أقنع نفسه مسبقاً أنه من أراد التخلص من حنة، وليس هي) لتدع ابنها يقضي حياته مع أسنانه كما هي، فكر بفظاظة، رافضاً الاعتراف بما رآه من حركاتها المرحة أو بصيحات تيري السعيدة. كان هناك سمكة أخرى، قال لنفسه.

بينما هو ينطلق بعيداً عن المطار، لمح من بعيد هيبي تجلس على مقعد مع رجل غريب. حدق من خلال حاجب الريح محاولاً أن يرى بشكل أفضل. هل كانت تضحك أم تبكي؟ خفف سرعة السيارة، وهو يفكر، يمكنني أن أقدم إليها منزلاً راقياً. حان الوقت لأتعرف إليها على نحو أفضل، أكتشف كل شيء عنها. لكن من الطريقة التي جلست فيها هيبي مع الرجل الغريب على المقعد مستديرين نحو بعضهما بعضاً، لم يكن يبدو أن هناك مكان لطرف ثالث. أطلقت السيارة التي كانت خلف سيارة جورج بوقها، فزاد سرعة سيارته وانطلق بعيداً.

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

تجلس هيبي في الظلام منصتةً إلى جدّيها المنافِقَيْن وإخوتِها الأكبر سناً وهم يتناقشون في وجوب إنهاء حملها المفاجئ لتجنّب العار.

مصممةً على تربية طفلها، تهرب ليلاً حاملةً مجوهرات أمها لتساعدها في الرحلة.

بعد اثني عشر عاماً، نجدها تعيش بسعادة وحيدةً في كورنوول، فيما يرتاد ابنها مدرسةً خاصة باهظة. +++ ولكن حين تتشابك الخيوط المنفصلة لحياتها، يتهدّد الإيقاع الرتيب لحياتها، ويتغيّر عالمها إلى الأبد.

قيل في الكتاب

* تم تحويل الرواية إلى فيلم سينمائي
* «ممتعة بشدّة» Times
* «مبهجة وذكية» Sunday Telegraph

نبذة عن المؤلف

ماري ويسلي (1912 - 2002) روائية بريطانية. نشرت روايتها الأولى حينما كانت في السبعين من عمرها، وتابعت تأليف تسع روايات تالية صُنِّفت في لائحة الكتب الأكثر مبيعاً. قُلّدت وسام الإمبراطوريّة البريطانيّة برتبة «قائد» (CBE) في لائحة التشريفات لعام 1995.